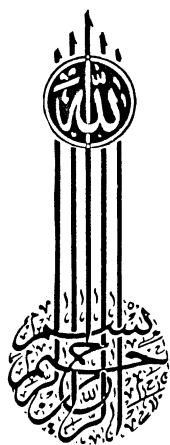


**الفلسفة الإسلامية بين المتقدم
في المشرق والتأخر في المغرب**

تأليف الأستاذ الدكتور
محمد حسيني موسى محمد الغزالي

الطبعة الثالثة
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف



المقدمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١) حكم فعدل، وخلق فسوى، وقدر فهدى، سبحانه ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾^(٢) ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تتجينا من عذابه يوم نلقاه، فهذه الشهادة أقر بها سبحانه وتعالى لنفسه، وأعلنتها ملائكته، وعليها أولوا العلم والعرفان بالله رب العالمين، قال تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٤).

وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله، وصفيه من خلقه وخليله، جعله الله رحمة مهداة، ونعمة مسداة، وسراجاً منيراً، فقال تعالى

(١) سورة القصص / ٧٠.

(٢) سورة الأنعام / ٦٢.

(٣) سورة الأعراف / ٥٤.

(٤) سورة آل عمران / ١٨. فقد بين تعالى وأعلم عباده بانفراده بالوحدانية، فقد شهدت الملائكة وأهل العلم بوحدانيته بدلائل خلقه وبدبيع صنعه، حال كونه مقيماً للعدل فيما يقسم من الأجل والأرزاق، فلا معبود في الوجود بحق إلا هو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه. راجع العلامة القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / جـ ٤ / ص ٤١.

: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(١). وقال ﷺ عن نفسه : "إنما أنا رحمة مهداة"^(٢).

اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد، صاحب الشفاعة العظمى، والحوض المورود، ففي الحديث الشريف ما روى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : أتدرون ما الكوثر؟ قلنا الله ورسوله أعلم : قال هو نهر وعدنيه ربي - عز وجل - فيه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، أنيته عدد نجوم السماء، فيختلج العبد منهم، فأقول انه من أمتي، فيقال لي إنك لا تدري ما أحدث بعدك^(٣).

كما أن رسول الله ﷺ قد وهبه الله تعالى الكوثر فقال جل شأنه : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ إِنِّ شَتَاتِكَ هُوَ الْآبُثْرُ ﴾^(٤). وفي الحديث الشريف ما روى أن رسول الله ﷺ قال : إن الكوثر نهر في الجنة، حافته من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج، من شرب منه شربة لم يمض بعدها أبدا^(٥).

(١) سورة الأنبياء / ١٠٧.

(٢) شرح الجامع الصغير / الحديث رقم ٢٥٨٣، وراجع الإمام بن سعد في الطبقات والحكيم في النوادر عن أبي صالح مرسل.

(٣) رواه الإمام الترمذي في سننه، والإمام مسلم في صحيحه، وراجع أيضا العلامة أبي حيان التوحيدي / البحر المحيط / ج٨ / ص ٥١٩.

(٤) سورة الكوثر / ١، ٢، ٣.

(٥) العلامة أبو حيان التوحيدي / ج٨ / ص ٥١٩.

وهذا الكثر مما أنعم الله به على سيدنا محمد والمؤمنين بالله رب العالمين معه. نعمة من الله تعالى باقية، وخيراً كثيراً لا ينقطع، ورغداً مستمراً تجرى فيه أنعم الله - عز وجل - التي لا تحصى عدداً.

اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد صاحب الشفاعة العظمى، والسراج المنير، وارض اللهم عن آل بيته الطاهرين، الذين مدحهم رب العالمين في قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَنَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا^(١)﴾.

وارض اللهم عن أصحابه الغر الميامين، الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم"^(٢) وقوله ﷺ: "اتقوا الله في أصحابي لا تجعلوهم غرضاً يرمى من بعدى، فكان هذا من رسول الله ﷺ بمثابة التأكيد المتواصل على حب الله لرسوله، وحب رسول الله لأصحابه، وكيف لا وهو ﷺ يقول: "افتترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافتترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة هي الناجية، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال هي ما عليه أنا وأصحابي"^(٣).

(١) سورة الأحزاب / الآيات / ٣٠ إلى ٣٤.

(٢) العلامة إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي / كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس / ج ١ / ص ١٤٧ رقم ٣٨١ مؤسسة الرسالة / بيروت / ١٤٠٥ هـ / الطبعة الرابعة / تحقيق / أحمد القلاش.

(٣) الحديث / العلامة الترمذي في سننه / ج ٥ / ص ٦٩٦ حديث رقم ٣٨٦٢ طبعة دار إحياء التراث العربي / بيروت / تحقيق / أحمد محمد شاكر وآخرون.

وارض اللهم عن أتباعه أهل العلم والعرفان الذين تستنار بهم الأكوان، لأنهم أهل الخشية من الله وأهل العرفان به، ومن ثم امتدحهم الله في القرآن الكريم فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾^(١).

وارض اللهم عن شيوخنا علماء الإسلام والمسلمين الذين مدحهم الله في قرآنه الكريم، وبين منزلتهم رسوله الأمين، في الحديث الشريف، وأنهم عند الله تعالى في منزلة النبوة التي كانت لبني إسرائيل فيقول ﷺ: "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل"^(٢).

وأكرم اللهم والدينا، وزراري، وأهلينا ونحن معهم، ولا تردنا محرومين ولا خزايا أو مطرودين، ولا تجعلنا من المغضوب عليهم ولا الضالين، فإنك أنت الله الواحد الأحد أكرم الأكرمين.

أما بعض:

فإن دراسة العلوم العقلية تحتاج صبرا طويلا، كما تحتاج جهودا متواصلة وبخاصة إذا تعلقت تلك بموضوعات على جانب من التلاقي بين المباحث الكلامية والفلسفة والأخلاقية، لأن الباحث حينئذ يجب أن يتحلى بحكمة الجراح الماهر، والسباح المتمكن، لأن أبسط الأخطاء تؤدي إلى نتائج فاشلة.

(١) سورة فاطر / ٢٨.

(٢) الحديث رواه الإمام الطبراني في المعجم الكبير / ج٢ / ١٢ / ص ٢٨٢ / مكتبة العلوم والحكم / الموصول ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م / ط٢ / تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي.

وقد اعتاد شيوخنا أن يجعلوا أبحاثهم قائمة على مبادئ، ثم أواسط وأخيراً خواتم^(١)، وسميت مبادئ باسم المقدمات؛ لأنها تبدوا أول الأمر أو أنها التي يتم بها أول الأمر، كما أطلقوا على النتائج اسم الغايات وهذه الإطلاقات لها محلها لدى كل دارس منصف.

غير أن المنهج الذي يتم التعامل معه في العلوم العقلية من منطق وفلسفة قد يختلف عن الذي يتم التعامل معه في العلوم النظرية، وبناءً عليه، فإن البحث في الفلسفة الإسلامية يعتبر مهمة شاقة لدخولها في نطاق المباحث العقلية الخاصة.

بل إن البحث في الفلسفة الإسلامية يبدأ من تعريفها وهي ولا شك تمثل صورة الدليل الموضح للحق، المزيل للشبهة^(٢).

كما أن الفلسفة الإسلامية تمثل الحجة القطعية، والكلام الصواب الواقع من النفس الإنسانية أجمل موقع، وبناءً عليه استحوذت اهتمام الكثير من الدارسين، وكيف لا؟ وهي تقوم في دلالتها على الموضوعات والأدلة وأوثقها من ناحية الاستدلال هو الذي يتوافق في مضمونه مع النقل المنزل^(٣).

ومن ثم فإن دراسة الفلسفة الإسلامية تحتاج التعامل مع كل جزئية معروضة تعاملًا خاصًا، سواء أكان هذا التعامل مما يتعلق

(١) فعل ذلك كل من صاحب الرسالة الشمسية، وكذلك صاحب تيسير تحرير القواعد المنطقية فضلاً عن العلامة الجرجاني وغيرهم.

(٢) د / محمد متولى إدريس / تفسير سورة النحل / ص ٦٦٢ رسالة دكتوراه / بكلية أصول الدين بالقاهرة / قسم التفسير.

(٣) دكتوراه / فوقيّة حسين محمود / مدخل إلى الفكر الإسلامي / ص ٦٧.

بتسمية الفلسفة، أو تعريفها، أو عوامل ظهورها، أو النتائج التي تترتب عليها.

ومن المؤكد أن هذا البحث لا يتم من خلال خطوة واحدة، وإنما استغرق خطوات عديدة، منها :

اختيار الموضوع البحثي، والمنهج المستخدم، وهيكल الموضوعات، بجانب النتائج.

أما عن الموضوع، فكم كنت أتمنى من الله عز وجل أن يوفقني في اختيار موضوع في الفلسفة الإسلامية لأنها كما يقول الإمام السيوطي : تعتبر طريقاً من أقوى طرق الاستدلال على وجود الله تعالى وتوحيده، وبيان أوجه التنزيهات وعرض العقيدة الإسلامية الصحيحة، مع دفع الشبه الواردة عليها، ورد إجابات الملاحدة حولها، وإثبات بطلان التعدد في الآلهة، وبيان فساد أقوال وعقول منكري وجود الله تعالى، إلى غير ذلك من الفوائد المرتبطة بالفلسفة الإسلامية، أو تقوم عليها وتدفع المفكر المسلم إليها، وتحثه على التفكير المستمر فيها مع حثه على التمكن منها^(١).

فيسر الله عز وجل لي الطريق بعد أن استخرته - تبارك وتعالى - فهداني لذلك فجعلت عنوان هذه الدراسة "الفلسفة الإسلامية بين التقاطع في المشرق والتأثر في المغرب" وذلك كان من أقوى الأسباب لاختياري هذا الموضوع.

(١) الإمام / جلال الدين السيوطي / الأشباه والنظائر في فروع فقه الشافعية ص ٣٧٥

أما عن المنهج فلا شك أنني سأستخدم طريقة المقارنة، وبخاصة أن البعض يتهم الفلسفة الإسلامية بالقصور، والبعض الآخر يتهمها بالتدني على أفكار الآخرين والنقل عنهم، والتأثر بأرائهم مهما كانت وثنية، حتى قضى هذا الفريق الجائر على الملامح الحقيقية لأى فكر فلسفى إسلامى متميز.

وأما عن ملامح هذا البحث ومكوناته، فقد جاء في خمسة فصول بعد المقدمة ثم الخاتمة والفهرس للمراجع والموضوعات :

- الفصل الأول جاء تحت عنوان :- ملامح الفكر الإسلامى

وتحدثت فيه عن أبرز سمات وخصائص الفكر الفلسفى القائم على أسس إسلامية بوجه عام، وفى نفس الوقت قارنت بينه والآراء الأخرى التي عرضها غيرهم، وقد حاولت الوقوف على الحقائق التي انتهت إليها وهي أن النقل المنزل هو العنصر الهام الفعال في الفكر الإسلامى^(١).

- الفصل الثاني :- التعريف بالفلسفة الإسلامية

وقد تناولت فيه الجوانب المختلفة التي يجبئ عليها تعريف الفلسفة الإسلامية سواء لاعتبارها ما ذهب إليه الدارسون التقليديون، أو باعتبار ما يمكن أن يستدل عليه من نصوص الشريعة الإسلامية، ولا محيص عن الأخذ به.

(١) وذلك مما يدل عليه مجيئ الحكمة ومشتقاتها في القرآن الكريم فقد وردت حوالى مائتان وأحد عشر مرة تقريبا راجع لمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / الأستاذ / الشيخ / محمد فؤاد عبد الباقي / ص ٢١٢ / ٢١٥ مادة / ح - ك - م.

- الفصل الثالث :- عوامل ظهور الفلسفة الإسلامية في المشرق الإسلامي

وقد بان أن هذه العوامل تتركز على القرب المكاني، والسبق الزمني مع وجود مختلفي الثقافات الذين دخلوا في الإسلام لغرض من الأغراض، أو ظلوا بعيدين عنه، لكنهم راحوا يبحثون عن ما يمكن تصور أنه عورات، ومن ثم حدث جدال متواصل بينهم وبين أصحاب النظر العقلي الإسلامي الصحيح.

- الفصل الرابع : عوامل ظهور الفلسفة الإسلامية في المغرب

وقد تعددت هذه العوامل، وتكاثرت إلى حد كبير، يمكن جمع أطرافها أو أجزائها في عدة نقاط منها :

تأخر الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس عنه بالنسبة للمشرق الإسلامي.

وكذلك وجود فلول من خصوم الإسلام في الأندلس، ثم طبيعة تلك البلاد من الناحية السياسية لما هو معروف من أن الاستقرار السياسي لأي بلد يترتب عليه ثبات كامل لثقافة أهل تلك البلد.

كذلك ظهر التكوين الذهني للعقليات الموجودة، وبان أن هذا التكوين لا يمكن أن يكون له مرد آخر يوجهه ويصوبه سوى النقل المنزل الذي ظهر في المغرب الإسلامي متأخراً عنه بعض الشيء في المشرق الإسلامي وكذلك ظهور الاضطرابات متعددة الأشكال في محيط هذه البلاد.

الفصل الخامس : أوجه الاتفاق والاختلاف

وذلك على أساس أنه ما دامت هناك دراسة بينية تقوم على المقارنة فلا بد من النظر فيها بنفس المنطق القائم على المقارنة أيضا، وبناء عليه ذكرت أوجه الاتفاق، كما ذكرت أوجه الاختلاف، ورجحت بين الآراء المعروضة على النحو الذي حملته سطور هذه الدراسة.

ثم جاءت الخاتمة وقائمة المصادر، ثم فهرس الموضوعات، وقد ألمحت إلى أني ملتزم عنوان البحث لا أحيد عنه، وهذا ما دريت نفسي عليه، فإن أكن قد وفقت، فهذا من فضل الله عليّ، وما الفضل إلا من عند الله جل علاه، وإن تعثرت بي الخطي فمن نفسي والشيطان وأرجو من الله - عز وجل - أن يثبت قلبي على دينه، وقلمي على حقه، وقدمي على صراطه المستقيم في الدنيا والآخرة، اللهم استر عوراتي، وأمن روعاتي وأقلني من عثراتي، اللهم إني ضعيف إليك فقوني، فقير إليك فاغنني، ذليل إليك فأعزني يا أرحم الراحمين ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(١).

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(٢).

الإستاذ الدكتور
محمد حبيبي موسى
محمد العنزي

الزقازيق في غرة ربيع الأول سنة ١٤٢٥ هـ
الأربعاء / ٢١ / إبريل / ٢٠٠٤ م

(١) سورة آل عمران / الآية / ٨.
(٢) سورة آل عمران / الآية / ١٩٤.

الفصل الأول ملامح الفكر الإسلامي

الفصل الأول

ملامح الفكر الإسلامي

يعتبر الفكر الإسلامي أرقى أنواع الفكر، وأعمقها أثراً، وأقواها سيطرة على النفوس، بل يعتبر ذلك الفكر بمثابة الرصيد الذي لا يمكن التفريط فيه بالنسبة لمن يريد الوصول إلى حقائق ثابتة، أو الوقوف على نوعية من الأفكار جذيرة بالاحترام والتقدير؛ لأن الفكر الإسلامي قيامه على النقل المنزل، وسماده السعي الدؤوب إلى حقائق أصيلة، وغايته هداية الخلق إلى الخالق جل علاه.

وفكر بهذه السمات، ويمتاز بتلك الخصائص، جدير بأن يتناوله الدارسون، مع التأكيد عليه، والاستفادة الكاملة منه^(١)، وأن تكون هذه التناولات في كل الجوانب التي شغلها ذلك الفكر، أما لماذا؟!!!

فلأن الفكر الإنساني حلقات يكمل بعضها البعض الآخر، ويتأثر بها نوعاً ما من التأثير، كما يؤثر فيها بصورة أو أخرى^(٢)، وكلما كانت القاعدة التي يقوم عليها ذلك الفكر ثابتة والنصوص التي تحملها صحيحة، أو برهانية أيضاً، لما هو معروف من أن المقدمات الصحيحة تعقبها نتائج صحيحة أيضاً.

بيد أنه لما كان الفكر الإنساني عرضة لأهواء أصحابه بحيث يتأثر نوعاً من التأثير بهذه الأهواء، فقد بين القرآن الكريم، أن إتياع الهوى ضلال مبين، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ

(١) د/حسن محمد عبد العاطي / سمات الفكر الإسلامي / ص ٣١ / ط أولى / مطبعة سعيد رافت / القاهرة / ١٩٨١ م.

(٢) ولذا قيل : الفكر الإنساني يزواج بعضه البعض الآخر.

وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبَهُ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ
اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ^(١).

فهذا النوع من الناس مطواع لهوى نفسه يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبد كما يعبد الرجل إلهه فلا يهوى شيئا إلا ركبته وأضله الله تعالى حال كونه عالما بالحق غير جاهل به فهو أشد قبحا وشناعة ممن يضل عن جهل، لأنه يُعرض عن الحق والهدى عنادا، وطبع الله على سمعه وقلبه بحيث لا يتأثر بالمواعظ، ولا يتفكر في الآيات والنذر، وجعل على بصره غطاء حتى لا يبصر الرشد، ولا يرى حجة يستضي بها، فمن الذي يستطيع أن يهديه بعد أن أضله الله تعالى؟ لا أحد يقدر على ذلك أفلا تعتبرون أيها الناس وتتعظون!!!

وقال العلامة "الصاوي": وصف الله تعالى الكفار بأربعة أوصاف: الأول: عبادة الهوى، الثاني: ضلالهم على علم، الثالث: الطبع على أسماعهم وقلوبهم، الرابع: جعل الغشاوة على أبصارهم، وكل وصف منها مقتض للضلالة، فلا يمكن إيصال الهدى إليهم بوجه من الوجوه^(٢).

أما مظاهر ذلك فهي متعددة، وتجبي في صور متكاثرة، ومظاهر تغلب عليها التنبئات من كل ناحية، بدليل أن الناس يختلفون- إلى اليوم - في الأصول الأولى التي نشأوا عنها.

(١) سورة الجاثية / الآية ٢٣ وأيضا قوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ سورة الفرقان / الآية ٤٣ وكذلك الآيات من سورة الكهف / الآية ٢٨ وكذلك سورة طه الآية ١٦ / وسورة القصص الآية ٥٠.

(٢) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج ١٦ ص ١٦٦، وكذلك البحر المحيط ٤٨/٨.

فمنهم متمسك بالسامية^(١)، وكان أباه وأمه هما ذات السامية، وآخرون متمسكون بالأرية^(٢) أو الحامية^(٣)، بينما الناس جميعا من أصل واحد، هو الطين الذي برز مظهره في آدم - عليه السلام - حيث خلقه الله - تعالى - من تراب، قال تعالى مفررا هذه الحقيقة: ﴿إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾^(٤).

فإن شأن عيسى إذ خلقه الله تعالى بلا أب - وهو في بابه غريب - كشأن آدم فقد خلقه الله تعالى من غير أب ولا أم ثم قال له كن فكان. فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم^(٥)، ثم انهم جميعا إلى الأرض يعودون، فلا واحد منهم يصعد إلى السماء حتى يكون من جنسها، أو يخلد إلى الأحجار أو الجمادات، أو النباتات بحيث يكون واحدا من أفرادها،

(١) السامية فكرة تعبر عن اتجاه شعوبى تدعوا إليه الصهيونية العالمية، وينسبون أنفسهم إلى سام ابن نوح - عليه السلام - وهي فكرة كاذبة لا أساس لها من الواقع.

(٢) الأرية /نسبة إلى أر، ويزعمون أنه ابن نوح - عليه السلام - ويغلب على أفرادها اللون الأبيض /راجع د /فرانسوا دوماس /الأجناس البشرية وتطوراتها المختلفة ص ٦٧ /ترجمة /حنان زهدى /نشرة وطبعة /المكتب العلمى /بيروت ١٩٧٩م

(٣) الحامية /تنسب إلى حام ابن نوح - عليه السلام - ويميل لون أفرادها إلى الشكل القوقازى أو الذي يجمع بين الأبيض الأرى، والأحمر السامى /راجع /المصدر السابق ص ١١٠.

(٤) سورة آل عمران / الآيات ٥٩، ٦٠.

(٥) راجع البحر المحيط / ج ٢/ ص ٤٨٠ والإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج ٤ / ص ١٠٤.

انما هم جميعا من الأرض خلقوا وعلى ظهرها عاشوا، شقوا أو نعموا،
وفى باطنها يدفنون، طال المدى أم قصر، قال تعالى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ
وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾^(١).

فمن الأرض خلقناكم أيها الناس وإليها تعودون بعد مماتكم
فتصيرون ترابا، ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى للبعث والحساب^(٢)
وقال تعالى أيضا ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ
بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنْهَ عَلَى رَجْعِهِ لِقَابٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾^(٣).

أى فلينظر الإنسان في أول نشأته نظرة تفكر واعتبار، من أى
شيء خلقه الله؟

خلق من المنى المتدفق الذي ينصب بقوة وشدة، يتدفق من الرجل
والمرأة فيكون منه الولد بإذن الله، وهذا الماء يخرج من بين الصلب
وعظم الصدر من الرجل والمرأة، والله تعالى الذي خلق الإنسان ابتداء
قادر على إعادته بعد موته، وفى ذلك دلالة على ضعف أصل الإنسان
الذي خلق منه، وأرشده الله تعالى إلى الاعتراف بالمعاد، لأن من قدر
على البداء، فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى^(٤).

(١) سورة طه / الآية ٥٥.

(٢) العلامة ابن كثير / مختصر تفسير بن كثير ج ٢ ص ٤٨٣.

(٣) سورة الطارق / الآيات من ٥ : ٩.

(٤) الإمام الطبري / تفسير الطبري / ج ٣٠ ص ٩٥ والعلامة أبى السعود / ج ٨
/ ص ٤٣٨.

وأيضاً قول الحق تبارك وتعالى ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَبَا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَتَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلًّا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنعَامِكُمْ﴾^(١).

والناس جميعاً رزقهم الله تعالى ملكات عقلية وقدرات إبداعية سواء أكانت عالية أم متوسطة، أو متدنية، لكن هناك قاسم مشترك بين الجميع، وعليه يقع التكليف.

وفي نفس الوقت فإن هذه القواسم المشتركة التي تعلوا في بعض النفوس تحتاج إلى ضابط يوجهها نحو الصواب، وقائد يدلها على الملك الوهاب، ومرشد يبين لها الخطأ من الصواب، وبخاصة ما تعجز تلك العقول وحدها عن استكشافه أو الوقوف عليه، وحينئذ يكون دور النبي

(١) سورة عبس / الآيات / من ٢٤ : ٣٢

والمعنى : فلينظر هذا الإنسان الجاحد نظر تفكر واعتبار إلى أمر حياته، كيف خلقه بقدرته، ويسره برحمته، وكيف هيا له أسباب المعاش، وخلق له الطعام الذي به قوام حياته؟ فيقدرته تعالى أنزل الماء من السحاب على الأرض إنزالاً عجيباً، ثم شق الأرض بخروج النبات منها شقاً بديعاً، فأخرج بذلك أنواع الحبوب والنباتات، حباً يقاتل الناس به ويدخرونه، وعنباً شهياً لذيذاً، وسانن البقول مما يوكل رطباً، وأخرجنا كذلك أشجار الزيتون والنخيل، يخرج منها الزيت والرطب والتمر، وكذلك بساتين كثيرة الأشجار، ملتفة الأغصان وأنواع الفواكه والثمار، كما أخرجنا ما ترعاه البهائم، أخرجنا ذلك وأنبتناه ليكون منفعة ومعاشاً لكم أيها الناس ولأنعامكم، وفي هذه الآيات : امتنان على العباد، وفيها استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاماً بالية، وأوصالاً متفرقة.

راجع / الإمام ابن كثير / مختصر تفسير ابن كثير / ج ٣ / ص ٦٠١، وأيضاً الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج ١٩ / ص ٢٢٠.

الهادي، قال تعالى ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(١).

فهم عليهم الصلاة والسلام أرسلهم الله تعالى لعباده يبشرون بالجنة من أطاع وينذرون بالنار من عصى، ولقد بعثهم الله تعالى ليقطع حجة من يقول لو أرسل إلى رسول لأمنت وأطعت فقطع الله حجة البشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب^(٢).

غير أن حوادث الدهر وأخبار الماضيين، وما تركه السابقون، قد دلت جميعها على أن هناك بعض أصحاب العقول الذين يستكفون السير مع الأنبياء، ويرفضون تعاليم رسل الله إليهم، ومن ثم يحرصون على السخرية من الأنبياء واتهامهم بالنقص، أو اتهام أتباعهم بالصفات السلبية، أو اتهام تعاليمهم التي بعثهم الله بها بأنها خرافات وأباطيل، واتهام من يعتقدونها بأنهم للغى ينشدون، وقد بين القرآن الكريم تلك الصور الأربعة :

(١) سورة النساء / ١٦٥.

(٢) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج٧ / ص ٣٠٦، والإمام الطبري / ج١٣ / ص ١٨٥.

٢- الأولي: السلفية من الأنبياء والمرسلين :

ما ذكره القرآن الكريم عن قوم سيدنا شعيب – عليه السلام – قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَمَرُوا بِالْقَنَاطِئِ وَالْمِيزَانِ وَلَا تَجْعَلُوا النَّاسَ اشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١) وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَمَرُوا بِالْقَنَاطِئِ وَالْمِيزَانِ لَا تَجْعَلُوا النَّاسَ اشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) عَذَابُ يَوْمٍ مُحِيطٌ^(٣).

فقد أرسل الله تعالى شعيباً – عليه السلام – إلى أهل مدين^(٤) داعياً لهم إلى توحيد الله وعبادته، وقد كان شعيب من نفس القبيلة، ولهذا قال "أخاهم" فقال يا قوم اعبدوا الله وحده فليس لكم رب سواه، ولا تنتقصوا الناس حقوقهم في المكيال والميزان، وقد اشتبهوا بتطفيف الكيل والميزان، وكانوا في سعة من الرزق وكثرة من النعم تغنيهم عن نقص الكيل والميزان، وقد حذرهم شعيب عذاب الله المهلك الذي لا يفلت منه

(١) سورة الأعراف / الآية / ٨٥.

(٢) سورة هود / الآية ٨٤، وأيضاً سورة العنكبوت / الآية ٣٦.

(٣) ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي يقرب "معان" من طريق الحجاز وهم أصحاب الأيكة، أي أصحاب الشجر الكثيف الملفف وهم قوم شعيب عليه السلام، ونسبوا إلى الأيكة، لأنهم كانت تحيط بهم البساتين والأشجار الكثيرة الملفف بعضها على بعض، ومدين غير مديان، وغير مدان وغير ودان كذلك، وهي مدن ومواقع ذكرها قاموس الكتاب المقدس وعرف بها.

راجع / قاموس الكتاب المقدس / باب / الدال، والواو، والميم، وأيضاً / الإمام الصادق / صفة التناسير / ج ٣ / ص ٢٤٣.

أحد يوم القيامة وفي الدنيا أيضاً حيث مصير الظالمين المحتوم وأيضاً لا يكونوا من المفسدين في الأرض وأن ما أبقاه الله لكم من الحلال خير مما تجمعونه من الحرام إن كنتم مصدقين بوعده الله ووعدته وما أنا إلا ناصح مبلغ، ولست برفيق أحفظ أعمالكم وأجازيكم بها، وقد أعذر من أنذر^(١).

فلم ينزجروا ويرتدعوا واتهموه - عليه السلام - في عقله وأيضاً في قوله، ونسبوا إليه ما لا يصح وصف العقلاء به، قال تعالى حاكياً تلك الهالوس عنهم : ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقْتَ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالِ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ أُعْزِرُ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخِذْتُمُوهُ وَرَءَكُمْ ظِهْرِيَا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾^(٢).

يقول الإمام الألويسي : "جعلوا كلامه المشتتل على فنون الحكم والمواعظ، وأنواع العلوم والمعارف من قبيل التخليط والبهتان الذي لا يفهم معناه، ولا يدرك فحواه مع أنه عليه السلام خطيب الأنبياء^(٣)، فهو لا قوة له عندهم ولا عز فيما بينهم ولولا جماعته لقتلوه رمياً بالأحجار، فهو ليس عندهم بمكرم ولا محترم حتى يمتنعوا من رجمه، فإذا به - عليه السلام - يقول لهم موبخاً موقفهم منه : أتتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناح الرب العظيم - تبارك وتعالى -؟ فهل عسيرتي أعز عندكم من الله وأكرم؟!!

قال ابن عباس : إن قوم شعيب ورهطه كانوا أعز عليهم من الله، وصغر شأن الله عندهم - عز ربنا وجل ثناؤه - وجعلوا الله - عز وجل

(١) الإمام الطبري / ج ١٢ / ص ١٠٠ / والإمام الفخر الرازي / مفاتيح الغيب / ج ١٨ / ص ٤٢.

(٢) سورة هود / الآيات ٩١، ٩٢.

(٣) الإمام الألويسي / روح المعاني / ج ١٢ / ص ١٢٣.

— خلف ظهورهم لا يطيعونه ولا يعظمونه، كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعبا به، كما يقال للرجل إذا لم يقض حاجة الرجل: نبذ حاجته وراء ظهره أى تركها ولم يلتفت إليها^(١).

فهم يرمونه بضعف العقل، وإضلال الفكر، واضطراب القوى، وما ذلك إلا لأنه يريد أن يعيدهم إلى الصواب، ويردهم إلى معرفة الواحد الوهاب، ويصدهم عن الضلال الذي أغرق سابقهم حتى الأنوف. لكنهم صدحوا وبغوا، وضلوا وتمسكوا بعقولهم، فلما جاء خلفهم قلدوهم، وعلى نفس الطريق ساروا، وأنشأوا أفكاراً اعتبرت في المستقبل نتائج عقلية واتجاهات فكرية، وما هى إلا هى الهوس وملامح الضلال^(٢).

(١) يقول الإمام الرازى في تفسيره: ان شعبياً — عليه السلام — أمر قومه بشيئين: بالتوحيد وترك البخس، فأنكروا عليه أمره بهذين النوعين فقلوه: "ما يعبد أبائنا" إشارة إلى التوحيد، وقوله: "نفعل في أموالنا" إشارة إلى ترك البخس، وقد يراد بالصلاة الدين والمعنى: دينك يأمر بك بذلك؟ وأطلق عليه الصلاة لأنها أظهر شعار الدين. وروى أن شعبياً كان كثير الصلاة، وكان قومه إذا رأوه يصلون تغامزوا وتضاحكوا فكانت السخرية منهم والاستهزاء والوصف بالحلم والرشد من الله تعالى، وكان عاقبة هؤلاء القوم الظالمين صبيحة العذاب فقد صاح بهم الأمين جبريل صيحة خرجت أرواحهم من أجسادهم فصاروا موتى هامدين لا حراك لهم، وقد اجتمع عليهم يوم عذابهم نقم الله، حيث أنذهم الصيحة، والرجفة، وعذاب يوم الظلة وكأنهم لم يعيشوا ويقوموا في ديارهم قبل ذلك حيث أبعدهم من رحمته بإحلال نعمته كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإنزال سخطه بهم.

راجع الإمام الطبري / ج١٢ / ص ١٠٩، ومختصر تفسير ابن كثير / ج٢ / ص ٢٣١، والإمام الفخر الرازى / ج١٨ / ص ٤٢.

(٢) هذا وقد حفل القرآن الكريم بذكر الكثير من هذه الطوائف التي عرفت باسم خصوم الأنبياء والمرسين.

❦ الثانية : اتهام أتباع الأنبياء :

من ذلك ما ذكره القرآن الكريم أن سيدنا نوحاً - عليه السلام - لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً^(١) يدعوهم إلى توحيد الله - رب العالمين - وعبادته، لكنهم صدوا عن دعوته ونفروا منها نفور الحيوانات المفترسة من الفئاص الحى، قال تعالى على لسان سيدنا نوح - عليه السلام - ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاصْأَوْا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَكَلْتُ لَهُمْ وَاسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ

(١) يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ سورة العنكبوت / ١٤، ١٥، ويقول المفسرون : إن نوح عليه السلام يقال له شيخ المرسلين لأنه أطولهم عمراً حيث مكث في قومه هذه المدة الطويلة يدعوهم إلى الله تعالى ومع طول هذه المدة لم يؤمن معه إلا قليل وقد أفرد القرآن الكريم قصته في سورة باسمه تسمى بـ "سورة نوح" وأيضاً في مختلف سور القرآن الكريم من بدء الدعوة إلى نهايتها حيث أهلك الله قومه بالطوفان، وهو أحد الرسل الكبار من أولى العزم وهم خمسة : "نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد" صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد شاع الكفر في زمانه وذاع، واشتهر قومه بعبادة الأوثان، وأكثروا من البغى والظلم والعصيان، فبعث الله لهم نوحاً - عليه السلام - وكان من خبرهم مع نبيهم ما قصه علينا القرآن الكريم ﴿ان اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾.

راجع الإمام الألوسى / روح المعاني / ج٢٩ / ص٦٩، والبحر المحيط / ج٨ / ص٣٣٧.

عَقَارًا يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا^(١).

فقد بعث الله - تعالى - شيخ الأنبياء نوحاً عليه السلام إلى سكان جزيرة العرب واشتهر أنه - عليه السلام - كان يسكن الكوفة وهناك أرسل لدعوة قومه إلى الله - عز وجل - ووجدانيته وينذرهم من عذاب الله تعالى، وبعد أن بذل غاية الجهد، وضاق عليه الحيل: قال يا رب إني دعوت قومي إلى الإيمان والطاعة في الليل والنهار - من غير فتور ولا تأن، فلم يزد هم دعائي لهم إلى الإيمان إلا هرباً وشروداً عن الحق، وإعراضاً عنه، ثم وصف نفورهم وصور إعراضهم أبلغ تصوير فقد سدوا آذانهم لنلا يسمعون دعوتي، وغطوا رؤوسهم ووجوههم بثيابهم لنلا يسمعون كلامي، كراهة وبغضاً من سماع النصيح ورؤية الناصح، واستمروا على الكفر والطغيان، واستكبروا عن الإيمان استكباراً عظيماً، كما أخبرهم علناً على رؤوس الأشهاد دون خوف أو تحفظ، وسلكت معهم كل طريق في الدعوة إليك، وقد أطعمهم نوح - عليه السلام - بالحصول على بركات السماء وبركات الأرض إن هم آمنوا بالله الذي بيده مفاتيح هذه الخزائن، وآتاهم من طريق القلب لتحريك العواطف، ولبيان أن ما هم فيه من انحباس الأمطار وما حرموه من الرزق والذرية، إنما سببه كفرهم بالله الذي بيده وحده إرسال المطر، وإغداق الرزق، والإمداد بالأموال والبنين، وأنهم لا ينبغي لهم أن يكفروا بهذا الإله القادر، ويعبدوا آلهة أخرى اخترعوها، لا تضر ولا تنفع^(٢).

(١) سورة نوح الآيات ٥-١٢.

(٢) الإمام الطبري / تفسير الطبري / ج ٢٩ / ص ٥٩، والإمام الرازي / مفاتيح الغيب / ج ٣٠ / ص ٤٠.

لكنهم واجهوا هذا الحياء الرافى والدعوة المتأنية باتهام نوح بالسفاهة، واتهام أتباعه بأنهم أرذلون، قال تعالى مصورا ذلك : ﴿قَالُوا اتَّوَيْنُكَ لَكَ وَأَتَّبِعَكَ الْأَرْدَلُونَ قَالُوا وَمَا عَلَّمِي مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾^(١).

أى أنصدقك يا نوح فيما تقول وأتباعك هم السفلة، والفقراء والضعفاء؟ وهذا من سخافة عقلهم، وقصور رأيهم، فقد قصرُوا الأمر على حطام الدنيا حتى جعلوا اتباع الفقراء له مانعا عن اتباعهم وإيمانهم بدعوة نوح، فليس على أن أبحث عن خفايا ضمائرهم، وأن أنقب عن أعمالهم، هل اتبعوني إخلاصاً أو طمعاً؟ وكأنهم قالوا : إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً في العزة والمال فقال في جوابهم : إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إلى ظاهرهم وما جزائهم وحسابهم إلا على الله المطلع على السرائر والضمائر لو تعلمون ذلك، ولست بمبعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عني، ولا بطاردهم عن مجلسي إن أنا إلا نذير مبين^(٢).

وهم يقصدون بالأرذلين أولئك الذين يعيشون على بطونهم فلا هم لهم إلا اللقيمات التي يأكلونها، والحرص على أنواع الطعام التي يلتهمونها، وذلك وصف خسيس لا يصح إطلاقه على أتباع المرسلين أبداً، انهم باعوا أنفسهم لله رب العالمين، وارتضوا أن يكونوا له وحده دون سواه، لكنها طبيعة الخارجين على شرع الله.

(١) سورة الشعراء / الآيات ١١١-١١٦.

(٢) الإمام البيضاوى / ج٢ / ص٧٦، والعلامة ابن كثير / المختصر / ج٢ / ص٦٥٣.

وكذلك وصف أتباع نبي الله شعيب بأنهم ضعاف العقول، وأنهم أرادل الناس، قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾^(١).

وكان حديث السادة والكبراء من قوم نوح أنهم قالوا له: ما نراك إلا واحداً مثلاً ولا فضل لك علينا، يقول الإمام الزمخشري: وفي ذلك تعريض بأنهم أحق بالنبوة منه وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، وما اتبعك يا نوح إلا سفلة الناس، وليس الأمر كذلك، بل المؤمنون أشرف منهم على فقرهم وخمولهم، وما نرى لك ولأتباعك مزية وشرف علينا يؤهلهم للنبوة واستحقاق المتابعة، بل نظنكم كاذبين فيما تدعون، وقد أرادوا أن يحجوا نوحاً - عليه السلام من وجهين:

أحدهما: أن المتبعين له أرادل القوم ليسوا قدوة ولا أسوة.

الثاني: أنهم مع ذلك لم يترووا في اتباعه، ولا أمعنوا الفكر في صحة ما جاء به، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية، وغرضهم ألا تقوم الحجة عليهم بأن منهم من آمن به وصدقته^(٢).

بل إن القرآن الكريم ذكر عن أتباع سيدنا محمد ﷺ من الأوائل قد اتهمهم المشركون بالفقر وعدم الأسرة، والانفلات من الجماعة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ

(١) سورة هود / الآية ٢٧.

(٢) الإمام الزمخشري / تفسير الكشاف / ج ٢ / ص ٣٨٨، وكذلك العلامة بن كثير / مختصر تفسير بن كثير / ج ٢ / ص ٢١٩.

مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ^(١).

أى لا تطرد هؤلاء المؤمنين الضعفاء من مجلسك يا محمد، الذين يعبدون ربهم دوماً في الصباح والمساء يلتمسون بذلك القرب من الله والدنو من رضاه، وهذه الآية نزلت في جماعة من ضعفاء المسلمين، قال المشركون لرسول الله ﷺ: لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك، وأراد النبي ﷺ ذلك طمعاً في إسلامهم فعاتب الله نبيه من فوق سبع سماوات بأنك يا محمد لا تأخذ بذنوبهم ولا بما في قلوبهم إن أرادوا بصحبتك غير وجه الله فقد شهد الله لهم بالإخلاص بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ كما لا تأخذ يا محمد بحسابهم ولا هم بحسابك فلم تطردهم، فإني أن طردتهم تكون من الظالمين، وهذا لبيان الأحكام وحاشاه من وقوع ذلك منه عليه السلام. قال القرطبي: وهذا كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وقد علم الله منه أنه لا يشرك ولا يحبط عمله^(٢).

من ثم فإن هذه الصورة ما خلا المشركون وخصوص الأنبياء إلا ويلحقون قبيح الصفات، وضميم الخصال باتباع أنبياء الله والمرسلين.

(١) سورة الأنعام / الآية ٥٢، وكذلك آية الكهف. قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ سورة الكهف / الآية ٢٨.

(٢) الإمام الطبري / ج ١١ / ص ٣٧٤، والإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج ٦ / ص ٤٣.

٣. الثالثة : تعاليم الأنبياء والمرسلين :

ما ذكره القرآن الكريم من أن خصوم الأنبياء كانوا ينظرون إلى ما تأتيهم به رسل الله نظرة طعن فيه واتهام له، دليل ذلك ما قاله المشركون عن رسول الله ﷺ : ﴿ وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُخْرَةً وَأَصِيلًا قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ^(١) 》.

فقد قال كفار قريش إن محمداً اختلق القرآن من تلقاء نفسه، وساعده على ذلك الاختلاق قوم من أهل الكتاب، فرد الله تعالى عليهم بأنهم جاءوا بالظلم والبهتان حيث جعلوا العربي يتلقن من العجمي كلاما عربيا أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب فكان كلامهم فيه محصن الكذب والزور، وقالوا أيضا ان القرآن ما هو إلا خرافات الأمم السابقتين أمر أن تكتب له، فهي تلقى وتقرأ عليه ليحفظها صباحاً ومساءً قال ابن عباس : والقائل هو " النضر بن الحارث " وأتباعه والإفك أسوأ للكذب،

وقد رد الله تعالى عليهم في تلك المزاعم مطمئنا رسوله محمد ﷺ بأن الذي أنزل القرآن على قلب رسوله ومصطفاه محمد إنما هو العلم القدير الذي لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض ولم يعجل لكم بالعقوبة، بل أمهلكم رحمة بكم لأنه واسع المغفرة، رحيم بالعباد ^(٢).

(١) سورة الفرقان / الآيات ٥، ٦.

(٢) الإمام الرازي / مفاتيح الغيب ج ٢٤ / ص ٦٣، الإمام الزمخشري / الكشاف ج ٣ / ص ١١٥.

كما نسبوه إلى السحر قال تعالى ﴿ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْتَرُ .
 إِنَّ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾^(١). وهذه الآية ضمن الآيات التي تحدثت عن
 اللعين " الوليد بن المغيرة " والذي افترى على القرآن وعلى رسول الله
 ﷺ، وكان من أكابر قريش ولذلك لقب بالوحيد وريحانة قريش، وقد أنعم
 الله عليه بنعم الدنيا من المال والبنين، وأغدق عليه الرزق فكان ماله
 كالنهر الدافق، وكان له بستان في الطائف لا ينقطع ثمره صيفاً وشتاءً،
 فكفر بأنعم الله وبدلها كفرًا وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها،
 وذلك أن صناديد قريش لما ضاقوا برسول الله ﷺ - وضائق عليهم
 الحيل في إمكاته، وإطفاء نور دعوته لجأوا إلى الوليد، فأشار عليهم بأن
 يلقبوه ﷺ - بالساحر ويأمرؤا عبيدهم وصبياتهم أن ينادوا بذلك في مكة،
 فجعلوا ينادون أن محمداً ساحر، فحزن رسول الله ﷺ لذلك، فنزلت الآيات
 الكريمات في معرض تهديده وتخويفه ليكون ذلك أدعى للكسر من
 كبريائه^(٢).

ولا يمكن أن تجمع تلك الصور، أو تدرس في مدخل صغير، أو
 عجالة قصيرة، وإنما تحتاج المزيد من البسط، والكثير من العرض، كما
 تحتاج عملية التواصل بين العقول في مناقشة تلك الأفكار^(٣).

(١) سورة المدثر / الآيات ٢٤، ٢٥.

(٢) الإمام الأئوسى / روح المعانى / ج ٢٩ / ص ١١٦، والإمام الطبري / ج ٢٩ / ص ٩١.

(٣) وكم أتمنى أن تكون هناك دراسة مشتركة بين قسمي التفسير والعقيدة بهذا
 الخصوص، أو تتم جزئيات بحثية بين علماء الجانبين، ففي ذلك فائدة كبرى،
 وخير كثير.

الرابعة : استقبح ما تبيح به التعاليم

ذكر القرآن الكريم أن خصوم الأنبياء كانوا يطعنون على كل تكليف شرعي يأتيهم به النبي حتى يُعبدوا الله رب العالمين، فمنهم من استقبح الصلاة، ومنهم من استقبح الحج، ومنهم من رفض الزكاة ومنهم من بدل الصوم، ومنهم من نعى على الجميع وهجر الكل فصار ذلك كله أمام أعينهم الكليّة مستقبحاً، دليل ذلك ما ذكره صاحب "المقاصد" ومن قبله المواقف عن البراهمة، والتمينية، وأصحاب الخلاعة وأهل التخييل بجانب الملاحدة الذين طعنوا على التكاليف الشرعية^(١) بينما الشرائع ما جاءت إلا لأمرين :-

الأول : تعبدية – غير معقول المعنى

لأن الله فرضها علينا ابتلاء لنا دون أن نعرف الغاية منها^(٢).

الثاني : التعقلية

وهي التي نعرف الغاية منها، ويمكننا أن نقف على الحكمة منها أداء لها أو امتناعاً عنها^(٣).

(١) الإمام سعد الدين التفتازاني / شرح المقاصد / ج ٢ / ص ١٣٩ ط مطبعة صبيح.

(٢) تكون صلاة الصبح ركعتين، والظهر أربع ركعات، وكذلك العصر، بينما المغرب ثلاث، والعشاء فهي أربع، وكان رسول الله ﷺ يقول : " صلوا كما رأيتموني أصلي " رواه الإمام البخاري في صحيحه / باب الصلاة / وبناءً عليه فإن هذه من التكاليف التعبدية.

(٣) كالحال مع النهي عن أكل الميت من الحيوان حيث ثبت وجود مادة البولينا في جسمه، فإذا مات انقبضت في أو عيته، وترتب عليها هلاك الأكل منها==

والذي انتهى إليه : أن مخالفة تعاليم الأنبياء والمرسلين يتولد عنها فكر بشري خالص لأصحابه وأهوائهم، وبالتالي يقع هذا الفكر في دائرة الرفض لأغلبه، والقبول للقليل منه، متى كان ذلك القليل برهانياً، إذ

== قال تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ سورة المائدة / ٣

ومن ثم فقد حرم الله على المؤمنين أكل الميتة : وهي : ما مات حتف أنفه من غير زكاة، والدّم المسفوح ولحم الخنزير، وكان أهل الجاهلية يأكلون هذه المحرمات : البهيمة : التي تموت حتف أنفها، والفصيد وهو الدم في الأمعاء يشوونه ويقولون لم يحرم من فزد — أي فصد — له، وإنما ذكر لحم الخنزير ليبين أنه حرام بعينه حتى لو ذبح بالطريق الشرعي، وما ذبح ولم يذكر عليه اسم الله كقولهم : باسم اللات والعزى، والمنخفقة : هي التي تخنق بحبل وشبيهه، والموقوذه : وهي المضروبة بعصا أو بحجر، المتردية : وهي التي تسقط من جبل ونحوه، والنطيحة : هي التي نطحتها بهيمة أخرى فماتت بسبب النطح، وما أكل بعضه السبع فمات إلا ما أدركتم فيه الروح من هذه الأشياء فذبحتموه الذبح الشرعي قبل الموت، وما ذبح على الأحجار المنصوبة والنصب : حجارة كان أهل الجاهلية يعبدونها ويذبحون لها فهي الله عن ذلك وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام أي طلب معرفة ما قسم له من الخير والشر بواسطة ضرب القداح. وكان أحدهم إذا أراد سفراً أو غزواً أو تجارة أو نكاحاً أو أمراً من معازم الأمور ضرب بالقداح وهي مكتوب على بعضها : نهائي ربي، وعلى بعضها أمرني ربي، وبعضها غفل، فإن خرج الأمر، مضى لغرضه، وإن خرج الناهي أمسك، وإن خرج الغفل أعاد. وكل ذلك فسق وخروج عن طاعة الله لأنه دخول في علم الغيب الذي استأثر الله به علام الغيوب.

البرهان العقلي لا يمكن الطعن عليه، والله عز وجل بين ذلك في قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَاتِيُّهُمْ فَلَنْ هَاطُوا بِرُءُوسِهِمْ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(١) ويقول أيضا ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً فَلَنْ هَاطُوا بِرُءُوسِهِمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾^(٢).

ففي الآية الأولى : ادعى كل من الفريقين، اليهود والنصارى أن الجنة خاصة به، وطعن في دين الآخر، فاليهود يعتقدون بكفر النصارى وضلالهم ويكفرون بعيسى وبالإنجيل، والنصارى يعتقدون بكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح وقد جاء لإتمام شريعتهم، ونشأ عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء، حتى صار كل فريق يطعن في دين الآخر، ويزعم أن الجنة وقف عليه فأكذب الله الفريقين وبين أن الجنة يفوز بها المؤمن النقي الذي عمل الصالحات^(٣).

وفي الآية الثانية يخاطب رب العزة سبحانه وتعالى نبيه محمد - ﷺ - قائلا له : قل يا محمد لأولئك المشركين إئتوني بالحجة والبرهان على ما تقولون، فهذا الكتاب الذي معي، والكتب التي من قبلي كالنوراة والإنجيل ليس فيها ما يقتضي الإشراف بالله، ففي أي كتاب نزل هذا؟ في القرآن أم في الكتب المنزلة على سائر الأنبياء؟ فما زعمتموه من وجود الآلهة لا تقوم عليه حجة لا من جهة العقل ولا النقل، بل كتب الله السابقة

(١) سورة البقرة / الآية ١١١.

(٢) سورة الأنبياء / الآية ٢٤ وكذلك سورة النمل الآية / ٦٤ وأيضا سورة القصص / الآية ٧٥.

(٣) الإمام بن كثير / مختصر تفسير بن كثير ج ١ / ص ١٠٨.

شاهدة بتنزيهه عن الشركاء والأنداد، بل أكثر المشركين لا يعلمون التوحيد فهم معرضون عن النظر والتأمل في دلائل الإيمان^(١).

ولا شك أن السير خلف هؤلاء في القضايا غير البرهانية ينتج عنه شطط كثير، كما ينتج عنه العديد من الألوان والاضطرابات الفكرية والعقلية، وفي ذلك فساد كبير، وهو ما ظهرت معالمه في كل من عناصر الإلحاد الفكري والعلمي والديني قديما، وظهرت صورته في القرن المنصرم^(٢)، من خلال العلمانية التي ترفض الدين وتتحوّل به من عقيدة إلى مجرد فكرة يقبلها من يقبل، ويرفضها من يرفض^(٣).

أو الشيوعية والماركسية التي اعتبرت الدين مخدر الشعوب^(٤)، فضلا عن الوضعية المنطقية التي نادى بضرورة التخلي عن ما سوى المنهج العلمي التجريبي، حتى قال داعيهم في مصر وهو الدكتور / "زكي نجيب محمود" : "أنا مؤمن بالعلم كافر بما سواه"^(٥) وقد ردّ عليه

(١) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج ١١ / ص ٢٩٠ والبحر المحيط ج ٦ / ص ٣٠٣.

(٢) أقصد به القرن العشرين فهو عصر الانفلات في كل الجوانب العلمية والدينية والأخلاقية.

(٣) راجع الدكتور / محمد البهي / العلمانية بين النظرية والتطبيق، فقد تعرض للعديد من هذه الجوانب وأفاض فيها، وقد طبع الكتاب - رغم صغره - في مجمع البحوث الإسلامية فعمّ نفعه بدليل ظهور العديد من الرسائل العلمية التي أنشأت حول العلمانية.

(٤) د/ محمد سعيد البويطي / أوهام الماركسية، ص ١٧ / طبعة / حلب ١٩٨١م. وله أيضا / المادية الجدلية - الجدلياتية - والمحتوى بين الكتابين متقارب إلى حد ما.

(٥) د/ زكي نجيب محمود / المنطق الوضعي / المقدمة ص (ج) / الطبعة الثالثة / مكتبة النهضة المصرية.

الكثيرون من أهل الإسلام وبخاصة د / محمد البهي^(١)، والدكتور / سليمان دنيا^(٢)، وكذلك صنع الدكتور محمود عبد الحكيم عثمان في كتابه : الفكر المادي الحديث، حيث خصّ الوضعية المنطقية بحديث متواصل، ناقش قضاياها، وبيّن أوجه فسادها^(٣).

وكذلك الحال مع الوجودية في كافة مستوياتها، والمذاهب المادية الأخرى التي حذفت العقيدة الإلهية من العقول والقلوب، وراحت تنشد اعتقادات وثنية، بغرض أن تحل محلها، ولا شك أنها جميعاً مهما نتج من أفكار تسمها بأنها فلسفية، أو غير ذلك، فإن قبولها يكون محكوماً عليه بالفشل.

كما أن الذين تستهويهم أو يقبلونها يوسمون أيضاً بالفشل، وبناء عليه فكل فكر فلسفي يقوم على فاسد، إما يكون هو أيضاً فاسد، أما الفكر الإسلامي فإنه يقوم على النصوص الشرعية الإسلامية وهي موقفة معصومة بعصمة الله لها، وبناءً عليه، فإن جدواه تكون أعم، ونتائجه تكون أوثق، وفوائده تتال القبول على كل ناحية.

غير أني وقد لمست النصوص الشرعية فبان لى ضرورة بيان الفروق بين النصوص الإسلامية، وبين الفكر الإسلامي، وعلاقة كل منهما بالآخر وبناءً عليه سأوضح العناصر الثلاثة الآتية :

(١) وذلك في كتابه / المجتمع المعاصر ومشكلات التوجيه وكذلك كتابه / الفكر المعاصر وعلاقته بالاستعمار.

(٢) وذلك في كتابه / التفكير الفلسفي الإسلامي، وفيه ردود متميزة على الوضعية في أغلب قضاياها.

(٣) ومن الدراسات الحديثة ما قام به الدكتور / محمد حسيني موسى في كتابه / الوضعية بين المعقول واللامعقول. مطبعة آل بيسوني ٢٠٠٣ الزقازيق.

✦ الأول : النقل المنزل – الإسلام –

الإسلام هو دين ربا العالمين، بلغة سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعبر عنه القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية المطهرة، دليل ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١).

والخطاب في الآية الكريمة لليهود والنصارى : يا معشر أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ بالدين الحق يبين لكم الكثير مما كنتم تكتمونه في كتابكم من الإيمان به، ومن آية الرجم، ومن قصة أصحاب السبت الذين مسخوا قرده، وغير ذلك مما كنتم تخفونه بتركه ولا يبينه، وإنما يبين لكم ما فيه حجة على نبوته وشهادة على صدقه ولو قال كل شيء لفضحكم، وفي الآية : دليل على صحة نبوته، لأنه بين ما أخفوه في كتبهم وهو أمى لم يقرأ كتبهم، قد جاءكم نور هو القرآن، لأنه مزيل لظلمات الشرك والشك، وهو كتاب مبين ظاهر الإعجاز، يهدي بالقرآن من اتبع رضا الله طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ليخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بتوفيقه وإرادته دين الإسلام^(٢).

وقوله ﷺ : "أتركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً : كتاب الله وسنتي"^(٣).

(١) سورة المائدة / الآيات ١٥، ١٦.

(٢) الإمام البيضاوي / ص ١٤٨ وبين كثير / مختصر تفسير ابن كثير / ج ١ / ص ٤٩٩.

(٣) رواه البخاري في صحيحه / ج ٥ ص ٣٦١.

والقرآن والسنة كلاهما من عند الله جاء غير أن القرآن جاء بالفاظه ومعانيه، أما السنة فقد جاءت معانيها من عند الله وألفاظها من عند رسول الله ﷺ الذي بين الله عصمته فقال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَوْخَىٰ إِلَىٰ عِבْدِهِ مَا أَوْخَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾^(١).

والآيات تركى رسولنا ﷺ وتوضح عصمته فما ضل محمد ﷺ عن طريق الهداية، ولا حاد عن نهج الاستقامة، وما اعتد باطلا قط، بل هو في غاية الهدى والرشد، والخطاب لكفار قريش والتعبير القرآنى: "صاحبكم" للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله، فإن طول صحبتهم له، ومشاهدتهم لمحاسن أوصافه العظيمة مقتضية ذلك، فلا يتكلم ﷺ عن هوئ نفسه ورأى شخصى فلا يتكلم إلا عن وحى من الله عز وجل^(٢).

٢. الثاني: الفكر الإسلامى :

وهو الذي يقوم على تفهم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومن ثم فكل العلوم الشرعية تنسب إلى الفكر الإسلامى، وكل العلوم التي تسترشد بالإسلام فهي أيضاً علوم إسلامية، وفكر إسلامى أصيل^(٣).
وبعض العلوم التي تستحدث داخل البيئة الإسلامية كنتاج لعقول مفكرين مسلمين من خلال توجيهات النقل المنزل، فإنها تعتبر إحدى ضميمات الفكر الإسلامى أيضاً.

(١) سورة النجم / الآيات ١-٣.

(٢) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج١٧ / ص٨٨، وتفسير / الخازن / ج٤ / ص٢١٣ والألوسى / ج٢٧ / ص٤٨.

(٣) يدخل في ذلك علم العقيدة وعلم التفسير، واللغة العربية، وغير ذلك من العلوم التي تقوم في أصولها على النقل المنزل ولو من خلال اقتباس الإشارات.

❦ الثالث : العلاقة بينهما :

لا شك أن الإسلام أعم وأدق وأوثق، أما الفكر الإسلامي، فهو أخص، وقد يقع فيه شيء من الظن، كما أنه ضيق، وما ذلك إلا لكونه ناتج عقول أصحابه الذين تتباين طبائعهم وبيئاتهم، وأرصدتهم الفكرية كما تتباين طرائقهم في الوصول إلى الغايات التي قصدوا الوقوف عليها. ولا يغرب عن ذهن قارئ أن الفكر الإسلامي ولبد النصوص الإسلامية فارتباطه بها يجب أن يكون ارتباط الجنين بأمه، سواء نأى بداره عنها أم كان ساكناً بذات الديار^(١).

والفلسفة الإسلامية أحد المستحدثات - من حيث الاسم - في الفكر الإسلامي، ومن ثم فإن هناك عوامل عديدة قد أدت إلى ظهورها أول الأمر، كما أن هناك عوامل قد أدت إلى ظهور بواكيرها في المشرق الإسلامي قبل ظهورها في المغرب الإسلامي، وذلك ما سوف أعرض له تباعاً ولكن قبل ذلك سنتعرف على الفلسفة الإسلامية وعلاقتها بالنصوص الشرعية وذلك فيما يلي إن شاء الله تعالى.

(١) وبناءً عليه فكل فكر إسلامي يجب أن يكون نابعاً من النقل الإسلامي وقائماً على خدمته.

الفصل الثاني

التحريف بالفلسفة الإسلامية
ومعلاقته بالنصوص الشرعية

الفصل الثاني

التعريف بالفلسفة الإسلامية وعلاقتها

بالنصوص الشرعية

ذهب العلماء إلى أن تعريف الشيء يزيل ما يلحق به من إبهام، كما يحد موضوعه ومسائله، وغاياته ومناهجه، وكلما كانت هناك أوجه للتشابه أو الاختلاط بين موضوعات بذاتها، أو مفردات بعينها، فإن التعريف يكون ضرورة علمية لكل من المتشابهات أو المتقابلات، كما يكون ضرورة بحثية لكل من يريد الوقوف على الحقيقة، أو تكون غايته الوصول إليها عن طريق صحيح.

ولفظ الفلسفة تعددت حوله الآراء، واشتعبت فيه الاتجاهات حتى صارت بعيدة ما بين شوطيها بعد ما بين المشرق والمغرب باعتبار أن هذا اللفظ – الفلسفة – يطلق على أسماء كثيرة، ويستخدم في موضوعات متعددة.

ولفظ الفلسفة كعلم معرفي يختلف عن سائر العلوم المعرفية لأنه لا يختص بدراسة موضوع واحد في عصر واحد تقعد فيه القواعد، ويتم من خلاله بناء الأسس، وإنما هو يشمل الكثير من العلوم متى تعلق بالجوانب الميتافيزيقية والفيزيقية أيضاً^(١).

كما أن لفظ الفلسفة قد اختلف فيه من حيث الأصل الذي نشأ عنه، هل هو يوناني أم مأخوذ من ثقافات مختلفة، تعاونت كلها حتى ظهر ذلك

(١) الشيخ / حمدان السيد ثابت / العلوم العقلية للبيئة الإسلامية / ص ٣٧ / المطبعة الرحمانية ١٣٣٨ هـ.

الاسم من خلال مقطعيه اليونانيين - فيلو - سوفيا، أو: فيلا - سوفيا - ومعناها: حب الحكمة، أو محبة الحكمة في اللسان العربي^(١).

كذلك اختلف في طبيعة هذا اللفظ من حيث العموم أو الخصوص؟ وهل يمكن شموله لكل فكر أو نتاج فلسفي؟ أم أنه يشمل نظريات الكون والوجود والمعرفة والقيم وغير ذلك.

بل إن الخلافات القديمة يمكنها أن تدخل فيه على أساس أنها نتاج عقلي دفع صاحبه إلى سلوك ذلك الطريق^(٢). بحيث لا يمكنه الخروج عنه، وربما دخل في هذا العنوان مفهوم الفلسفة أو الفكر الطبيعي، بناء على أن ماهية الطبيعة تقوم على إخضاع طرائق البحث العقلي إليها، وتشتتها وسير أغوارها بحثاً عن الأسس والغايات التي تجيء معها^(٣).

غير أن الدارسين قد اتفقوا على صعوبة تقديم تعريف للفلسفة العامة من خلال العصور المختلفة، والطبائع، بل والنقائات العلمية المتباينة على أساس أن كل فيلسوف أو مفكر له طبيعة خاصة، وله أيضاً وجود ذهني مستقل، وفوق ذلك له أمور تتعلق بالتراكمات الذهنية، وبناء عليه فلا يمكن تقديم تعريف شامل للفلسفة العامة في عصورها المختلفة.

(١) أ. هـ - نيتال / الفلسفة القديمة / ص ٩ / ترجمة حنان صبحي / طبعة دار الجبل / بيروت ١٩٥٧م، وكذلك / يوهان أندرسون / ما قبل الفلسفة / ص ١٧ / ترجمة / رمزي عبد المسيح / دار الفؤاد ١٩٤٦.

(٢) الأستاذ / ناصر محمد أبو علي / الإنسان والخرافة / ص ٥٣ / طبعة / محمد يسري الشيخ / الطبعة الأولى / ١٩٣٧ / بابل.

(٣) دكتور / صبري ياسين يعقوبي / نشأة الفلسفة الطبيعية / ص ٣٥ / طبعة دار الأنضولي / تركيا / ١٩٥١م، وقد خصص الكتاب للحديث عن الفلسفة الطبيعية من قبل سقراط حتى الفلسفة الحديثة وله آراء كثيرة يجارى في بعضها أصحاب الفكر المادي طبقاً للظروف التي طرأت على تركيا المسلمة فتحولت إلى دولة علمانية على يد / مصطفى كمال أتاتورك.

في نفس الوقت فإن موضوعات الفلسفة العامة تتعدد بتعدد العصور كما تتعدد بتعدد الموضوعات بدليل أن المدارس الفلسفية التي تبعت الإسكندرية في الماضي لم تكد تظهر إلى الوجود، وحتى كثفت بنورها العلمي مدارس أثينا، وانتزعت منها راية العلم والفلسفة، واستمرت تنزع الحركات الفكرية زهاء ثمانية قرون ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد، وحتى الخامس بعد الميلاد^(١).

من خلال ذلك يمكن القول بأن الفلسفة هي الموائمة بين متطلبات العقل في حدود ما تسمح به المطروحات الفكرية^(٢).

بناءً عليه فقد ظهرت عصور فلسفية مختلفة، كل عصر منها كانت تسمى فيه الفلسفة بما يتناسب مع الموضوعات المطروحة في ذلك العصر، بدليل ما ذهب إليه الكندي من أن الفلسفة هي علم الأشياء الأبدية الكلية إنسانها، ومائاتها، وعللها بقدر طاقة الإنسان^(٣).

ولم يكن الكندي يقصد تقديم تعريف عام للفلسفة بقدر ما كان يهدف إلى تقديم تعريف بالجانب المعرفي دون الجانب العقدي، ومن ثم رأينا الفارابي يعرفها بأنها : العلم بحقائق الموجودات، ومعرفة أصولها التي قامت عليها^(٤).

(١) دكتور / أحمد فؤاد الأهواني / المدارس الفلسفية / ص ٨٤، وكذلك دكتور / محمد خيرى عبد اللطيف / الاتجاهات الفلسفية قديماً وحديثاً / ص ٢١ / طبعة أولى / دار رمضان للنشر / ١٩٧٨م.

(٢) دكتور / رمضان حسنى توفيق / الفلسفة اليونانية / ص ٩٢ / طبعة أولى / مطبعة سعيد رافت ١٩٧٩م.

(٣) دكتور / صبحى محمد راشد / الكندي فيلسوف العرب / ص ٥٣ / ط دار المودة / ١٩٧٧م.

(٤) دكتور / حسين مرسى محمد ثروت / دراسات في الفلسفة الإسلامية / ص ١٥٧ / طبعة ٢ / ١٩٨٣.

وكان الفارابي يقصد من ذلك تقديم تعريف ظهرت صورة عن
فلسفة اليونان، فهو تعريف تقليدي صيغ في لغة عربية، و تميز بالمحاكاة
تجرى فيها طريقة فنية.

أما الشيخ الرئيس ابن سينا، فهو يعرفها بأنها / استكمال النفس
الإنسانية بتصور الأمور، والتصديق بالحقائق النظرية والعملية على قدر
الطاقة الإنسانية^(١).

وهكذا تعددت تعريفات الفلسفة العامة، وتبعها كذلك تعدد
تقسيماتها بين فلسفة طبيعية، وأخرى علمية، وثالثة نقدية، ورابعة
اقتصادية، بل قسمت أيضا باعتبار الزمن والعصور إلى :

فلسفة قديمة، وفلسفة حديثة ومعاصرة، كما قسمت من خلال
تسميات أخرى طبقا للنزعة أو الاتجاه العقدي فظهرت الفلسفة العقلية
والأخرى المثالية، وهكذا تكاثرت التسميات وتعددت الأسماء بدليل
ظهور التسمية الشيوعية، والأخرى البرجماتية، أو مذهب الذرائع فضلا
عن الوضعية^(٢). والداروينية القديمة، والتركيبية الحديثة، إلى غير ذلك
من الأفكار التي تحاول إلقاء نفسها بين جنبات الفلسفة وتتمسك بها على
أنها صورة من صور التفكير العقلى الخالص، والمجهود الذهني
المتميز.

(١) الشيخ الرئيس بن سينا / تسع رسائل في الحكمة والطبيعات / ص ٢ / الطبعة
الثانية دار العرب للبستانى ١٩٨١ بيروت.

(٢) تتعدد الوضعية إلى وضعية طبيعية : وهى التي قادها قول باخ وماتشن
وغيرهم كنيلىك، وثوليك في الغرب بجانب فيجنشتن، وكواندرسيه، والأخرى
الوضعية المنطقية حيث كان الدكتور / زكى نجيب محمود من أكثر الذين تبنوا
أرائها ودافعوا عنها، راجع دكتور / محمود عبد الحكيم عثمان / الفكر المادى
الحديث، والدكتور / سليمان دنيا في كتابه / التفكير الفلسفى الإسلامى، وأيضا
د / محمد حسيني موسى / الوضعية بين المعقول واللامعقول.

غير أن الفلسفة الإسلامية لم تكن تقترب من الفلسفة العامة، أو تتشابه معها وإنما هي متميزة عنها كل التميز، سواء من ناحية التسمية أم من ناحية التعريف وسواء من ناحية الموضوعات أم من ناحية النتائج والغايات، وبناء عليه فإن الذين حاولوا جعل الفلسفة الإسلامية وليدة النتاج الفكري اليوناني قد ظلموا أنفسهم وظلموا الفكر الفلسفي الإسلامي معاً^(١).

والحكمة الإسلامية أن الفلسفة الإسلامية لم ترد إلا في النصوص الشرعية باعتبار أنها أفهام جرت لأصحابها من خلال محاولاتهم تفهم النصوص النقلية ومن ثم وجدنا لها العديد من الحدود والأكثر من التعريفات حتى قيل إنها البحث في الموجودات على ما هي عليه والعمل بمقتضى في حدود ما شرع الله في كتابه، وبلغ رسوله الكريم ﷺ فيما يتعلق بأمور الغيب والشهادة، أو أمور الدنيا والآخرة^(٢).

في نفس الوقت فإن الفلسفة أو الحكمة الإسلامية لها طريقة متميزة عندما تتعرض لتفهم مسائل الكون، وبحث علاقة هذه المسائل بالنقل المنزل، ومحاولة تفهم العالم الغائب في حدود تصورات ما يجري في العالم المشاهد مع الأخذ في الاعتبار مفهوم الفوارق الدقيقة بينهما من حيث أن أحدهما مشاهد والثاني غائب^(٣).

(١) وهؤلاء إنما يتابعون الغرب ويحاولون تقديس ناتج الفكر اليوناني لا يبرحونه، وأسوأ ما في المفكر أن يضع عماية على عقله ويسعى خلف الآخرين حتى يرتضع ما فضل من أفكارهم.

(٢) دكتور / محمد حسيني موسى / قيمة الصراع بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام / ص ٩٥ / ط ٣ / المطبعة الوطنية ١٩٨٥ م.

(٣) دكتورة / فوقيّة حسين محمود / مقالة في أصالة المفكر / ص ١٩٥ ط دار الفكر العربي / ١٩٧٦ م.

بناءً عليه فسأحاول تقديم بعض جهود مفكرى المسلمين في تعريف الفلسفة الإسلامية من النواحي المختلفة مع بيان علاقة هذه التعاريف بالنصوص الشرعية.

ومن نافلة القول أنى سأعرض للفلسفة الإسلامية في المشرق والمغرب لا على أنها تراث أو فكر الفلسفة الشرقية، وإنما على أساس أنها فكر المسلمين في النصوص الشرعية. أما لماذا؟

فلأن اصطلاح، أو تسمية الفلسفة الشرقية إنما هي مجرد تسمية يقصد بها تراث مفكرى الشرق الذي وجد لدى الأمم القديمة التي استوطنت بلاد الشرق بعيداً عن الفلسفة الإسلامية^(١).

أما الفلسفة الإسلامية فهي في المشرق والمغرب سواء، وليست في بلاد الشرق وحدها، لأن الفلسفة الإسلامية تابعة للنصوص الإسلامية، ولما كانت هذه النصوص عامة خالدة تمثل حقيقة الدين الإلهي، فإن ما يتبعها يكون هو الآخر ذات الصفة من العموم على الأقل.

والملاحظ أن تعريفات الفلسفة الإسلامية متنوعة، ومن ثم فإن الذي سأذكره ليس على سبيل الحصر، وإنما هو على سبيل المثال لما سأذكره بعد من أن الفلسفة في مفهومها المعاصر هي: الاستماع للآخر وبيان موقفه من النصوص الشرعية وموقف فكره هو من تفهم تلك النصوص^(٢).

(١) دكتور / محمد عبد الستار نصار / في الفلسفة الإسلامية قضايا ومناقشات / ج ١ / في المشرق ص ٥.

(٢) دكتور / محمد حسيني موسى / التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ص ٨٧، وهذا التعريف قد يكون مقبولاً من صاحبه لكن لنا منه موقف قد نختلف أو نختلف العبرة ليست بالمقدمات وإنما بالأدلة.

❖ أولاً: تعريفات بالاسم القائم - الفلسفة الإسلامية -

هناك العديد من التعريفات للفلسفة الإسلامية الإسلامية بالاسم القائم، لكن بعضها ورد على ألسنة حكماء المسلمين القدامى، وبعضها جاء على طريق الحكاية عن الآخرين، ومن ثم سألنقط بعض تلك التعريفات، وأحاول بيان موقفى منها :

١- تعريف الكندي^(١) - فيلسوف العرب - ٢٥٢/١٨٥ هـ.

فيلسوف العرب الأول، ومفكر المعتزلة الذي دافع عن قضاياهم بشكل جيد، وهو في نفس الوقت سليل أسرة عريقة، لها قدم ثابتة في المباحث العلمية والفلسفية، بل والرياضة ومن ثم عرف الفلسفة الإسلامية بأنها : علم الأشياء بحقائقها بقدر الطاقة الإنسانية لأن غرض الفيلسوف في علمه، إصاابة الحق وفي عمله العمل بالحق^(٢).

(١) هو فيلسوف العرب الأول أبو يوسف بن يعقوب بن إسحاق الكندي، يمتد نسبه إلى يعرب بن قحطان، وكان أجداده وأبأؤه ملوكاً على قبيلة كندة التي نسبت إليها، ولد الكندي في آخر حياة أبيه وتوفى والده وهو لم يبلغ سن الشباب بعد، نشأ في الكوفة في أعقاب تراث من السؤدد ومن الغنى وفى حضن اليتيم، كان من أبرع التراجمة، ودرس الفلسفة اليونانية والفارسية والهندية، وأيضاً الطب والجغرافيا والموسيقى... الخ. من مؤلفاته : له في الفلسفة والمنطق والحسابيات والفلكيات والسياسة. يقول عنه القفطى : الكندي فيلسوف العرب وأحد ملوكها، وهو مفكر مسلم، حكيم، متكلم على مذهب أهل الاعتزال، لكنه اعتمد مذهب الحدوث وإثبات تنهاى العالم في الاستدلال على وجود الله تعالى.

راجع دكتور / محمد عبد الهادى أبو ريدة في المقدمة الرائعة التي كتبها وهو يحقق رسائل الكندي الفلسفية، وأيضاً د. مصطفى عبد الرازق / فيلسوف العرب المعلم الثاني الكندي / ص ١٥٠، وأيضاً الدكتور / عبد الحليم محمود / التفكير الفلسفى في الإسلام / ص ٢٨٨ / مكتبة الأنجلو / ١٩٦٤ م.

(٢) الكندي / رسائل الكندي / ص ١٠٤، تحقيق دكتور / محمد أبو ريدة.

وهذا التعريف يربط بين العلم والعمل، فكأن الفلسفة الإسلامية هي علم نظري وعمل تطبيقي، فجمعت بين الاثنين معاً.

بيد أن الكندي قدم تعريفات أخرى للفلسفة، بعضها من ناحية الاشتقاق اللغوي وبعضها من ناحية الممارسة العملية أو السلوك الإنساني، فعرّفها على هذين الجانبين بأنها :

﴿أ - التشبيه بأفعال الله بقدر طاقة الإنسان نفسه^(١) :

فالإنسان المتشبه بأفعال الله تعالى هو كامل الفضيلة، ولا يعتبر كماله متطابقاً إلا إذا أمكن أن يتشبه في كافة سلوكياته الصادرة عنه بالأفعال الإلهية، بمعنى أن يكون السلوك محكماً، متطابقاً مع العلم، والواقع المعاش، لأن أي علم لا يقبل التطبيق يكون علماً عيانياً، ما لم يكن هذا التطبيق مقصوداً به ما يتعلق بالغيبات، فإن تطبيقها يكون على ما هو وارد في كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله ﷺ من باب الأخبار بالغيب المستقبلي.

﴿ب - أنها العناية بالموت :

ويقصدون بالموت هنا : إماتة الشهوات على أساس أن إماتة الشهوات هي السبيل إلى الفضيلة^(٢)، ولذلك قال كثير من أجلة القدماء للذة شر، وإماتة ذلك الشر، هو نفس الفضيلة، بل هي نوع من الحكمة عند غيرهم.

(١) دكتور / عبد الحليم محمود / التفكير الفلسفي في الإسلام / ص ٢٢٢.

(٢) الشيخ / محمد عبد النبي الدرديري / الحكمة الإسلامية في مصادرها الأولى / ص ٣١ / طبعة المطبعة الرحمانية ١٣١٨ هـ.

ولا شك أن هذا المعنى يذهب إليه الصوفية وعلماء الأخلاق، كما يشاركون فيه الفلاسفة المسلمون أيضاً، وهذا مما يميز المباحث الفلسفية في الفكر الإسلامي عن غيره.

كما حدثوا الفلاسفة الإسلامية من ناحية العلة فقالوا : إنها صناعة الصناعات، وحكمة الحكم، لأنها تصير آلة تغييرها، وعلّة يقوم عليها ذلك الغير، كما أنها وسيلته التي يحصل بها مطالبه في البحث^(١).

غير أن مفكرى المسلمين قد حدثوا الفلسفة الإسلامية أيضاً من ناحية معرفة الإنسان لنفسه فقالوا : إنها معرفة الإنسان نفسه، وأرادوا بذلك، إدراك ما في الإنسان من جسم ونفس وعرض، فإذا عرف ذلك، عرف كل شيء عن نفسه، ولذا سمي الحكماء الإنسان بأنه العالم الأصغر^(٢).

وبنا عليه فالإنسان صار موضوعاً معرفياً، أو صار هو ذاته وسيلة المعرفة من حيث أن التطرفية يمثل أحد جوانب المعرفة، أو جوانب الفلسفة الإسلامية :

(١) راجع للدكتور / عبد الحليم محمود / التفكير الفلسفي / ص ٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) وقد جازهم في ذلك كثير من المتكلمين فمنهم من قال :

وتزعم أنك جرم صغير .. وفيك انطوى العالم الأعلى
والله عز وجل قال في القرآن الكريم : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ أى وفى أنفسكم آيات وعبر من مبدأ خلقكم إلى منتهاه أفلا تبصرون قدرة الله فى خلقكم لتعرفوا قدرته على البعث، قال ابن عباس : يريد اختلاف الصور، والألوان، والالوان والطبائع، والسمع والبصر والعقل، إلى غير ذلك من العجائب المودعة فى ابن آدم، وقال قتادة : من تفكر فى خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولئلا يفصله للعبادة. راجع تفسير الخازن / ج ٤ / ص ٢٠٤، وحاشية الصاوى على الجلالين / ج ٤ / ص ١٢٥، والآية رقم ٢١ من سورة الذاريات.

٥٢ تعريف الفلسفة التطبيقية :

عرفها الكندي بأنها : علم الأشياء الأبدية الكلية، إنياتها، ومانياتها، وعللها بقدر طاقة الإنسان نفسه، فإذا خرجت عن طاقة الإنسان نفسه فإنها لا تكون بحثاً فلسفياً^(١)، وإنما تكون صورة من صور العبث، لأن العقول لما خلقها الله - تعالى - لم يكلفها إلا ما تطيقه.

بناءً على ما سلف، فإن الفلسفة الإسلامية هي النظرة الإسلامية لحلول مشاكل الطبيعة وما ورائها دون حاد لها في مجال الغيبيات على سبيل القطع واليقين، والإمام الكندي قد نقل تعريفه عنه لدى أصحاب المصطلحات فصار حقيقة واقعة، أو قاعدة عامة كلية بالنسبة للفلسفة الإسلامية بدليل أن السيد الشريف الجرجاني، وهو من متأخري المتكلمين، وشيخ من شيوخ الصوفية يعرف الفلسفة الإسلامية بأنها : علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية^(٢).

والفيلسوف المسلم لا يلجأ إلى تحميل قدراته العقلية البحث فيما هو أعلى من إمكانياتها أو تكليفها فوق ما تطيقه وذلك استرشاداً بالنقل المنزل في قوله الله - تعالى - : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِشْرًا وَلَا نَفْعًا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا

(١) وهذا المعنى يرد في مؤلفات الكندي كثيراً، بعضها على سبيل الحكاية، وبعضها يجيء على سبيل وجهة النظر الخاصة.

(٢) العلامة السيد الشريف الجرجاني / التعريفات / ص ١٤٧ مطبعة الحلبي ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م.

طاقة لنا به وأغف عثا وأغفر لنا وأرحمنا أنت مولانا فانصرتنا على القوم الكافرين^(١).

والله - عز وجل - لا يكلف أحدا فوق طاقته، فكل نفس جزاء ما قدمت من خير، وجزاء ما اقترفت من شر، ولا يعذب الله تعالى الإنسان بما يصدر عنه بسبب النسيان أو الخطأ، ولا يكلفنا بالتكاليف الشاقة التي نعجز عنها كما كلفت بها من قبلنا من الأمم، كقتل النفس في التوبة، وقرض موضع النجاسة، ولا يحملنا ما لا قدرة لنا عليه من التكليف والبلاء، وامح عثا ذنوبنا يا ربنا واستر سيئاتنا ولا تفضحنا يوم الحشر الأكبر وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء، وانصرونا على أعدائنا وأعداء دينك من القوم الكافرين، الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك وكذبوا برسالة نبيك ﷺ، وروى أنه عليه السلام لما دعا بهذه الدعوات قيل له عند كل دعوة : قد فعلت^(٢).

كما جاء بذلك المعنى حديث رسول الله ﷺ : "إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان رخصة لكم تسئلوا عنها"^(٣).

(١) سورة البقرة / الآية ٢٨٦

(٢) العلامة الصابوني / صفوة التفاسير / ج ١ / ص ١٨٠، ١٨١، وأيضا الشيخ سيد قطب / في ظلال القرآن الكريم / ج ٣ / ص ٨٢.

(٣) الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه ج ١٣ / ص ٢٦٦.

ثانياً : تعريف أبي نصر الفارابي^(١) - المعلم الثاني - ٢٥٩/٣٣٩ هـ

هذا المفكر المسلم كان له العديد من الجهود في المجالات المختلفة، بحيث يمكن اعتباره موسوعة من الموسوعات العلمية التي كانت تتحرك بها رؤوس أصحابها، ومن ثم فقد عرف الفلسفة بأنها : العلم بالموجودات بما هي موجودة عليه بقدر الطاقة البشرية وحدها^(٢).

ومعنى هذا أنه لا يريد من المفكر الإلتفات إلى الموجودات في صورة غير التي هي عليها وفي نفس الوقت لا يتجاوز ذلك المفكر طاقته البشرية، إذ لا قيمة للمعارف التي لا يمكن التأكد منها، أو الوقوف على صحتها.

وليس معنى ذلك أنه يلغى المعرفة الوحيية، أو يهمل النقل المنزل، وإنما معناه أنه يريد الفصل بين ما هو من إمكانيات النفس وقدرات العقل، وبين ما هو أعلى من إمكانيات النفس وفوق قدرات العقل، وذلك مما يتميز به الفلاسفة المسلمون.

(١) هو المعلم الثاني / أبو النصر محمد بن محمد بن طرخان، من فاراب ببلاد الترك، فارسي الأب، تركي الأم، كان فيلسوفاً متميزاً، ومفكراً على قدر كبير من الجودة والموضوعية، واستطاع أن يفصل بين تراث الإغريق والفكر الإسلامي الأصيل، يظهر ذلك في معالجته للمسائل التي تعرض لها. راجع / الفارابي للأستاذ / سعيد زايد، وأيضاً / تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور / أبو ريان.

(٢) العلامة / أبو النصر الفارابي / الثمرة المرضية / ص ٥ تحقيق الأستاذ / سعيد زايد / طبعة ١٩٦١م.

وربما يتساءل المرء : لماذا كان هذا رأى الفارابي؟

والجواب : أن الرجل كان حريصاً على الفصل بين المعارف العقلية والقواعد الإيمانية، فلا مجال للعقل في الغيبيات، بحيث يفترض لنفسه سلطة عليها، أو قدرة في لئ تلك المعارف من وجهة نظره، بعيداً عن طابع ما ترمى إليه النصوص^(١).

دليل ذلك : أن الفارابي نفسه عرف الفلسفة الإسلامية أيضاً بأنها : العلم التام بالموجودات بما هي موجودة عليه، من خلال براهين يقينية معقولة وهذا يعطينا تصوراً شاملاً للكون وعلاقته بالخالق العظيم – سبحانه وتعالى – ودور الإنسان في تلك المنظومة من غير معارضة لنقول شرعية، أو محاولة إنقاذ حولها، أو قفز على أكتافها^(٢).

في نفس الوقت، فإن الفارابي يعطى صورة متكاملة للعلاقة بين الله تعالى والعالم، في حدود النظرة العقلية المتنامية، باعتبار أن الفلسفة الإسلامية ترتبط بالنصوص الدينية، وأن ظهورها الأول ونموها

(١) ومعنى هذا أن الفيلسوف المسلم يسلم بالنصوص المنزلة، لكنه يفوض حقيقتها إلى الله تعالى وفي نفس الوقت يسعى لفهم بعض مراميها والوقوف على بعض أهدافها وغاياتها.

(٢) هذا التعريف هو الذي يمكن الوقوف عليه من جملة كتب الفارابي الفلسفية وبخاصة الجمع بين رأى الحكيمين – أفلاطون الإلهي وأرسطو طاليس / ص ٥٤-٥٥ / طبعة بيروت.

الطبيعي كانا تابعين لقوة الدين الإسلامي، وسعة انتشاره، بجانب تأثيره في النفوس^(١).

وفي تقديري : أن ما ذهب إليه الفارابي، يؤكد استقلال المفكرين المسلمين عن غيرهم، وكذلك استقلال الفلسفة الإسلامية عن غيرها، وبيان أنها وليدة النظر المتواصل في النصوص الدينية الإسلامية، ومن ثم فإنها لا تنسب لغير الإسلام.

كما يمكن القول بأن مفكرى المسلمين، كانوا أكثر وعياً من غيرهم، وأحرص على أن تكون معارفهم في هذا الجانب أيضاً مرتبطة بالنصوص الشرعية.

(١) الأستاذ / محمد لطفى جمعة / تاريخ فلاسفة الإسلام / جـ ١ / ص ٤ / طبعة ١٩٧١م.

ثالثاً : الشيخ الرئيس : ابن سينا^(١) - ٣٧٠/٤٢٨ هـ - ٣٧٩/٩٨٠ م :

لا شك أن الشيخ الرئيس بن سينا كانت له مجهودات متعددة في جوانب علمية مختلفة، وأنه كان فقيهاً، كما كان عالماً بالطبيعية والفلسفة، بجانب الطب والرياضيات، بل لا أعالي إذا قلت أن ابن سينا كان صورة لمرأة عصره، بحيث تنعكس عليها المعارف، فتظهر في صور عديدة، قابلة للممارسة العملية.

ومن ثم فقد ذهب إلى أن الفلسفة لا تخرج عن كونها الحكمة الإسلامية ذاتها ومن ثم عرفها بأنها : استكمال النفس الإنسانية بتصور الأمور والتصدق بالحقائق النظرية والعملية على قدر الطاقة الإنسانية^(٢).

ولا شك أن هذا السلوك من ابن سينا يؤكد على استعماله اللفظ الشرعي، وليس اللفظ اليوناني، لأن كلمة الحكمة وردت في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف بجانب لغة العرب، أما الفلسفة فلا مكان لها في أي شيء مما كرر، وبناء عليه، فقد باين ابن سينا بين الحكمة الإسلامية والفلسفة اليونانية، مما يؤكد تفاوت الفكرتين وكذلك تفاوت

(١) هو الشيخ الرئيس أبو الحسين بن علي بن سينا، ولد في أفشنة، قرية أمه التي نرح إليها أبوه بعد زواجهما، اشتهر ابن سينا بالفقه والعلم والحكمة، كما عمل بالسياسة، والطب، والرياضيات، وترك العديد من المؤلفات العلمية التي تعتبر من المصادر الموثوقة في كل فن تعرض له كالموسوعات : ومنها الإحصاف (في عشرين مجلداً) - الشفاء (في ثمانين عشرة مجلد) - النجاة (ثلاث مجلدات) ... الخ وأيضاً في الطب من أشهرها القانون والموجز ومن المؤلفات الفلسفية : الإشارات والتنبيهات وغيرها، وفي علم الكلام والأخلاق والتصوف والفلك والهندسة والأدب والموسيقى والشعر. ولد في عام ٣٧٥ هـ، وتوفي عام ٤٢٨ هـ. راجع / الأعلام للزركلي، وهدية العارفين.

(٢) الشيخ الرئيس ابن سينا/ تسع رسائل في الحكمة والطبيعية / ص ٢ / ط أولى / طبعة دار البعثاني.

مضمون كل من الفلسفتين على الأقل في جانب التسمية ثم في طرائق المعالجة والمنهج، وأخيراً النتائج المترتبة^(١).

بيد أن ابن سينا يؤكد على أن مفكرى المسلمين كانوا يتبعون النقل المنزل ولا يبتدعون اقتداءً بقول الرسول الكريم ﷺ: "اتبعوا ولا تبتدعوا"^(٢).

وبناءً عليه فقد عرف الحكمة بأنها: صناعة نظر يستفيد منها الإنسان تحصل ما عليه الوجود كله في نفسه، وما عليه الواجب أيضاً لتشرف بذلك نفسه وتستكمل وتصير عالماً معقولاً مضاهياً للعالم الموجود، كما تستعد للسعادة القصوى في الآخرة وذلك بحسب الطاقة الإنسانية^(٣).

ولا شك أن اعتبار ابن سينا الحكمة صناعة نظرية، ووقوفه بالتفكير فيها عند تحقيق السعادة القصوى في الآخرة يؤكد انفصاله عن الفكر المشائي تماماً، لأن اليونان ومن أشهرهم أرسطو لم يتحدثوا عن الآخرة، وإنما جُلّ حديثهم عن السعادة الدنيوية وكيفية الحصول عليها، سواء أكانت سعادة حسية أم عقلية أو وجدانية، فذلك أقصى أمانيتهم.

أما المفكر المسلم، فإن النصوص الدينية قد عرفته بالآخرة ونعيمها، ودلته على أن ذلك لن يكون في دار الدنيا على أساس أن الدنيا

(١) وذلك قد ذهب إليه الكثيرون من الباحثين / راجع / المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية / ص ٧٧ وما بعدها.

(٢) راجع الإمام القرطبي ج ٧ / ص ١٤٠، والإمام السيوطي ج ٢ / ص ٧٥١

(٣) وهذا التعريف كأمثاله يتردد في مؤلفات ابن سينا، وهو يدل على أن مفكرى المسلمين تفرّدوا عن مفكرى المشائية وغيرهم والرجوع إلى المؤلفات التي تركها مفكرى المسلمين هو المنهج العلمي الصحيح، أما النقل عن غيرهم ممن لديهم الرغبة في اتهام مفكرى المسلمين فذلك ليس مقبولاً عندنا، وإنما نرفضه رفضاً تاماً.

دار عمل، وأما الآخرة فهي دار القرار، بحيث يتعلق بها الفضل من الله تعالى، وتحقيق الجزاء على العمل^(١).

وقد دلت على ذلك النصوص القرآنية، منها قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٢)، أي فمن يعمل من الخير زنة ذرة من التراب، يجده في صحيفته يوم القيامة، ويلق جزاءه عليه، قال ابن عباس: إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها، فكل واحد مما لصق به من التراب ذرة، ومن يفعل من الشر زنة ذرة من التراب، يجده كذلك ويلق جزاءه عليه وهذا مثل ضربه الله تعالى في أنه – سبحانه وتعالى – لا يغفل عن عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة، وقد سمى رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية الجامعة الفاذة، وذلك حين سئل عن زكاة الخمر فقال، ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ والآية فيها مقابلة بلاغية^(٣).

وأيضاً قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَتَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(٤).

فنقيم الموازين العادلة التي توزن بها الأعمال في يوم القيامة، فلا يُنقص محسن من إحسانه، ولا يزداد مسيء على إساءته، وإن كان العمل الذي عملته زنة حبة من خردل جننا بها وأحضرناها، وإن كان في غاية

(١) دكتور / محمد حسيني موسى / نظرية السعادة في الفكر الإنساني / ص ١٣ ط أولى ١٩٩٨.

(٢) سورة الزلزلة / ٧، ٨.

(٣) الإمام الفخر الرازي / التفسير الكبير / ج ٣١ / ص ٦١، والعلامة القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج ٢٠ / ص ١٥٠.

(٤) سورة الأنبياء / الآية ٤٧.

القلة والحقارة، فإن حبة الخردل مثل في الصغر، وكفى بربك أن يكون محصياً لأعمال العباد مجازياً عليها، والغرض منه التحذير، فإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شيء، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء، فحقيق بالعاقل أن يكون على أشد الخوف منه^(١).

وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾^(٢).

ومن ثم يتبين لى أن ابن سينا قد عرف الحكمة السالامية، وأن هذا التعريف قد فصلها فصلاً تاماً، وبلغه صريحة واضحة عن الفكر اليوناني أو غيره، كما أن جزئيات التعريف التي تحدث عنها دالة هي الأخرى على تلك الفكرة التي قصدها ابن سينا وحرص على تأكيدها في النفوس.

(١) الإمام أبو السعود / ج ٣ / ص ٢٤، والبحر المحيط / ج ٦ / ص ٣١٢.
(٢) سورة الزخرف / الآيات / ٧٢، ٧٣. وفي الآية الكريمة ذكر لحال السعداء الأبرار أهل النعيم في الجنة وأوصافها الجميلة وما فيها من النعم من مطاعم ومشارب ذكر الحق سبحانه تمام النعمة بالخلود في دار النعيم، وهذا حصر لأنواع النعم، لأنها إما مشتهاة في القلوب، أو مستلذة في العيون ثم ذكر سبحانه أن تلك الجنة الموصوفة بتلك الأوصاف الجليلة أعطيت لها بسبب أعمالكم الصالحة التي قدمتموها في الدنيا، فإن أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحد الجنة بعمله، ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات يئال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات، ولكم في الجنة أنواع الفواكه والثمار الشيء الكثير - سوى الطعام والشراب - من هذه الفواكه تأكلون تفكها وتلذذاً قال المفسرون: يأكل أهل الجنة من بعض الثمار، وأما الباقي فعلى الأشجار على الدوام، لا ترى فيها شجرة تخلو عن ثمرها لحظة فهي مزينة بالثمار أبداً، لأن كل ما يؤكل يخلف بدله، وفي الحديث الشريف "لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها إلا نبت مثلاًها مكانها" راجع العلامة أبو السعود / ج ٥ / ص ٤٩، والحديث أخرجه ابن أبي حاتم.

رابعاً : السيد الشريف الجرجاني^(١) :

العلامة الجرجاني يمثل حلقة من حلقات متأخرى الفكر الأنشعري، بل يعتبر خاتمة الشراح وبداية المحققين، يظهر ذلك من حواشيه المتعددة على المؤلفات الكلامية بل وغيرها، كحاشية الجرجاني على المطالع، وحاشية الجرجاني على المواقف، وسائر حواشيه المتعددة في المنطق والبلاغة والتفسير.

ومن ثم فقد ذهب إلى تعريف الفلسفة الإسلامية بأنها : التشبيه بالإله - جل علاه - بحسب الطاقة البشرية لتحقيق السعادة الأبدية، كما أخبر بذلك الصادق المعصوم عليه السلام في قوله : "تخلقوا بأخلاق الله، أى تشبهوا به بالإحاطة بالمعلومات والتجرد من الجسمانيات"^(٢).

ومعنى هذا أن الفلسفة الإسلامية عند العلامة الجرجاني : علم وعمل، فكر وتطبيق، سلوك وممارسة لاعتقاده بأن الفكر الصحيح هو الذي يمكن تطبيقه في وجوهها الصحيحة، أما الفكر غير الصحيح فإن إمكانية تطبيقه لا تكون صحيحة، بل يأتيها الخلط من كل ناحية، والإهمال من كل جانب.

كما أن تركيزه على التنبيه المتواصل نحو التزام المسلم الأمر الإلهي يؤكد تمام التأكيد على أن مفكرى المسلمين كانوا نمطاً مغايراً تماماً لما عليه مفكرو اليونان، وأن مفكرى الإسلام لم يهملوا اللفظ المتداول، ولكنهم بينوا أن لفظ الفلسفة اليوناني - فيلا - سوفيا - لا

(١) السيد الشريف علي بن محمد بن السيد الزين أبي الحسن الحسيني الجرجاني الحنفى ولد عام ٧٤٠ هـ وتوفي عام ٧١٦ هـ له من المؤلفات الكثير في مختلف العلوم. راجع الأعلام للزركلى، وهدية العارفين.

(٢) العلامة السيد الشريف الجرجاني / التعريفات / ص ١٤٧، ١٤٨.

ينطبق على المفاهيم الشرعية، وكشفوا عن أن الفكر الإسلامي يتسم بالعموم والشمول مع الدقة والأمان أما غيره من الأفكار الأخرى فإنها لا يمكن أن يقع لها شيء من ذلك.

بل أكدوا على أن مجرد الاشتراك الاسمى في استعمال بعض الألفاظ أو الطرائق ليس مدعاة للتصديق أو التسليم بأن الفلسفة اليونانية قد نتجت عنها الفلسفة الإسلامية، أو أنها ترجمة لها على النحو الذي ينقله الكثيرون ممن يتعجلون في إصدار أحكاما قاسية على المفكرين المسلمين.

وفى تقديري : أن تعريفات الفلسفة الإسلامية على النحو الذي سلف تؤكد اتساع دائرة المفكر المسلم وتكاثر جزئياته البحثية وتعدد موضوعاته المعرفية، والتزام المفكر المسلم بالقواعد الشرعية والنصوص الدينية، أما غير المفكرين المسلمين فقد جاءتهم شبهات عديدة من جوانب مختلفة إنهم شكوا في الخالق العظيم – جل علاه – ولذا راحوا يبحثون عنه، بل إنهم أخذتهم تصوراتهم الساذجة فراحوا يتساءلون :

هل هذا الكون قديم؟ أم غير قديم؟

هل أوجد الكون نفسه؟ أم أوجده غيره؟

هل وجد هذا الكون من شيء؟ أم من لا شيء؟

هل هو مادة صرفة تكون منها الكون والروح عارض من عوارض تظهر عليه؟

هل الكون روح صرفة والمادة صورة من صورها التي تصاحبها؟

هل هو مادة وروح معا؟ أو هو مادة ولا روح فيها؟ أو هو عالم وهمي خيالي؟^(١)

كما أنهم بحثوا : هل الكون وجد عن طريق المصادفة الخالصة؟ أم وجد بقدره قادر؟

من هو هذا القادر؟ بل ما هي صفاته؟ وما هي علاقته بالكون؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي دارت في عقلية هؤلاء الذين لم يعرفوا شيئا عن هدى السماء.

أما المفكر المسلم فقد كان التزامه بشرع الله الشريف وقاية له من هذه الهلاوس التي اعتبرها السذج فكرا فلسفيا، وبناء عليه فقد كان النقل المنزل هو الهادي لذلك المفكر المسلم على أساس أن هناك مشكلات أثارها القرآن الكريم، وهناك مشكلات أثارها خصوم الإسلام، ونبه القرآن الكريم إلى حلولها العملية، كل هذه كانت من المسائل الإسلامية الخالصة التي عولجت بعقل إسلامي خالص أيضا^(٢).

ويبدو لي أن هذه التعريفات للفلسفة بالاسم القائم قد بتت تمايز المفكرين المسلمين عن غيرهم وصدقهم لهم، وأنهم كانوا غرة بيضاء في جبين الفكر الإسلامي كما كانوا علامة متميزة تركت أثارا جليلة في الفكر الإنساني أيضا.

(١) هذه الأسئلة أكثر الباحثون من ذكرها وتناولها / راجع في ذلك للدكتور / محمد السيد صبرى / مناهج البحث النظري / ص ٨٢٧ / دار عدنان - حلب - سوريا / طبعة أولى ١٩٧١م، وأيضا الأستاذ / محمد جواد مغنية / معالم الفلسفة الإسلامية / ص ١٣ / طبعة أولى ١٩٧٢م، والدكتور / محمد حسيني موسى / المدخل لدراسة الحكمة ص ٧٢.

(٢) دكتور / سليمان دنيا / التفكير الفلسفي الإسلامي / ص ٣٣٥ / طبع مطبعة الخانجي بمصر.

ثانياً : التعريف بالمعنى الشرعي :

أقصد بالمعنى الشرعي النصوص الواردة في النقل المنزل – القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة – وهذا المعنى الشرعي قد وردت فيه لفظة الحكمة، ومن ثم عني مفكروا الإسلام بها لفظاً، كما عنيوا بها مفاهيم عقلية ذهنية خالصة، بجانب الاتجاهات الفكرية التي جاءت منضبطة لتوجيه المعارف الإنسانية بالمعنى الشامل على أوسع نطاق.

ومن ثم فإن الحكمة الإسلامية بالمعنى الشرعي يمكن تعريفها بأنها : علم يبحث عن المبادئ الأولى للوصول إلى خالقها بالعلم والعمل علم، وفة، ما جاءت به الشريعة الإسلامية من خلال مصادرها الأصلية^(١).

بل يمكن النظر في هذا التعريف بأنه تعريف مستقل تماماً عن التعريفات الأخرى من حيث أنه : يستعمل لفظ الحكمة، ولا يستعمل لفظ الفلسفة على أساس أن لفظ الحكمة من صفات الأفعال التي يقع فيها الاشتراك الاسمي بين المخلوق – جل وعلا – لما هو معروف من أن علماء الكلام في الإسلام قسموا الصفات الإلهية بهذا الاعتبار إلى قسمين:

(١) دكتور / محمد عبد العظيم الدمرداش / الفلسفة الإسلامية / ص ١٢ / طبعة أولى ١٩٦٨م.

❖ [١] صفات الذات :

وهي ما يختص بها الله تعالى وحده من غير مشاركة لأحد معه فيها سواء في الإطلاق، أو الوصف العام، كلفظ : الرزاق، القاهر، المبدئ، المعيد، فإنها جميعا تنطبق على الله تعالى وحده، ولا يقع شيء من المشاركة فيها، ومن ثم فهي صفات ذات.

❖ [٢] صفات الفعل :

وهي ما يقع فيها مجرد الاشتراك اللفظي في الاسم بين المخلوق والخالق، مع الفارق الكبير بينهما، وهو المتحصل فيما بين المخلوق والخالق، كألفاظ الحكيم والسميع والبصير، فإنها تطلق على الله تعالى وغيره من المخلوقات مع ضرورة الأخذ في الاعتبار الفارق في المعنى^(١).

ومن ثم كان حرص مفكرى المسلمين على تعريف الحكمة الإسلامية بالمعنى الشرعي لا بالمعنى اللغوي أو الاسم القائم في لفظ الفلسفة.

ويقرر الشيخ رضوان الفقى أن الحكمة الإسلامية هي معرفة الله تعالى بما له من جلال وكمال ومعرفة العالم الغائب والمشاهد ودور الإنسان في هذه الحياة وما ينتظره في أخراه^(٢).

وفى نفس الوقت فإن مفكرى المسلمين الأوائل على اختلاف انتماءاتهم الفكرية واتجاهاتهم المذهبية قد عنوا بلفظ الحكمة من ناحية

(١) راجع العلامة / السيد الشريف الجرجاني / حاشية الجرجاني على الطوالع / ص ٧، وقد أفاض بيان هذه الصفات في صورة دقيقة جدا.

(٢) الشيخ / رضوان محمد عبد العظيم الفقى / دراسات في العقيدة الإسلامية والصفات الإلهية / ص ١٣ / طبعة دار فؤاد / الطبعة الأولى ١٣٣٨ هـ.

المدلول الشرعي لا من ناحية المعطى اللغوي وحده بدليل : أن شيخ المحققين الجرجاني عرف الحكمة الإسلامية بأنها : العلم بالأشياء على ما هي عليه، والإتيان بالأفعال على ما ينبغي أن يكون^(١).

وفي تقديره أن حرص مفكرى المسلمين على استعمال لفظ الحكمة الإسلامية بالنسبة لتلك المباحث يعكس صورة جميلة لدورهم في هذا الجانب العقلي وحرصهم على ألا يقع فيه شيء من التناكل بدليل أنه ما من فكرة عرضوها إلا وأقاموا حولها الأدلة المتعددة، وما من صورة حاولوا سردها إلا وكانوا حريصين على أن تقوم حولها دلائل عديدة، ومن ثم قسموا الحكمة الإسلامية إلى قسمين :

❖ القسم الأول : الحكمة العلمية :

وعرفوها بأنها التي تتعلق بالأمور التي لنا أن نعلمها وليس لنا أن نعمل بها ويسمونها أيضاً، حكمة نظرية، كما تسمى حكمة علمية، لأنها متعلقة بالعلم المجرد النظرى، ثم إن هذه الحكمة العلمية تنتوع إلى أنواع ثلاثة :

❧ النوع الأول : الحكمة الطبيعية :

وهي التي تتعلق بالحركة والتغير، كما تسمى العلم الطبيعي، أو العلم الأسفل.

❧ النوع الثاني : الحكمة الرياضية :

وهي التي تتعلق بالموضوعات المجردة في الذهن وتسمى الحكمة الرياضية كما تسمى بالعلم الأوسط.

(١) السيد الشريف الجرجاني / شرح المواقف في علم الكلام / الموقف الخامس / الإلهيات / ص ٣٣٥ / تحقيق د. أحمد المهدي / مكتبة الأزهر.

✧ النوع الثالث : الحكمة الأولى :

وهي التي تتعلق بالموجود المستغنى بوجوده عن مخالطة الغير وتسمى الحكمة الإلهية^(١).

✧ القسم الثاني : الحكمة العملية –التجريبية – :

وعرفوها بأنها : المتعلقة بالأمور العملية التي لنا أن نعلمها ونعمل بها وهي تنقسم إلى ثلاثة أنواع :

✧ النوع الأول : الحكمة المدنية :

وهي التي يعلم بها كيف يجب أن تكون المشاركة التي تقع بين أفراد الناس.

✧ النوع الثاني : الحكمة المنزلية :

وهي التي يعلم بها كيف ينبغي أن تكون المشاركة الجادة بين أهل المنزل الواحد^(٢).

✧ النوع الثالث : الحكمة الخلقية :

وهي التي يعلم بها كيف يمكن إدراك الفضائل اكتساباً وتعلماً^(٣).

وهذه التقسيمات والتتبعات تؤكد أن حكماء المسلمين قد اخذوا بالعقل والنقل، وأنهم كانوا هداة للقافلة الحائرة وحداة لها، ومن ثم بلغت القافلة الأمان، وتحققت القواعد المرجوة، بل وتم التأكيد على أن النتائج التي علفت بهم أمكن بلوغها في سهولة ويسر.

(١) ابن سينا / تسع رسائل / ص ٤.

(٢) الأستاذة / هدى محمد عبد الباقي / دراسات في فلسفة ابن سينا / ص ٧٣ / طبعة دار الرياض / ص ١٩٦٩م.

(٣) الأستاذ / أبو زيد منصور القرشي / المشكلات الخلقية / ص ٨٥ / الطبعة الأولى ١٩٨١م.

ثالثاً : ملامتها بالنصوص الشرعية :

من الواضح أن أي باحث يحاول الوقوف على العلاقة بين الفلسفة الإسلامية والنصوص الشرعية عليه أن يرجع إلى الأصول العامة والقواعد المعمول بها، وذلك يتضح من خلال طريقتين :
الأول : ورود الكلمة في النصوص الشرعية من عدمه.
الثاني : انضباط تلك المباحث الفلسفية بالنصوص الشرعية، أو عدم انضباطها.

والملاحظ أن لفظة الحكمة من الألفاظ الواردة في النقل المنزل، كما أنها واردة في لغة العرب، وفوق ذلك فإنها تجيء على الجوانب العديدة التي حفلت بها الدراسات الإسلامية منذ مطالع عصر النبوة الخالدة الخاتمة إلى يومنا هذا، وبناءً عليه سأوضح ما يلي :

❦ أ) ورود مادة الكلمة - الكلمة - في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصلاة :

فمن ورودها في القرآن الكريم : مجيئها وصفاً لله - عز وجل - أو فعلاً من أفعال الله تعالى، أو وصفاً لكلامه - جل شأنه - وهو القرآن الكريم، أو وصف لبعض آيات القرآن الكريم، أو تمييزاً لبعض الأفراد ممن منحهم الله - تعالى - ذلك التمييز منحة منه وتفضلاً.

والبين أن مادة الكلمة قد وردت في القرآن الكريم حوالى "مائتى وخمس عشرة مرة"^(١) كلها لبيان أو توضيح العديد من المعانى الإسلامية مما يدل على أن الحكمة الإسلامية لها وجود ثابت مستقر في النصوص النقلية بذات اللفظ، كما أنها موجودة في الفكر الإسلامى بمعانيها.

وبناءً عليه فهي ليست وليدة الفكر اليونانى، وإنما هى استنتاج ضرورى لما نبه إليه الشرع الشريف.

فمن ورود لفظ الحكمة والحكيم وصفاً لله - تعالى - قوله - جل شأنه - : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْشِرُونَ وَمَا تُنْهَوْنَ تَتَكَبَّرُونَ﴾^(٢).

(١) راجع / المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / باب الهاء / ص ٢١٢-٢١٥.

(٢) سورة البقرة / الآيات ٣١-٣٣.

أى أسماء المسميات كلها، قال بن عباس : علمه اسم كل شيء حتى القصعة والمغرفة ثم عرض المسميات على الملائكة وسألهم على سبيل التيكيت أخبروني بأسماء هذه المخلوقات التي ترونها إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم أحق بالخلافة ممن استخلفته.

والحاصل أن الله تعالى أظهر فضل آدم - عليه السلام - للملائكة بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة، وخصه بالمعرفة التامة دونهم من معرفة الأسماء والأشياء والأجناس واللغات، ولهذا اعترفوا بالعجز والقصور، وقالوا ننزهك يا الله عن النقص ونحن لا علم لنا إلى ما علمتنا إياه، فأنت العليم الذي لا تخفى عليه خافية، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة، قال المولى - عز وجل - أخبرهم يا آدم بكل الأشياء وسمى كل شيء باسمه، وذكر حكمته التي خلق لها، ثم قال تعالى للملائكة : ألم أنبئكم بأنى أعلم ما غاب في السموات والأرض عنكم، وأعلم ما تظهرون وما تسرون من دعاكم أن الله خلق خلقاً أفضل منكم.

وروى أنه تعالى لما خلق آدم - عليه السلام - رأت الملائكة فطرته العجيبة وقالوا : ليكن ما شاء فلن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أكرم عليه منه^(١).

وقال الإمام الصابوني : من الفوائد الجليلة في الآيات :

١- في إخبار الله تعالى للملائكة عن خلق آدم واستخلافه في الأرض، تعليم لعباده المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها.

(١) الإمام ابن كثير / مختصر تفسير ابن كثير / ج١ / ص ٥٢، والعلامة أبو السعيد / ج١ / ص ٦٩.

٢- الحكمة من جعل آدم - عليه السلام - خليفة هي الرحمة بالعباد - لا لافتقار الله - وذلك أن العباد لا طاقة لهم على تلقى الأوامر والنواهي من الله بلا واسطة ولا بواسطة ملك، فمن رحمته ولطفه وإحسانه إرسال الرسل من البشر.

٣- وقول الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُقْسِدُ فِيهَا ﴾ الآية. ليس هذا على وجه الاعتراض على الله تعالى، ولا على وجه الحسد لبنى آدم، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عين الحكمة في ذلك، يقولون: ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض؟ وقال في التسهيل: وإنما علمت الملائكة أن بنى آدم يفسدون بإعلام الله إياهم بذلك، وقيل: كان في الأرض جن فأفسدوا، فبعث الله إليهم ملائكة فقتلتهم، ففاس الملائكة بنى آدم عليهم^(١).

وأيضاً قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَبَلَّكَ حَمِئًا أَتَيْتَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

(١) الإمام بن كثير / مختصر تفسير بن كثير / ج ١ / ص ٤٩، والتسهيل لابن جزي / ج ١ / ص ٤٣.

(٢) سورة الأنعام / الآية ٨٣ فالله عز وجل حكيم بمعنى أنه تعالى يضع الشيء في محله، عليم لا يخفى عليه شيء، راجع العلامة الصابوني / صفوة التفسير / ج ١ / ص ٤٠٣.

(٣) سورة الأنفال / الآية ٧١ / والمعنى: وإن كان هؤلاء الأسرى يريدون خيانتك يا محمد بما أظهروا من القول ودعوى الإيمان، فقد خاتوا الله - تعالى - قبل هذه الغزوة - غزوة بدر - فتوأك ونصرك الله عليهم وجعلك تتمكن من رقابهم، فإن عادوا إلى الخيانة فسيمكنك منهم أيضاً، فالله سبحانه وتعالى عالم بجميع ما يجري، يفعل ما تقضى به حكمته البالغة، راجع البحر المحيط / ج ٤ / ص ٥١٦، والعلامة البيضاوي / ج ١ / ص ٢١٧.

حكيم^(١)، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَإِيعِثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

فقد جاءت هذه الآية الكريمة من جملة الدعوات الكريمة التي دعا بها إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - رب العزة سبحانه وتعالى، والمعنى: ابعث يا ربنا في الأمة المسلمة رسولا من أنفسهم، فاستجاب الله - عز وجل - الدعاء ببعثه السراج المنير سيدنا محمد ﷺ يقرأ آيات القرآن معلما لهم وكذلك السنة النبوية المطهرة، ويظهرهم من رجس الشرك أنك أنت العزيز الذي لا يقهر ولا يغلب، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة^(٣).

وأيضاً قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِنَافَعٍ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بِغَدِ الرَّسُولِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(٤) أي عزيزاً في ملكه، حكيماً في صنعه^(٥).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ إِلَهَكُمْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٦) أي عليماً بأحوال العباد، حكيماً فيما دبره لهم^(٧).

(١) سورة الأنفال / الآية ٤٩، والمعنى: ومن يعتمد على الله تعالى ويثق به فإن الله ناصره، لأن الله عزيز أي غالب لا يذل من استجار به، حكيم في أفعاله وصنعه / راجع / الإمام ابن كثير / المختصر / ج ٢ / ص ١٢١.

(٢) سورة البقرة / الآية ١٢٩.

(٣) العلامة أبو السعود / ج ١ / ص ١٢٤، والإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج ٢ / ص ٨٨.

(٤) سورة النساء / الآية ١٦٥.

(٥) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج ٦ / ص ١١.

(٦) سورة النساء / ١٧٠.

(٧) الإمام الصابوني / صفوة التفسير / ج ١ / ص ٣٢١.

من ثم فإن الآيات السابقة تطلع القاريء على أن الحكمة جاءت وصفاً لله تعالى وهي من صفات الأفعال التي يشترك فيها المخلوق مع الخالق، مع ملاحظة بيان ما للخالق وما للمخلوق.

ومن ورودها في السنة النبوية المطهرة، ما جاء عن الصحابي الجليل أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: "إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة"^(١)

وهذا يدل على أن لفظ الحكيم جاء اسماً من أسمائه -جل شأنه- وبالتالي فكل اسم من أسمائه، أو وصفاً من صفاته -جل علاه- إنما يستقل بمعنى يغاير الاسم الثاني ولكنها تتكامل جميعها لتكون دالة على الله - عز وجل - لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢)

أي الله الأسماء التي هي أحسن الأسماء وأجلها لإتقانها عن أحسن المعاني وأشرفها فسموه بتلك الأسماء، واتركوا الذين يميلون في أسمائه تعالى عن الحق كما فعل المشركون حيث اشتقوا لألهتهم أسماء منها: كاللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، انهم سينالون جزاء ما عملوا في الآخرة^(٣).

وكذلك ما روى عن الرسول ﷺ أنه قال: "إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة" من هذه الأسماء الحسنى

(١) راجع / فيض القدير جـ ٢ / ص ٤٨٨، والحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه جـ ٢ / ص ٩٨١، ومسلم جـ ٤ / ص ٢٠٦٣.

(٢) سورة الأعراف / الآية ١٨٠.

(٣) الإمام البيضاوي / ٢٠٥ والقرطبي جـ ٧ ص ٣٣٤.

اسم الحكيم^(١)، لأنه يتعلق هنا بذات الله - عز وجل - ومن تعدد الأسماء الحسنى يأتي لفظ الحكيم فيها مقارناً بلفظ السميع والبصير، وغيرها من الأسماء الحسنى.

قال العلامة صاحب المواقف : الحكيم هو ذو الحكمة، وهي العلم بالأشياء على ما هي عليه، والإتيان بالأفعال على ما ينبغي، وقيل الحكيم بمعنى المحكم من الأحكام وهو إتقان التدبير وإحسان التقدير^(٢).

وكان ذلك منه في معرض شرحه لأسماء الله الحسنى، وبناءً عليه، فإن الحكيم هنا قد جاء اسماً من أسماء الله، أو وصفاً من صفاته، وما دام الأمر كذلك فمن صار حكيماً أو فيلسوفاً مسلماً فإيما يعمل على التشبه بالله تعالى في أحكامه وتدبيره وعلمه بالأشياء.

ومن هنا ندرك سر إطلاق مفكرى المسلمين على الفلسفة الإسلامية أنها التشبه بالإله - جل علاه - فيما له من الكمالات.

كذلك جاءت كلمة الحكمة وصفاً للقرآن الكريم كله، أو لبعض آياته فمما جاء وصفاً للقرآن الكريم قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾^(٣) فهذا القرآن تنزيل من الله - جل وعلا - العزيز القادر الذي لا يُغلب الحكيم الذي يفعل كل شيء بحكمة وتقدير وتدبير^(٤). وقوله تعالى : ﴿ حَمْدُ تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾^(٥).

(١) جامع الأحاديث / ج ٢ / ص ٤٤٥، والحديث أخرجه الإمام الترمذى وابن حبان وشاكم والبيهقى.

(٢) الإمام / السيد الشريف الجرجاني / شرح المواقف / الموقف الخامس / الإلهيات ص ٣٦٥ / تحقيق دكتور / أحمد المهدي.

(٣) سورة الزمر / الآية ١.

(٤) حاشية الصاوى على الجلالين / ج ٣ / ص ٣٦٦، والإمام القرطبي / ج ١٥ / ص ٢٣٥.

(٥) سورة غافر / ص ٢٢١.

والمعنى : أن هذا القرآن تنزيل من الله تعالى، العزيز في ملكه، العليم في خلقه^(١). وقوله تعالى : ﴿ يس وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُزَكِّينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ففي الآيات الكريمات قسم من الله تعالى بالقرآن والحكيم معناه : المحكم الذي لا يلحقه تغيير ولا تبديل، ولا يعثره تناقض أو بطلان، قال الإمام القرطبي : أحكم في نظمه ومعانيه فلا يلحقه خلل، وقال العلامة أبو السعود : أى المتضمن للحكمة أو الناطق بالحكمة من حيث نظمه المعجز المنطوى على بدائع الحكم. ومن ثم فقد أقسم المولى عز وجل بهذا الكتاب المحكم المعجز، في نظمه وبديع معانيه، المتقن في تشريعه وأحكامه، الذي بلغ أعلى طبقات البلاغة، على أن محمداً رسوله وأن هذا الكتاب من عند الله^(٢).

ومن مجيئها وصفاً لآيات قوله تعالى : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾^(٣)، وفي ذلك إشارة إلى هذا الكلام البليغ المعجز، المكون من جنس الأحرف التي يتكون منها كلامكم، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب الحكيم وهى في متناول أيديهم، ثم يعجزون عن الاتيان بمثل آية واحدة منه، فهذه آيات القرآن المحكم المبين الذي لا يدخله شك، ولا يعثره كذب ولا تناقض^(٤).

ومن مجيئها وصفاً لآياته أيضاً قوله تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ مُحْكَمٌ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾^(٥)، فالإحكام في الآية الكريمة يعنى

(١) الإمام ابن كثير / المختصر / جـ ٣ / ص ٢٣٥، والإمام الطبري / جـ ٢٤ / ص ٤٣، والإمام الكشاف / جـ ٤ / ص ١١٨.

(٢) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / جـ ١٥ / ص ٤.

(٣) سورة لقمان / ص ٢٢١.

(٤) البحر المحيط / جـ ٧ / ص ١٨٣.

(٥) سورة هود / ص ١.

: المنع من الفساد، وأحكم الأمر إذا أتى به على وجه لا يتطراً إليه خلل أو فساد، وفي الآية إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، وأنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية فهو كتاب جليل القدر، نظمت آياته نظماً محكماً لا يلحقه تناقض ولا خلل بين الحق فيه أمور الحلال والحرام وما يحتاج إليه العباد من أمور المعاش والمعاد من عند الله فصلها وبيّنها الخبير العالم بكيفيات الأمور، ولذا كانت محكمة أحسن الأحكام، ومفصلة أحسن التفصيل^(١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿الْم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُذَى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾^(٢)، وبناءً عليه فإن آيات القرآن الكريم كلها محكمة باعتبار الورود والتنزيل، ولكن بعضها متشابه من حيث المعنى، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٣).

ففى قوله: ﴿أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ عبر المولى سبحانه عن القرآن بالكتاب الذي هو اسم جنس إيداناً بكمال تفوقه على بقية الكتب السماوية كأنه هو الحقيق بأن يطلق عليه اسم الكتاب.

والمعنى: أنزل عليك يا محمد القرآن العظيم فيه آيات بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها ولا غموض، كآيات الحلال والحرام، هن أصل الكتاب وأساسه، وفيه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على

(١) الإمام القرطبي / ج ٩ / ص ٥.

(٢) سورة لقمان / ٣-١.

(٣) سورة آل عمران / ٧.

كثير من الناس، فمن رد المتشابه إلى الواضح المحكم فقد اهتدى، وإن عكس فقد ضل، ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(١)

أى فأما من كان في قلبه ميل عن الهدى إلى الضلال فيتبع المتشابه منه ويفسره على حسب هواه، وذلك طلباً لفتنه الناس في دينهم، وإيهاماً للاتباع بأنهم يبتغون تفسير كلام الله، كما فعل النصاري الضالون حيث احتجوا بقوله تعالى في شأن عيسى عليه السلام على أن عيسى ابن الله أو هو جزء من الله، فادعوا ألوهيته، وتركوا المحكم وهو قول الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ الدال على أنه عبد من عباد الله، ورسول من رسله، ولا يعلم تفسير المتشابه، ومعناه الحقيقي إلا الله وحده، والثابتون المتمكنون من العلم يؤمنون بالمتشابه، وأنه من عند الله، فكل من المتشابه والمحكم حق وصدق لأنه كلام، وما يتعظ ويتدبر إلا أصحاب العقول السليمة المستبيرة^(٢).

مما سبق اتضح أن لفظ الحكمة لفظ ديني وارد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فإذا أطلقها المفكرون المسلمون على بعض مباحثهم الفنية الدقيقة التي يقومون بها، فإن ذلك يعتبر أمراً مقبولاً، واتجاهاً يحمد لهم باعتبار أنهم اشتقوا تلك المباحث من لفظ الحكمة

(١) سورة آل عمران / آية رقم ٧.

(٢) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج٤ / ص٩، والإمام الفخر الرازي / مفاتيح الغيب / ج٧ / ص١٦٥.

الإسلامية التي هي من صفات الأفعال، فنسبوا كل من يبحث تلك المسائل إلى الحكمة وعرفوها بأنها : "التشبه بالله تعالى على قدر الطاقة البشرية"^(١).

وكذلك تحدثت السنة النبوية الشريفة عن بيان إتباع المنهج الإسلامي في كل الأبحاث والمفاهيم والاتجاهات التي تخدم قضية الإيمان بالله، من ذلك قوله ﷺ : "تركتم فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً : كتاب الله وسنتي"^(٢).

مما سبق اتضح وجود علاقة بين الفلسفة الإسلامية والنقل المنزل، وهو ورود اللفظ الدال على ذات المعنى في القرآن الكريم وصفاً لله، أو وصفاً للقرآن الكريم ذاته أو وصفاً لبعض آياته.

كذلك ورود لفظ الحكمة في لغة العرب دالاً على رجاحة العقل والقدرة على التفكير الصحيح، بجانب التصرف في الأمور طبقاً لما ورد به لسان الشرع، وقد تناقل هذا المعنى الحكماء والشعراء والأدباء وأهل العلم بالله، من ذلك قول أبي نواس :

إني أنا الرجل الحكيم بطبعه .. يزيد في علمي حكاية من حكى
أتتبع الظرفاء أكتب عنهم .. كيما أحدث من أحب فيضحكا^(٣)

(١) دكتور / محمد حسيني موسى / المدخل التام لدراسة الحكمة الإسلامية / ص ١١٣.

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري / باب فضائل القرآن / وراجع التاج الجامع للأصول من أحاديث الرسول ﷺ للشيخ / حنفي ناصف.

(٣) مجلة العربي الكويتية / العدد / ٣٣٥ / ص ١٠٧ أكتوبر / السنة التاسعة والعشرون.

فهذا الرجل الحكيم الذي دلَّ عليه النظم إنما مُدح برجاحة العقل، وسلامة الفكر، مع قدرة الفؤاد على التماس مناطق الخير والوصول إليها حرصاً عليها، والتزاماً بها، وكذلك التعرف على مواطن الشر، ثم الابتعاد عنها، وكلها دلائل لصالح العقل الذي يوصف صاحبه بأنه حكيم، ومن ثم فكل صاحب عقل راجح، وفكر سليم، وفؤاد مستقيم مع شرع الله يمكن إطلاق لفظ الحكمة عليه واعتباره فيلسوفاً مسلماً.

بل أن العربي القديم والمعاصر قد فهم هذا المعنى، فأكد قدرته على وضع الأمور في نطاقها الصحيح، وأن تتبع القضايا المطروحة في أصولها القائمة أمر مهم جداً، سواء أكان ذلك عن طريق الحكماء أم عن طريق الناظرين أو الناثرين، أو النبلاء، أو الظرفاء لأن الغاية هي التي تقوده إلى طلب الحكمة، وما دامت مشروعة فإن ما يتعلق بها يكون هو الآخر مشروعاً، وفي الحديث الشريف: "الحكمة ضالة المؤمن يَنشدها أنى وجدها لا يبالي من أين جاءت"^(١).

بل أثر عن أبي الأسود الدؤلي بعض النظم دالاً على الحكمة حين يقارن بين صاحب العقل الراجح وذو العقل الفاسد، ويبين أن الرجل صاحب العقل الراجح يتصرف في الأمور كلها من خلال مواقف صحيحة، وقواعد مستقيمة، أما غيره فهو السفه الذي لا يميز بين هذه وتلك فيقول:

(١) الحديث رواه الترمذي في سننه ج ٥ / ص ٥١، وابن ماجه ج ٢ / ص ١٣٩٥

- حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه .. فالقوم أعداء له وخصوم^(١)
وترى اللبيب محسدا لم يجترم .. شتم الرجال وعرضه مشتموم
وكذاك من عظمت عليه نعمة .. حساده سيف عليه صروم^(٢)
فاترك مجارة السفينة فأنها .. ندم وغب بعد ذاك وخيم
فإذا جريت مع السفينة كما جرى .. فكلكما في جريه مذموم^(٣)
وإذا عتبت على السفينة ولمته .. في مثل ما تأتي فانت ظلوم^(٤)

(١) هو يتحدث هنا عن نفسه كما يتحدث عن أهل العلم، حيث تقع عليهم ألوان الحسد من الخصوم وبخاصة أولئك الذين يتشدقون بالنقوى والورع وهم من هذه وتلك أبعد ما بين الثراء والثرى - بين النجمة والتراب.

(٢) فالرجل هنا يتحسس مواطن الضعف في النفس الإنسانية التي يغلبها الشيطان ولمزه، ومن ثم تقع في الحسد والحقد، وتلجأ تلك النفس الشريرة لهدم كل قيم نبيلة، ومهما كانت المحاولة محكوم عليها بالفشل، فإن أصحابها لا يكفون عن القيام بها.

(٣) ولذا قيل : عدو عاقل، خير من صديق جاهل، كما قيل : ان مجارة السفينة تنزل بالكريم حتى يكون هو الآخر سفيها.

(٤) لأن السفينة أخطاؤه تجرى على قلبه وجوارحه، كما تجرى دماؤه في عروقه، والله عز وجل بين ذلك في القرآن الكريم. فقال تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْثِرُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ سورة النساء / الآية رقم ٥. فلا تعطوا المبذرين من اليتامى أموالهم التي جعلها الله قياماً للأبدان ولمعاشكم فيضيعوها، قال ابن عباس : السفهاء هم الصبيان والنساء، وقال الإمام الطبري : لا تؤت سفهاء ماله وهو الذي يفسده بسوء تدبيره صبيا كان أو رجلا، ذكرا كان أو أنثى. راجع : الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي / ج ٥ ص ٥٣، وأيضا : الإمام الطبري / ج ٧ ص ٥٦٥.

ياأيها الرجل المعلم غيره .. هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى .. كيما يصح به وأنت سقيم^(١)
وأراك تصلح بالرشاد عقولنا .. أبدا وأنت من الرشاد عديم^(٢)
لا تنه عن خلق وتأتى مثله .. عار عليك إذا فعلت عظيم^(٣)

(١) وقديما قيل :

غير تقى يأمر الناس بالتقى .. طبيب يداوى القلوب والطبيب مريض
لأن فاقد الشيء لا يعطيه، كما أنه في كل حالته لا يستفيد بما يقدم لغيره من نواء.
(٢) وذلك يكشف طبيعة أولئك الذين ينصبون أنفسهم مرشدين وموجهين غيرهم
دون أن تكون لهم مقومات تعينهم على ذلك، وبالتالي فهم كمن ذبح بغير سكين.
(٣) فالله عز وجل قد نّم من يفعل ذلك ولامه وبين موقعه في النار فقال جل شأنه :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا
لَا تَفْعَلُونَ ﴾ سورة الصف / الآيات ٢، ٣. فقد روى أن المسلمين قالوا : لو
علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبدلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فلما فرض الله
الجهاد كره بعضهم فأنزل الله تعالى هذه الآية قائلا للذين صدقوا الله ورسوله :
لم تقولون بالسننكم شيئا ولا تفعلونه؟ ولأى شيء تقولون نفعل ما لا تفعلونه من
الخير والمعروف؟ وهو استقهام على جهة الإنكار والتوبيخ، قال العلامة بن
كثير : وهذا إنكار على من يعد وعدا، أو يقول قولا لا يفى به، وفي الصحيحين
: "آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا أبتن خان" ثم أكد
الحق سبحانه وتعالى عليهم الإنكار بقوله : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى عظم
فعلكم هذا بغضا عند ربكم أن تقولوا شيئا ثم لا تفعلونه، وأن تعدوا بشيء ثم لا
تفون به، وقال ابن عباس : كان ناس من المؤمنين - قبل أن يفرض الجهاد -
يقولون : لوددنا أن الله - عز وجل - دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به،
فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال : إيمان بالله لا شك فيه وجهاد أهل معصيته
الذين خالفوا الإيمان ولم يقرأوا به، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين
وشق عليهم أمره، فنزلت الآية، وقيل : هو أن يأمر الإنسان أخاه بالمعروف ولا
يأمر به وينهاه عن المنكر ولا ينتهى عنه كقوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ
بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ سورة البقرة / ٤٤.
راجع الإمام ابن كثير / المختصر / ج٣ / ص ٤٩٢، وأيضا الإمام القرطبي
/ ج١٨ / ص ٨٢، والإمام الرازي / التفسير الكبير / ج٢٩ / ص ٣١٣.

ابداً بنفسك فاتها عن غيرها .. فإذا انتهت عنه فانت حكيم
فهناك يقبل ما وعظت ويقنئ .. بالعلم منك وينفع التعليم
لا تكلمن عرض ابن عمك ظالماً .. فإذا فعلت فعرضك المكلوم^(١)
وحريمه أيضاً حريمك فاحمه .. كيلا يباع لديك منه حريم^(٢)

وفي تقديره : أن أبا الأسود الدولي قد بث الحكمة في شعره دالة على الكياسة في الرأي، والرجحان في العقل، والقدرة على سيطرة النفس وتمكنها من نوازعها بجانب القضاء على مكان الرغبة ونزعات الهوى، وعوامل النقصان في الإنسان.

ومن ثم يتكامل المرء بالأدب العالي، ويتجمل بالخلق الكريم والمعرفة الصحيحة والعمل المتقن السليم، شريطة أن يكون ذلك كله محكوماً بالأصول الإيمانية محفوظة بالتعاليم الشرعية، قائماً على ما أمر به رب البرية.

في نفس الوقت فإن العلاقة بين الفلسفة الإسلامية والنصوص المنزلة تجاوزت الألفاظ إلى المفاهيم، وتحولت من مجرد نصوص تنتمي إلى مفاهيم يقع بها الإعجاز والتحدى بجانب تحقيق المصالح المشتركة على النواحي والوجوه المختلفة وهو ما يميز الفلسفة الإسلامية عن غيرها من الفلسفات التي زعم أصحابها قدرتها على البقاء، أو ادعوا إمكانية أن تظل قوية، لكن عند المقارنة تبين أن المفكر المسلم يسعى لانطباق أفكاره التي يدعوا إليها، مع العقيدة الإيمانية التي يتمسك بها، وجاءت في النصوص الشرعية التي لا غنى للمسلم أبداً عنها.

(١) لأن النفوس تتوافق، والأعراض تتلاقى، ومن ثم فمن وقع في إساءة أخيه، وجاء اليوم الذي ترد فيه تلك الإساءة عليه، فكانه هو الذي قدح نفسه.

(٢) العلامة الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري / الترغيب والترهيب / جـ ٤ / ص ١٢٧ / تحقيق الأستاذ / مصطفى محمد عمارة / الطبعة الثالثة / دار إحياء التراث العربي.

ب) وروجها في الجوانب المعنوية من الدراسات الإسلامية :

من المؤكد أن أهل الإسلام جعلوا عنايتهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يستوى في ذلك المحكم في ظاهره والمتشابه في معناه، غير أن الكثيرين منهم قد خص ما يتعلق بالميتافيزيقا بنوع من الدراسة اختلف هذا النوع في شكله أم توافق، لكنهم بذلوا جهودا كبيرة في توضيح المفاهيم الدينية وبيان علاقتها بالميتافيزيقا التأملية والنقدية على قدر سواء.

ففي مجال الحكمة الإلهية وردت آيات كثيرة تتحدث عن توحيد الله ونفي الشبيه والشريك، وكذلك نفي الصاحبة والولد. ففي مجال إثبات التوحيد الخالص جاءت سورة بأكملها في القرآن الكريم هي سورة الإخلاص. قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾^(١).

وهذه السورة الكريمة قد بنيت عليها أصول العقيدة الإلهية القائمة على توحيد الله تعالى، وإثبات ذاته، وتفرده عن كل ما سواه مع نفي الحاجة والصاحبة والشبيه، فقد روى أن بعض المشركين جاءوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا : يا محمد صف لنا ربك، أمن ذهب هو، أم من فضة، أم من زبرجد، أم من ياقوت؟ فنزلت هذه السورة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستهزئين : ان ربي الذي أعبدوه والذي أدعوكم لعبادته هو واحد أحد لا شريك له ولا شبيه له ولا نظير، لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فهو جل وعلا واحد أحد، ليس كما يعتقد

(١) سورة الإخلاص : الآيات ١، ٢، ٣، ٤.

النصارى بالتثليث "الأب، الابن، الروح القدس"، ولا كما يعتقد المشركون بتعدد الآلهة^(١).

وقد جاء في التسهيل لعلوم التنزيل قوله : واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معانٍ، كلها صحيحة في حقه تعالى : الأول : أنه واحد لا ثاني معه، فهو نفي للعدد، والثاني : أنه واحد لا نظير ولا شريك له، كما نقول : فلان واحد في عصره، أي لا نظير له، الثالث : أنه واحد لا ينقسم ولا يتعض.

والمراد بالسورة الكريمة : نفي الشريك رداً على المشركين، وقد أقام الله تعالى في القرآن الكريم براهين قاطعة على وحدانيته تعالى وذلك كثير جداً وأوضحها أربعة براهين.

- الأول : قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾^(٢) وهذا دليل الخلق والإيجاد، فإذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات، لم يصح أن يكون واحداً منها شريكاً له.
- الثاني : قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾^(٣) وهو دليل الاحكام والابداع.
- الثالث : قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا تُدْعَوْنَ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾^(٤) وهو دليل القهر والغلبة.

(١) الإمام الفخر الرازي / التفسير الكبير / ج ٣١ / ص ١٧٥.

(٢) سورة النحل / الآية ١٧.

(٣) سورة الأنبياء / ٢٢.

(٤) سورة الإسراء / ٤٢.

- الرابع : قوله تعالى : ﴿ مَا آتَاكَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾^(١) وهو دليل التنازع والاستعلاء^(٢).

فالحق سبحانه ليس له جل وعلا مثيل، ولا نظير، ولا شبيه أحد من خلقه لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله : ﴿ قَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْإِنْعَامِ أَزْوَاجًا يَتَرَوُكُمْ فِيهِ نِسَاءً كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(٣).

قال العلامة بن كثير : هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه أو قريب يدانيه؟ تعالى وتقدس وتزه، وفي الحديث القدسي : "يقول الله عز وجل : كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياه فقولته : لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقولته : اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد^(٤).

وهذه السورة الكريمة مؤلفة من أربع آيات، وقد جاءت في غاية الإيجاز والإعجاز، وأوضحت صفات الجلال والكمال، ونزعت الله جل وعلا عن صفات العجز والنقص، وقد أثبتت الآية الأولى : الوجدانية، نفت التعدد ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وأثبتت الثانية : كماله تعالى، ونفت النقص والعجز ﴿ الله الصمد ﴾، وأثبتت الثالثة : أزليته وبقاءه ونفت الذرية والتناسل ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ وأثبتت الرابعة : عظمته وجلاله، ونفت

(١) سورة المؤمنون / ٩١.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل / ج٤ / ص ٢٢٣.

(٣) سورة الشورى / ١١.

(٤) العلامة بن كثير / المختصر / ج٣ / ص ٦٩٣.

الأنداد والأضداد «ولم يكن له كفواً أحد» فالسورة إثبات لصفات الجلال والكمال، وتنزيه للرب بأسمى صور التنزيه عن النقائص^(١).

ولا يمكن أن يقف المفكر المسلم عند هذه السور على مجرد التلاوة، وإنما سيبدل جهده لتفهم مراميها ومعانيها، وسوف يستخرج منها الأدلة المتكاثرة على إثبات ما هو بصده من الحكمة الإلهية في المجال العقدي، وذلك مجهود يحسب له مستقلاً.

وفي مجال إثبات التوحيد وإبطال الشريك الثاني قال تعالى : «وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارُهِيُونَ»^(٢) أي لا تعبدوا إلهين، فإن الإله الحق لا يتعدد إنما إلهكم واحد أحد فرد صمد خافون دون سواي فله سبحانه وتعالى ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيد، وله الطاعة والانقياد واجباً ثابتاً فهو الإله الحق، وله الطاعة خالصة فكيف تتقون وتخافون غيره، ولا نفع ولا ضرر إلا بيده، وما تفضل عليكم به من رزق ونعمة وعافية ونصر أيها الناس فمن فضل الله وإحسانه^(٣).

- ففي الآية الأولى : إبطال الشريك الثاني وإثبات الوحدانية للخالق - جل وعلا - الذي يجب أن يعبد وحده.

- وفي الثانية : إثبات احتياج الجميع إليه وقيامهم على عبادته الصحيحة.

- وفي الثالثة : إحالة النعم كلها إلى الله - تعالى - وهو دليل الخلق والعناية ومن ثم فالمفكر المسلم يقف عند هذه الآيات وأمثالها

(١) الإمام الصابوني / صفوة التفسير / ج٣ / ص ٦٢٢.

(٢) سورة النحل / ٥١.

(٣) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج١٠ / ص ١١٥.

موقف التأمل والتفكر والتدبر حتى يصل إلى ما هو بصدد من إثبات الفلسفة، أو الحكمة الإسلامية في الجانب المتعلق بإثبات واجب الوجود ووحانيته وإبطال أن يكون هناك إله ثان معه – جل علاه –.

أما في مجال إثبات التوحيد، وإبطال الشريك المتعدد فقد جاءت آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

وهذا قول فرقة من النصارى يسمون "النسطورية والملكانية" القائلين بالتثليث وهم يقولون: إن الإلهية مشتركة بين الله، وعيسى، ومريم، وكل واحد من هؤلاء إله ولهذا اشتهر قولهم: "الأب والابن وروح القدس" قال السدي: نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، وقال في البحر المحيط: يقولون جوهر واحد وثلاثة أقانيم "أب وابن وروح قدس" وهذه الثلاثة إله واحد كما أن الشمس تتناول القرص والشعاع والحرارة وزعموا أن الأب إله والابن إله والروح إله والكل إله واحد، وهذا معلوم البطلان ببداية العقل أن الثلاثة لا تكون واحدا وأن الواحد لا يكون ثلاثة^(٢).

"وما من إله إلا إله واحد" أي والحال أنه ليس في الوجود إلا إله واحد موصوف بالوحدانية متعال عن المثل والنظير، وإن لم يكفوا عن القول بالتثليث ليمسهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣)؟ والاستفهام للتوبيخ أي أفلا

(١) سورة المائدة / ٧٣.

(٢) الإمام الصابوني / صفوة التفسير / ج ١ / ص ٣٥٧.

(٣) سورة المائدة / ٧٤.

ينتهون عن تلك العقائد الزائفة والأقاويل الباطلة ويستغفرون الله مما نسبوه إليه من الاتحاد والحلول^(١).

ولا شك أن في الآية الكريمة إثبات وحدانية الله - تعالى - وإبطال ما يقول به كل من أصحاب المسيحية واليهودية، وما كان من هذا القبيل وإثبات الألوهية لله الواحد جل علاه، في هذا المجال يقف المفكر المسلم على أدلة صحيحة وقواعد ثابتة، وأسس عامة، وهو ما يمكن إطلاق اسم الفلسفة التأملية عليه أو إطلاق اسم مباحث الألوهية في ما يتعلق بالمؤلفات الكلامية.

أما في مجال إبطال ألوهية المخلوق وإثبات استحالة أن يكون هذا المخلوق خالقاً أو معبوداً من دون الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرَ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَمَّا يُؤْفَكُونَ^(٢)﴾.

يذكر المولى عز وجل في الآية السابقة طرفاً من قبح هذه المنحرفين من اليهود والنصارى الذين نزلت عليهم التوراة والإنجيل، فقد نسب اللعناء إلى الله تعالى الولد، وهو واحد أحد فرد صمد، قال الإمام البيضاوي: وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد بختصر من يحفظ التوراة، فلما أحياء الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً، فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما هذا إلا لأنه ابن الله^(٣).

وزعمت النصارى أن المسيح ابن الله قالوا: لأن عيسى ولد بدون أب، ولا يمكن أن يكون ولد بدون أب، فلا بد أن يكون ابن الله فقال

(١) البحر المحيط / ج ٣ / ص ٥٣٨.

(٢) سورة التوبة / ٣٠.

(٣) الإمام البيضاوي / ص ٢٢٢.

تعالى رداً عليهم ذلك القول التشيع هو مجرد دعوى باللسان من غير دليل ولا برهان^(١) وذلك يتضمن معنيين :

❖ **الأول** : إلزامهم هذه المقالة والتأكيد في ذلك.

❖ **الثاني** : أنهم لا حجة لهم في ذلك، وإنما هو مجرد دعوى

كقولك لمن تكذبه : هذا قولك بلسانك^(٢)، فهم يشابهون بهذا القول الشنيع قول المشركين قبلهم : الملائكة بنات الله : ﴿ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَيْ يُؤَقِّتُونَ ﴾، وهذا دعاء عليهم بالهلاك : أى أهلكهم الله كيف يُصرفون عن الحق إلى الباطل بعد وضوح الدليل حتى يجعلوا لله ولداً، قال الإمام الرازي : الصيغة للتعجب وهو راجع إلى الخلق على عادة العرب في مخاطبتهم، والله تعالى عجب نبيه من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل^(٣).

من ثم أثبت الحق سبحانه وتعالى طبيعة المسيح – عليه السلام – وبَيَّن أنه خلق من خلق الله، وعيد من عبادته، وأنه رسول من رسله ونفخة من روحه، ولا يزيد عن ذلك فقال جل شأنه : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ الْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةَ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَلَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾^(٤).

(١) الإمام الصابوني / صفوة التفسير / ج١ / ص ٥٣١.

(٢) التسهيل / ج٢ / ص ٧٤.

(٣) الإمام الرازي / مفاتيح الغيب / ج١٦ / ص ٣٦.

(٤) سورة النساء / ١٧١.

ففى هذه الآية يرد المولى عز وجل على ضلالات النصارى بعد أن رد على اليهود فيما سبق من آيات قبل هذه الآية فقال : يا معشر النصارى لا تتجاوزوا الحد في أمر الدين، بأفراحكم في شأن المسيح وادعاء ألوهيته، ولا تصفوا الله - تعالى - بما لا يليق من الحلول والاتحاد، واتخاذ الصاحبة والولد فما عيسى - عليه السلام - إلا رسول من رسل الله وليس ابن الله كما زعمتم وقد خلق بكلمته تعالى - كن - من غير واسطة أب ولا نطفة، فهو روح مبتدأه من الله، وهو أثر نفخة جبريل في صدر مريم حيث حملت بتلك النفخة بعيسى.

وإنما أضيف إلى الله تشریفاً وتكريماً، فأمنوا بوحدانيته وصدقوا رسله أجمعين، ولا تقولوا الإلهة ثلاثة : الله، والمسيح، ومريم، أو الله ثلاثة : الأب، والابن، وروح القدس، فهناهم تعالى عن التثليث وأمرهم بالتوحيد، لأن الإله منزّه عن التركيب وعن نسبة المركب إليه، انتهوا عن التثليث يكن ذلك خيراً لكم، فهو عز وجل منفرد في ألوهيته ليس كما تزعمون أنه ثالث ثلاثة تنزه الله عن أن يكون له ولد، فله ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً وعبداً وهو تعالى لا يماثل شيء حتى يتخذ له نداً، وكفى بالله وكيلاً وفي ذلك تنبيه على غناه سبحانه عن الولد كفى بالله أن يقوم بتدبير مخلوقاته وحفظها فلا حاجة له إلى ولد أو معين لأنه مالك كل شيء^(١).

وقد جاء ذلك في القرآن الكريم كثيراً، وبناءً عليه يمكن القول بأن الحكمة الإسلامية بالنسبة للمعاني الدينية هي ذاتها التي تقوم على الجوانب الفكرية باعتبار أن الفكر الإسلامي يقوم على النصوص الإسلامية.

(١) العلامة الطبري / ج ٩ / ص ٤٦٠، وأيضاً العلامة أبي السعود / ج ١ / ص ٤٠١.

أما في مجال الحكمة الطبيعية، فقد جاءت آيات كثيرة منها ما يتحدث عن الأرض ونباتاتها، والماء الذي تسقى به، واختلاف الثمرات الناتجة عنها، وبيان أن ذلك كله يقبل التجريب عليه، ولا يمكن أن ينسب في أصله ونتائجه إلا لله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجِثَاتٌ مِّنْ أَغْصَابٍ وَزَرْعٌ وَتَحِيلٌ صَبُونٌ وَغَيْرُ صَبُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقْضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١).

فقد خلق الحق سبحانه في الأرض من جميع أنواع الثمرات زوجين اثنين، ذكراً وأنثى ليتم بينهما أسباب الإخصاب والتكاثر طبق سنته الحكيمة، فجعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين، إما في اللون كالأبيض والأسود، أو في الطعم: كالحلو والحامض، أو في القدر: كالصغير والكبير، أو في الكيفية: كالحر والبارد وما أشبه ذلك^(٢)، ففي عجائب صنع الله دلالات وعلامات باهرة على قدرته ووحدانيته لمن تأمل وتفكر، وخص الحق سبحانه وتعالى: ﴿الْمُتَفَكِّرُونَ﴾ في قوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بالذكر: لأن ما احتوت عليه هذه الآيات من الصنيع العجيب لا يدرك إلا بالتفكير^(٣).

ومن عجائب قدرة الله تعالى لمن يتفكر ويعقل أن في الأرض بقاع مختلفة متلاصقات قريب بعضها من بعض، قال ابن عباس: أرض طيبة، وأرض سبخة، تثبت هذه، وهذه إلى جنبها لا تثبت.

(١) سورة الرعد / الآية / ٤.

(٢) العلامة أبو السعود / ج ٣ / ص ٩٧.

(٣) الإمام الصابوني / صفوة التفسير / ج ٢ / ص ٧٤.

وبساتين كثيرة من أشجار العنب، وفي هذه القطع المتجاورة أنواع الزروع والحبوب والنخيل والرطب، منها ما يُنبِت منه من أصل واحد شجرتان فأكثر، ومنها ما ينبت منه شجرة واحدة، والكل يسقى بماء واحد، والتربة واحدة، لكن الثمار مختلفات الطعوم^(١).

قال الإمام الطبري: الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ والكمثرى، والعنب الأبيض والأسود، بعضها حلو، وبعضها حامض، وبعضها أفضل من بعض مع اجتماع جميعها على شرب واحد، وفي خلق الله القادر المقتدر لعلامات باهرة ظاهرة لمن عقل وتدبر، وفي ذلك رد على القائلين بالطبيعة وإنكار الإله - جل وعلا - والبعث فإن الذي قدر على إنشاء السموات والأرض والأشجار والثمار والبحار والأنهار قادر على إعادتهم بعد موتهم^(٢).

كما أن الله - عز وجل - حدّث الإنسان عن طبيعته هو، والطريقة التي تم خلقه عليها والمادة التي خلق منها فقال جل شأنه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنْهُ عَلَى رَجْعِهِ لِقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾^(٣).

فلينظر الإنسان في أول نشأته نظرة تفكر واعتبار، من أي شيء خلقه الله؟ خلق من المني المتدفق، الذي ينصب بقوة وشدة، يتدفق من الرجل والمرأة فيتكون منه الولد بإذن الله، يخرج هذا الماء من بين

(١) الإمام الطبري / ج ١٣ / ص ٩٧.

(٢) البحر المحيط / ج ٥ / ص ٣٦٧.

(٣) سورة الطارق / الآيات ١-٥.

الصلب وعظم الصدر، من الرجل والمرأة، ان الله تعالى الذي خلق الإنسان ابتداءً، قادر على اعادته بعد موته^(١).

قال العلامة بن كثير: نبيه الحق سبحانه وتعالى الإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وأرشده إلى الاعتراف بالمعاد، لأن من قدر على البدء، فهو قادر على الاعادة بطريق الأولى^(٢).

ومن الآيات التي تحدث الإنسان عن طبيعته وطريقة خلقه قوله تعالى: ﴿قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَقَدَرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾^(٣). حيث ذكر المولى عز وجل قبح جريمة الكافر، وإفراطه في الكفر والعصيان مع كثرة احسان الله إليه، فلعن الله الكافر وطرده من رحمته، ما أشد كفره بالله مع كثرة احسانه إليه وأياديه عنده؟^(٤)

قال الإمام الألويسي: "والآية دعاء عليه بأشنع الدعوات وأفظعها، وتعجيب من إفراطه في الكفر والعصيان، وهذا في غاية الإيجاز والبيان"^(٥).

من أي شيء خلق الله - عز وجل - هذا الكافر حتى يتكبر على ربه؟ ثم وضح ذلك فقال من ماء مهين حقير بدأ خلقه، فقدره في بطن أمه أطواراً من نطفة ثم من علقة إلى أن تم خلقه.

(١) الإمام الألويسي / روح المعاني / ج ٣٠ / ص ٩٧.

(٢) الإمام ابن كثير / مختصر تفسير ابن كثير / ج ٣ / ص ٦٢٩.

(٣) سورة عبس / الآيات / ١٧-٢٢.

(٤) العلامة الصابوني / صفوة التفسير / ج ٣ / ص ٥٢٠.

(٥) الإمام الألويسي / روح المعاني / ج ٣٠ / ص ٤٣.

وقال العلامة بن كثير : قدر رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أو سعيد، ثم سهل له طريق الخروج من بطن أمه، فكيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين^(١) ؟ - يعنى الذكر والفرج - ثم أماته وجعل له قبراً يوارى فيه إكراماً له، ولم يجعله ملقى للسباع والوحوش والطيور.

قال الإمام الخازن : وهذه نكرمة لبنى آدم على سائر الحيوانات، ثم حين يشاء الله أحياءه، يحييه بعد موته للبعث والحساب والجزاء، حيث أن وقت البعث غير معلوم لأحد، فهو إلى مشيئته تعالى، متى شاء أن يحيى الخلق أحياءهم^(٢).

وحدث - الحق سبحانه - الإنسان المفكر عن ذات الإنسان التي لا يدركها بسهولة وليس بالنسبة للبناء الخارجى المكون من الجسم وأجزائه، وإنما عن الجانب غير المرئى في الإنسان، وعلاقة هذا الجانب الغيبى بالجسم المادى فقال - جل شأنه - : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفْلا تُبْصِرُونَ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾^(٣). أى وفى أنفسكم آيات وعبر من مبدأ خلقكم إلى منتهاه، أفلا تبصرون قدرة الله في خلقكم لتعرفوا قدرته على البعث. قال ابن عباس : يريد اختلاف الصور، والألسنة، والألوان، والطبائع، والسمع والبصر والعقل، إلى غير ذلك من العجائب المودعة في ابن آدم، ومن تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلُق وليت مفاصله للعبادة^(٤).

(١) العلامة بن كثير / المختصر / ج٣ / ص ٦٠٠.

(٢) تفسير الخازن / ج٤ / ص ٢١٠.

(٣) سورة الذاريات / الآيات / ٢١، ٢٢.

(٤) تفسير الإمام الخازن / ج٤ / ص ٢٠٣، وأيضاً / حاشية الصاوى على الجلالين / ج٤ / ص ١٢٥.

ومن ذلك أيضاً قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾^(١). أى يسألك الكفار يا محمد عن الروح ما هي؟ وما حقيقتها؟ فقل لهم انها من الأسرار الخفية التي لا يعلمها إلا رب البرية وما أوتيتم إليها الناس من العلم إلا شيئاً قليلاً، لأن علمكم قليل بالنظر إلى علم الله - تعالى -^(٢).

مما سبق اتضح أن الفلسفة الإسلامية تدخلت في الجوانب الطبيعية وأمكنها إحداث تعديلات متعددة، وأنماط فكرية جديدة على طرائق تناولها، وأشكال دراستها حيث تأخذ بالعقل إلى التفكير الجاد، ثم تعيده إلى الأصول التي خلقه الله تعالى منها، وتظل به آخذة إلى العلى، ثم تردده إلى الجيفة، ومن ذلك كله يرى الإنسان ذاته في صورتها : المشاهدة في الجسم المادى، وغير المشاهدة في الجسم النفسى أو الروحى، ومن ثم تظهر العلاقة بين الفلسفة التأملية والفلسفة النقدية في هذا الجانب، وعلاقة كل منهما بالنصوص الدينية.

وفى مجال العلوم الطبيعية^(٣) الداخلة في نطاق الحكمة الطبيعية جاءت آيات كثيرة، وأحاديث نبوية عديدة تحدثت عن الجانب الوقائى، وبعضها أيضاً تحدثت عن الجانب الدوائى.

(١) سورة الإسراء / ٨٥.

(٢) الإمام الرازى / مفاتيح الغيب / ج ٢١ / ص ٢٣.

(٣) يعرف الطب بأنه : علم تعرف به أحوال أبدان البشر من جهة الصحة وعدمها، وبعبارة أخرى : معرفة ما يعتري الجسم من الأمراض ومعالجتها. كما يعرف بأنه : علم دفع الداء واجتنابه، ومعرفة الدواء الذي به تصح الأجسام وتشفى مما أصابها. ويقول عنه صاحب الموسوعة الميسرة : هو علم وفن، موضوعهما علاج المرض ومنعه وتمتد بدايات الطب إلى محاولات الإنسان الأولى في علاج الإصابات والأمراض. راجع الموسوعة العربية الميسرة / إشراف الأستاذ / محمد شفيق غربال / ط القاهرة ١٩٦٥م / دار القلم / ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، الأستاذ / على فكرى / القرآن ينبوع العلوم والعرفان / ص ٦٠، وراجع / القاموس الطبى.

ففى المجال الطبى الوقائى : جاءت آيات تحت الإنسان على إلتماس الحلال الطيب فيما يتعلق بالمطعم والمشرب، فقال جل شأنه : **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾**^(١). والخطاب فى الآية القرآنية عام لجميع البشر أن يأكلوا مما أحله الله لهم من الطيبات حال كونه مستطاباً فى نفسه غير ضار بالأبدان والعقول، ولا يقتدوا بآثار الشيطان فيما يزينه لكم من المعاصى والفواحش، انه عظيم العداوة لكم، وعداوته ظاهرة لا تخفى على عاقل^(٢).

فالقرآن الكريم يوجه الأنظار إلى الوقاية من الأمراض التى تأتى الجسم عن طريق المأكولات والمشروبات، وما يتعلق بهذا الجانب، وبيّنت الآيات أن إلتزام ما أمر به المولى الكريم يقى المرء من الأمراض التى يقع فيها أولئك الذين لم يلتزموا الحلال، وأعنى بهم المتبعون للشيطان وخطواته، ولا شك أن ذلك يمثل فتحاً فى مجال الدراسات التأملية لا تعرفه إلا الحكمة الإسلامية.

وكذلك جاء قوله تعالى : **﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾**^(٣).

والنداء فى الآية لبني آدم أن يلبسوا أفخر ثيابهم وأطهرها عند كل صلاة أو طواف ولا يسرفوا فى الزينة، والأكل والشرب بما يضر

(١) سورة البقرة / ١٦٨.

(٢) الإمام الرازى / مفاتيح الغيب / ج ٥ / ص ٢٨.

(٣) سورة الأعراف / الآيات ٣١، ٣٢.

بالنفس والمال فهو سبحانه وتعالى لا يحب المسرفين المتعدين حدود الله فيما أحل وحرم، وقل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة ويحرمون على أنفسهم ما أحلت لهم من الطيبات. من حرم عليكم التجميل بالثياب التي خلقها الله لنفعمكم من النبات والمستلذات من المأكول والمشارب، والاستفهام للإنكار والتوبيخ، وأن هذه الزينة والطيبات في الدنيا مخلوقة للمؤمنين وإن شاركهم فيها الكفار، وستكون خالصة لهم يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد، لأن الله حرم الجنة على الكافرين، كذلك نبين ونوضح الآيات التشريعية لقوم يتدبرون حكمة الله ويفقهون تشريعه^(١).

وقال العلامة بن كثير: قال بعض السلف: جمع الله الطب في نصف آية في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾^(٢)، وقال البخاري - رحمه الله - : قال ابن عباس: كل ما شئت وأليس ما شئت ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة^(٣).

وقال العلامة الصاوي: ولا تسرفوا بأن تحرموا الحلال كما كانوا يفعلون من امتناعهم من اللحم والدم، أو تحلوا الحرام أو تتجاوزوا الحد في الأكل والشرب، كالتعمق في ذلك أو الإكثار المضر... لما في الحديث أصل كل داء البردة، وهي إدخال الطعام على الطعام، فالمناسب أن لا نأكل حتى نجوع^(٤).

(١) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج٧ / ص ١٨٩.

(٢) الإمام بن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج٢ / ص ٢١.

(٣) السرف هو مجاوزة الحد، والمخيلة: هي الكبر والعجب، راجع المعجم الوجيز.

(٤) العلامة الصاوي / حاشية الصاوي على تفسير الجلالين / ج٢ / ص ٧٠.

وذكر العلامة النسفي أن هارون الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، جرت بينه وعلى بن الحسين بن واقد محاوراة:

قال النصراني: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان، علم الأبدان، وعلم الأديان.

فقال له على بن الحسين: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه تعالى وهي قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

فقال النصراني: لم يرو عن رسولكم شيء في الطب.

فقال على: قد جمع رسولنا الطب في ألفاظ يسيرة هي: "المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل داء".

فقال النصراني: أجل ما ترك كتابكم، ولا نبيكم لجالينوس طباً^(١).

وهكذا اعترف النصراني بحقيقة ثابتة: وهي أن الإسلام نبه إلى الطب الوقائي.

وكذلك جاء قول الرسول الكريم ﷺ: "ربوا أولادكم قبل ولادتهم، قالوا كيف ذلك يا رسول الله؟ قال ﷺ: تخيروا أمهاتهم. وفي نفس الوقت فإن تخيير الأمهات يستدعي ضرورة التذكير في تخيير الآباء أيضاً، لأن الإنسان يأتي من منسل ورحم، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾^(٢).

أي خلق من النطفة انساناً سمياً بصيراً واثناً يصاهر بهن، فبالنسب يتعارفون ويتواصلون، وبالمصاهرة تكون المحبة والمودة

(١) العلامة عبد الله بن أحمد النسفي، الملقب بابي البركات النسفي / تفسير النسفي لسورة الأعراف / ص ١٣٠.

(٢) سورة النازعات / ٥٤.

والاجتماع الغريب بالقرب : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ أى مبالغاً في القدرة، حيث خلق من النطفة الواحدة ذكراً وأنثى^(١).

وبناء عليه فإن اختيار الرجل للمرأة الصالحة، واختيار المرأة للرجل الصالح يمثل صورة من صور الطب الوقائي الذي أمر به القرآن الكريم، وتناوله السنة النبوية المطهرة الشريفة، وبذل المفكرون المسلمون جهودهم فيه، وقوله ﷺ : إذا نزل الطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإن نزل وأنتم بها فلا تخرجوا منها^(٢).

أما عن الجانب الدوائي العلاجي فقد جاءت آيات كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهِنَّ شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾^(٣).

(١) الإمام الفخر الرازي / مفاتيح الغيب / ج٤ / ٢٤ / ص ١٠٣.

(٢) مقولة مشهورة عن عمر بن الخطاب - رضی الله عنه - .

(٣) سورة النحل / الآيات ٦٨، ٦٩، والمراد من الوحي : الإلهام والهداية أى ألهمها مصالحتها وأرشدتها إلى بناء بيوتها المسدسة العجيبة تأوى إليها في ثلاثة أماكن : الجبال، الشجر والأكوار التي يبنيتها الناس، ثم كلت من كل الأزهار والثمار التي تشتهينها من الحلو والمر، والحامض، فإن الله بقدرته يحيلها إلى عسل، وادخلت الطرق المختلفة في طلب المرعى حال كونها مسخرة لك لا تضلين في الذهاب أو الإياب، يخرج من بطون النحل عسل متنوع منه أحمر، وأبيض، وأصفر، فيه شفاء للناس من كثير من الأمراض، قال الإمام الرازي : كيف يكون شفاء للناس وهو يضر بالصفراء؟ والجواب : أنه تعالى لم يقل : أنه شفاء لكل الناس، ولكل داء، وفي كل حال، بل لما كان شفاء للبعض ومن بعض الأدوية صلح بأن يوصف بأن فيه شفاء، أن ذلك لعبارة لقوم يتفكرون في عظيم قدرة الله، وبديع صنعه. راجع الإمام الفخر الرازي / التفسير الكبير / ج٢٠ / ص ٧٢، ومختصر ابن كثير / ج٢ / ص ٣٣٦.

فقد أثبتت البحوث العلمية والدراسات الطبية أن عسل النحل دواء ناجح لأمراض عديدة، وفيه فوائد كثيرة من ذلك أنها تعالج أمراض المعدة والجهاز الهضمي والكبد، كما تعالج أمراض الجهاز العصبي والسكر المنخفض والضغط المرتفع، وأمراض القلب، كما تعالج الجلد أيضا^(١).

فقد ذكر الشرع الشريف في القرآن الكريم أن الشراب الخارج من بطن النحل وهو العسل فيه شفاء لأمراض الناس الذين يعتقدون صحة النبوة، ويصدقون بخبر السماء، فهم أهل النية الذين يصلح الأمر معهم، ويتم العلاج لهم.

فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب السنن عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: إن أخي استطلق بطنه، فقال الرسول ﷺ للرجل: أسقه عسلاً، فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله: سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً، قال ﷺ: اذهب فأسقه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله: ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ - صدق الله، وكذب بطن أخيك، اذهب فأسقه عسلاً، فذهب فسقاه عسلاً فبرأ^(٢).

يقول العلامة الألوسي في شرحه للحديث: أن رسول الله ﷺ أعلمه الله تعالى بما في معدة هذا المريض من رطوبات لزجة غليظة قد أزلقت معدته، فإذا مرَّ بها شيء من الأدوية القابضة لم يؤثر فيها، بل تظل الرطوبات باقية على حالها، وكلما مرت الأطعمة انزلقت وبقي الإسهال.

(١) الأستاذ / علي فكري / القرآن ينبوع المعارف والعلوم / ج ١ / ص ٢٦١.
(٢) الحديث متفق عليه، أخرجه الإمام البخاري في صحيحه / كتاب الطب، والإمام مسلم في صحيحه / كتاب السلام

فلما تناول الرجل العسل في المرة الأولى حرك العسل تلك الرطوبات المتكونة بالمعدة من أماكنها فأنحدرت، وكثر الإسهال بخروجها على نقرغ المعدة من تلك الرطوبات.

وتوالى الشرب من الرجل حتى نفذت الرطوبة التي كانت في المعدة، وفي الأخيرة قال الرسول ﷺ للرجل: اسقه عسلاً، فكانت هي الأخيرة لأن الرطوبة نفذت كلها وانقطع الإسهال، وبرأ الرجل^(١).

وذكر الألويسي أيضاً: أن "المأمون" كان له نديم يسامره هو "تمامة العيسى" وكان من خواصه فمرض تمامه بالإسهال حتى أنه كان يقوم في اليوم واللييلة مائة مرة، وقد عجزت حيل الأطباء معه، فاستدعى رجال المأمون طبيب المأمون لعلاج صديقه، وكان الطبيب هو: "يزيد بن يوحنا" فما كان من أمر الطبيب إلا أن عالجه بالمسهل أيضاً فبريء الرجل ولم يمت، وقد احتار المأمون في شأن يزيد هذا: كيف يعالج إسهالاً بمسهل؟ وما الحكمة في ذلك؟

فقال يزيد بن يوحنا: يا أمير المؤمنين: إنه كان في جوف الرجل كيموس فاسد، فلا يدخله غذاء أو دواء إلا أفسده، فعلمت أنه لا علاج له إلا قلع ذلك بالإسهال، ومنه يعلم أن ما فعله النبي ﷺ كان من معجزاته الدالة على علمه بدقائق الطب من غير تعليم^(٢) من أحد إنما هو من رب العالمين — سبحانه وتعالى —.

وروى أبو داود والترمذي في السنن عن أسامه بن شريك قال: قالت الأعراب: ألا نتداوى يا رسول الله؟ قال: ﷺ نعم يا عباد الله تداءوا، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً أو دواءً، إلا داءً واحداً،

(١) العلامة الألويسي / روح المعاني / ج٤ / ص ٤٠٧.

(٢) المصدر السابق / ص ٤٠٧، ٤٠٨.

قالوا يا رسول الله : وما هو؟ قال ﷺ : الهرم، واللفظ للترمذي، وقال حديث حسن صحيح^(١).

وروى عن خزيمة عن أبيه قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله : أرأيت رُقي نسترقئها، ودواء نندلوي به، وثقاة ننقي بها، هل ترد من قدر الله شيئاً : قال ﷺ : هي من قدر الله^(٢).

وقد استخدم عسل النحل في علاج الأمراض الفيروسية والميكروبية، والمعدية على السواء، كما استعمل في علاج الجروح والحروق، ومن أهم الأمراض التي تعالج به ما يلي :

١- أمراض الكبد الفيروسية والفسولوجية :

وقد أكدت التقارير العلمية، والأبحاث المعملية أن الانتظام في تناول وجبات عسل النحل يومياً بنسب معتدلة يعطى الجسم مناعة، ويزيد في مناعته الطبيعية، كما يساعد على نسبة الشفاء من أمراض التهابات الكبد الفيروسية والوبائية الطارئة والمزمنة، وكذلك التهابات الحويصلة المرارية.

٢- الأمراض النفسية :

أ (الحيرة والقلق.

ب) الضعف النفسي والجسمي.

ج) الوهم والوساوس.

(١) سنن الترمذي.

(٢) الحديث ذكره الإمام البخاري في فتح الباري / ج١٠ / ص ١٣٦، والإمام الترمذي في سننه ج٤ / ص ٣٩٩، والإمام أحمد في مسنده / ج٣ / ص ٤٢١.

د (الهيستريا^(١)).

- ٣- علاج الأمراض العصبية.
- ٤- علاج الأمراض الجلدية كالصدفية وغيرها.
- ٥- علاج أمراض العيون من التهابات الجفون، والملتحمة والقرنية، وغيرها سواء خلط بغيره أم لم يخلط.
- ٦- علاج السموم الكحولية.
- ٧- حسن حالات مرض السكر الدموي والبولي.
- ٨- تجديد الشباب والحيوية.
- ٩- علاج قرحة المعدة والاثني عشر.
- ١٠- علاج نقص الحموضة في العصارة المعدية.
- ١١- علاج أمراض الجهاز التنفسي.
- ١٢- علاج أمراض البرد كالرشح والزكام.
- ١٣- علاج أمراض الصدر، ومنها ضيق التنفس والسل.
- ١٤- علاج أمراض الدم من حيث التجلط والنزف وخلافه.
- ١٥- علاج الجروح بكافة أنواعها المنقح منها من عدمه.
- ١٦- بناء المناعة واستمرار المحافظة عليها في الجسم.
- ١٧- أمراض الدورة الدموية، والضغط المرتفع، الضغط المنخفض.

(١) الدكتور / سليمان عزمى باشا / على هامش الطب / ج٣ / ص ٦٣ / مكتبة النهضة الأولى ١٩٤٩م.

- ١٨- أمراض الملاريا والتهاب الحلق.
١٩- أمراض الحمى والدوسنتاريا والتيفود.
٢٠- لعلاج الحصبة والتسمم.
٢١- لإعداد الجسم حتى يقضى فترة النقاهة بأمان بعد العمليات الجراحية^(١).

إلى غير ذلك من الأمراض التي تعالج بعسل النحل، فضلاً على العلاج بلسع النحل نفسه وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، وهو أيضاً حين استعماله للتداوى في عصر الرسول ﷺ أو قبل ذلك أثناء الحضارات البشرية القديمة لم يستعمل في هيئة شراب فقط، وإنما اكتحل به أيضاً ودهنت به الجروح، واستخدم في عمل العصائر وغيرها، وهذا ينطبق أيضاً على منتجات النحل الأخرى^(٢).

ومن الطب العلاجي قوله ﷺ: "تداووا عباد الله فإن الذي خلق الداء خلق الدواء" وأيضاً أنه ﷺ قال: "ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء"، وقوله ﷺ "ما جعل الله شفاء أمتى فيما حرم عليها"^(٣).

(١) الدكتور / سليمان عزمى / على هامش الطب / ج٢ / ص ٦٨ / دار القلم ١٩٦١، وأيضاً: القاموس الطبى / ج٢ / ص ١٧٠، وأيضاً دكتور / عبد العزيز باشا إسماعيل / الإسلام والطب وأيضاً / دكتور / يوسف السويدي / الإسلام والعلم الحديث ص ٣٥ ط / دار الجيل بيروت الأولى.

(٢) الدكتور / محمد على البني / المعجزات الإلهية المشتركة بين الأديان السماوية / ص ٣٩٤، ضمن كتاب: الإسلام ومستقبل الحوار الحضارى / المؤتمر العام الثامن للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٤١٨ هـ- ١٩٩٧ م.

(٣) الأحاديث في هذا الباب كثيرة / راجع الطب النبوى.

وعن أسامة بن شريك أن رسول الله ﷺ قال : تداءوا عباد الله، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له دواء، غير داء واحد، قيل يا رسول الله وما هو؟ قال الهرم، والمعنى تداءوا عباد الله وعالجوا أمراضكم وأوجاعكم^(١).

كما أن قد ظهرت مؤلفات علمية كثيرة متخصصة تحمل اسم الطب النبوي جمعت فيها الأحاديث النبوية والقدسية المتعلقة بالمسائل الطبية في كافة أفرع الطب المختلفة، تبين موقف الإسلام من الطب الحديث وكان المؤلفون لها من أبناء الإسلام وكانت آراؤهم موثقة^(٢).

ومن ثم يظهر أن النصوص الشرعية قد تحدثت عن الحكمة الطبيعية، أو الفلسفة الطبيعية في الجانب التطبيقي بعيداً عن غموض الفلاسفة وشطحاتهم وخروجاتهم التي لا تقف عند حد.

أما في مجال الحكمة الأخلاقية، فقد جاءت آيات قرآنية تتحدث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على محدثات الأمور، والنهي عن التعالي والاقتصاد في الحركة بجانب خفض الصوت حتى لا يحدث تلوث سمعي فقال تعالى، حاكياً موقف لقمان مع ابنه ناصحاً إياه : «وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي غَامِظٍ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَيْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ

(١) الأستاذ / علي فكري / القرآن ينبوع العلوم والعرفان / ج١ / ص ٥٣ / طبعة دار إحياء الكتب العربية / عيسى الحلبي.

(٢) راجع / كتاب / الإسلام والطب الحديث / دكتور / عبد العزيز باشا إسماعيل / والمصادر الطبية في هذا الصدد كثيرة يرجع إليها من أراد المزيد.

سَيِّلَ مَنْ أَتَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَتَّبِعُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنَّ تِلْكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي سَمَاءٍ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اقِيمُوا الصَّلَاةَ وَامْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرُوا عَلَى مَا أَصَابَكُمْ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَأَقْصِبْ فِي مِثْنِكَ وَاعْظُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ^(١).

فقد أعطى الله لقمان الحكمة وهي الإصابة في القول، والسداد في الرأي، والنطق بما يوافق الحق، قال مجاهد: الحكمة: الفقه والعقل، والإصابة في القول ولم يكن نبياً إنما كان حكيماً، أن أشكر الله على أنعمائه وأفضاله عليك حيث خصك بالحكمة وجعلها على لسانك، قال الإمام القرطبي: والصحيح الذي عليه الجمهور: أن لقمان كان حكيماً ولم يكن نبياً وفي الحديث: لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكير حسن اليقين أحب الله تعالى فأحبه فمن الله عليه بالحكمة^(٢).

وذكر لقومك يا محمد موعظة لقمان الحكيم لولده حين قال له واعظاً ناصحاً مرشداً: يا بني كن عاقلاً ولا تشرك بالله أحداً، بشرأ أو صنماً أو ولداً، إن الشرك قبيح، وظلم صارخ لأنه وضع للشيء في غير موضعه، فمن سوى بين الخالق والمخلوق، وبين الإله والصنم فهو – بلا شك – أحق الناس، وأبعدهم عن منطق العقل والحكمة، وحرى به أن يوصف بالظلم ويجعل في عداد البهائم^(٣).

(١) سورة لقمان / الآيات ١٣-١٩.

(٢) الإمام الطبري / ج ٢١ / ص ٤٣.

(٣) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج ١٤ / ص ٥٩.

يا بني حافظ على الصلاة في أوقاتها وبخشوعها وآدابها، وأمر الناس بكل خير وفضيلة، وأنههم عن كل شر ورذيلة، واصبر على المحن والبلايا، لأن الداعي إلى الحق معرض لإيصال الأذى إليه.

قال العلامة أبو حيان : لما نهاه أولاً عن الشرك، وأخبره ثانياً بعلمه تعالى وباهر قدرته، أمره بما يتوسل به إلى الله من الطاعات، فبدأ بأشرفها وهي الصلاة، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم بالصبر على ما يصيبه من المحن بسبب الأمر بالمعروف، فكثيراً ما يؤذى فاعل ذلك^(١).

ولا تمش متبختراً متكبراً، لأن الله يكره المتكبر الذي يرى العظمة لنفسه ويتكبر على عباده، المتبختر في مشيته، والفخور الذي يفتخر على غيره، ثم لما نهاه عن الخلق الذميمة أمره بالخلق الكريم فقال له : توسط في مشيتك واعتدل فيها بين الإسراع والبطء، واخفض من صوتك فلا ترفعه عالياً، فإنه قبيح لا يجل بالعاقل، إن أوحش الأصوات وأقبحها صوت الحمير، فمن رفع صوته كان مماثلاً لهم، وأتى بالمنكر القبيح، قال الحسن : كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات، فرد عليهم بأنه لو كان خيراً لفضلتهم به الحمير، وقال قتادة : أقبح الأصوات، صوت الحمير، أوله زفير وآخره شهيق^(٢).

أما عن توجيهات القرآن الكريم في هذا الشأن فإنها لا تنقطع، وكذلك السنة النبوية المطهرة الصحيحة، من ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوَّكُمْ فَاخْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَنَّفُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣).

(١) البحر المحيط / ج ٧ / ص ١٨٨.

(٢) الإمام الرازي / مفاتيح الغيب / ج ٢٥ / ص ١٤٩.

(٣) سورة التغابن / ١٤.

قال المفسرون : ان قوماً أسلموا وأرادوا الهجرة، فثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة، فلم يهاجروا إلا بعد مدة، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فندموا وأسفوا وهموا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم فنزلت الآية الكريمة، وهي نعم كل من انشغل عن طاعة الله بالأزواج والأولاد، وان عفوت عنهم في تثبيطكم عن الخير، وصفحت عما صدر منهم وغفرت لهم زلاتهم فإن الله واسع المغفرة، عظيم الرحمة، يعاملكم بمثل ما عاملتم^(١).

ومن توجيهات القرآن الكريم أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾^(٢). أى ولمن صبر على الأذى، وترك الانتصار لوجه الله تعالى فإن ذلك الصبر والتجاوز من الأمور الحميدة التي أمر الله بها وأكد عليها^(٣).

وفى الحديث الشريف قوله ﷺ : "التمس لأخيك سبعين عذراً فإن نفذوا فقل لعل له عذراً لا أعرفه. أى فإن انقضت هذه الأعذار التمس غيرها، كما وجه القرآن الكريم إلى ممارسة القيم العالية، والتزام الحكمة الأخلاقية، والقيام على ما شرع الله تعالى، فنهى عن إمالة الوجه عن الناس تكبراً عليهم وترفعاً أو تحقيراً من شأنهم، وتجبراً وتعالياً عليهم وتفاخراً، لأنهم جميعاً أبوهم آدم، وأهم حواء فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾^(٤).

(١) حاشية الصاوي على الجلالين / جـ ٤ / ص ٢١٢، وأيضاً / المختصر / جـ ٣ / ص ٥١٠.

(٢) سورة الشورى / ٤٣.

(٣) الإمام الفخر الرازي / مفاتيح الغيب / جـ ٢٧ / ١٧٨.

(٤) سورة الحجرات / ١٣.

و الخطاب في الآية القرآنية لجميع البشر ، فنحن بقدرتنا خلقناكم من أصل واحد، وأوجدناكم من أب وأم، فلا تفاخر بالأباء والأجداد، ولا اعتداد بالحسب والنسب، كلكم لأدم وآدم من تراب، وجعلناكم شعوبا وشتى، وقبائل متعددة، ليحصل بينكم التعارف والتآلف، لا التناحر والتخالف، إنما يتفاضل الناس بالتقوى لا بالأحساب والأنساب فمن أراد شرفا في الدنيا، ومنزلة في الآخرة فليتق الله كما قال ﷺ : "من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله"^(١).

وقوله ﷺ : "الناس سواسية كأسنان المشط، ألا لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح"^(٢).

وفي نفس الوقت فإن هذه التوجيهات الإلهية لم تقي عرضاً في القرآن الكريم وإنما جاءت كأنها أعراض قائمة لا تنقطع بدليل أنها ما من جزئية تصلح بها الأخلاق إلا حبيت فيها، ونهبت إليها، وما من جزئية تهدم الأخلاق أو تدعو إلى سفاسفها إلا حذرت منها، وبيّنت سوء عاقبتها، وذلك كله يؤكد أن مفكرى المسلمين أقاموا مباحثهم الفلسفية على نصوص دينية لا يمكن أن يأتيها إلا اليقين المطلق.

أما في مجال الحكمة الاجتماعية، فقد وردت سور بأكملها في القرآن الكريم، كمسورة الحجرات، وجاءت آيات كثيرة تتحدث عن التآلف والتعارف والتأزر والتعاون بين الناس جميعاً منها قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَجَلَوْا شِعَانِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أُمْنِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حُلِلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدَّقْتُم مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن

(١) الإمام ابن كثير / المختصر / ج٣ / ص ٣٦٧.

(٢) الحديث ذكره صاحب سبل السلام ج٣ / ص ١٢٨، والميسوط / ج٥ / ص ٢٣.

تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ^(١).

أى تعاونوا على فعل الخيرات وترك المنكرات، وعلى كل ما
يقرب إلى الله تعالى وخافوا عقابه فإنه شديد العقاب لمن عصاه^(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ
وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٣).

يقول د/ محمد غلاب: إن الآيات القرآنية بيّنت طرائق التعامل
بين الناس وما ينبغي أن يفعله كل فرد تجاه الآخرين بدءاً من مفهوم
الذكر والأنثى مروراً بالزوج والزوجة والأبناء والبنات والأحفاد
والجدات والأجداد والجدات، والوالدين والأصدقاء والأعداء، كما بين
علاقة الإنسان بنفسه أيضاً، سواء في ذلك عقله وجوارحه، أم عواطفه
وضميره ومشاعره^(٤).

وفي مجال علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ
فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ
النَّاسِ وَمَنْ يَقْعِلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا﴾^(٥)، فلا خير في كثير مما يُسرّه القوم ويتناجون به في الخفاء،
إلا نجوى من أمر بصدقة ليعطيها سراً، أو أمر بطاعة الله^(٦).

(١) سورة المائدة / آية ٢.

(٢) الإمام الزمخشري / الكشاف / ج ١ / ص ٤٦٨.

(٣) سورة الحجرات / الآية ١٣.

(٤) دكتور محمد غلاب / الإسلام من خلال مبادئه التأسيسية / ص ٢١٧ طبعة
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية / ١٩٦١.

(٥) سورة النساء / ١١٤.

(٦) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج ٥ / ص ٣٨٥.

قل الإمام الطبري : المعروف هو كل ما أمر الله به أو نذب إليه من أعمال البر والخير، والإصلاح هو الإصلاح بين المختصمين، ومن يفعل ما أمر الله به من البر والمعروف والإصلاح طلباً لرضى الله تعالى لا لشيء من أغراض الدنيا، فسوف نعطيه ثواباً جزيلاً هو الجنة، والتعبير "يسوف" إشارة إلى أن جزاء الأعمال الصالحة في الآخرة لا في الدنيا لأنها ليست دار جزاء^(١).

وفى مجال ما يتعلق بتوطيد عرى المودة، واستبعاد وسائل التغريب بين الناس جاء قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٢)، فقد أنكر مشركوا قريش نبوة محمد ﷺ وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فهلا بعث إلينا ملكاً؟ فنزلت الآية : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى اسألوا يا معشر قريش العلماء بالتوراة والإنجيل يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ذلك، فقد أرسلناهم بالحجج والبراهين الساطعة الدالة على صدقهم وبالزبر أى الكتب المقدسة والقرآن المذكر الموقظ للقلوب الغافلة لتعرف الناس الأحكام والحلال والحرام، ولعلمهم يتفكرون في هذا القرآن فيتعتنون^(٣).

أما فيما يتعلق بالقدرات العقلية، فإن القرآن الكريم أعلى من قدر العقل الإنسانى، كما أعلى منزلته في الأمور التي دفعه لبحثها وأحاطه في نفس الوقت بحماية من عنده صيانة له باعتبار أن العقل احدى حجج الله على عباده، وفاقد الشيء لا يعطيه، وفي الحديث الشريف يقول ﷺ :

(١) الإمام الطبري / ج٩ / ص ٢٠١.

(٢) سورة النحل / ٤٣.

(٣) الإمام ابن كثير / مختصر تفسير ابن كثير / ج٢ / ص ٣٣٣.

"رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق وعن الطفل حتى يبلغ"^(١).

وفي الأثر أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"^(٢).

من مجمل ما سبق اتضح أن العلاقة بين الفلسفة الإسلامية والنصوص النقلية قوية لا تنفصم عراها، وهي في نفس الوقت ثابتة لا يمكن أن ينال منها أحد، أما ما يزعمه المستشرقون ومن يجري مجراهم، فإنما يعتبر عن نفسية قلقة تدعوا إلى التعجب، كما تدفع إلى الحذر.

يقول الدكتور / محمود حمدي زقزوق : "لست أدري كيف يستبجح المستشرقون لأنفسهم إطلاق هذه المزاعم من كون الإسلام لا يعرف فكراً متميزاً، أو أن الإسلام يحجر على العقل، مع أن العالم كله لم يعرف ديناً من الأديان يعلى من شأن العقل مثل الإسلام، والقرآن الكريم شاهد على ذلك"^(٣).

وفي تقديري أن أي باحث بخلى عقله من النصوص الدينية الشرعية يسقط في الخرافة متى حاول الحديث عن الفلسفة الإسلامية، لأنها فلسفة أصلية قامت على ذات النصوص الإسلامية أيضاً^(٤).

(١) الحديث رواه الإمام النسائي في سننه / ج ٦ / ص ١٥٦، والإمام أحمد في مسنده ج ٦ / ص ١٠٠.

(٢) دكتور / محمد حامد حسين / من وحى السنة النبوية المطهرة / ص ٤١ / طبعة أولى ١٩٦٣.

(٣) دكتور محمود حمدي زقزوق / الاستشراق الخلفية الفكرية للصراع الحضاري / ص ١١١ / طبعة أولى ١٩٨٣.

(٤) الأستاذ / فوزي نصر خير الله / الفلسفة الإسلامية بين الأصالة والافتباس / ص ٩ / طبعة دار الوفاء ١٩٥١م.

والذي تطمئن إليه النفس أن هناك علاقات متبادلة بين أجزاء الفكر الإسلامي، وكلها تتبع من النصوص الدينية، وتصب في العقل المسلم الذي يقوم بصياغتها، والتركيز على جزئياتها، ثم يعمل على افراغ بعض الألفاظ من محتوياتها متى كانت غير مقبولة، وفي النهاية يضيف عليها مصطلحاً أو معنى إسلامياً ينطبق عليها ويؤثر فيها، كما يؤثر في العقول التي تستوعبها، فما هي أسباب تقدم النتائج الفلسفية الإسلامية في المشرق؟

ذلك ما سوف أعرض له في الفصل التالي إن شاء الله تعالى.

الفصل الثالث

عوامل ظهور الفلسفة الإسلامية
في المشرق الإسلامي

❦ الفصل الثالث ❦

عوامل ظهور الفلسفة الإسلامية

في المشرق الإسلامي

كانت مكة المكرمة هي نقطة البداية التي شاع فيها نور الإسلام، ثم انتشر إلى أرجاء المعمورة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً قال تعالى : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾^(١). وقال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(٢).

فكما أوحى الله تعالى إلى الرسل قبل رسولنا محمد ﷺ أوحينا إليك يا محمد قرآناً عربياً معجزاً، بلسان العرب لا ليس فيه ولا غموض، لتُنْذِرَ بهذا القرآن أهل مكة ومن حولها من البلدان، وهم سائر أهل الأرض، وأم القرى : أصل القرى وهي مكة، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها، لأن فيها البيت ومقام إبراهيم – عليه السلام – والعرب تسمى أصل كل شيء : أمه، حتى يقال : هذه القصيدة من أمهات قصائد فلان ومن حولها من أهل البدو والحضر وأهل المدر^(٣).

(١) سورة الأنعام / الآية ٩٢.

(٢) سورة الشورى / الآية ٧.

(٣) الإمام الفخر الرازي / مفاتيح الغيب / م٧ / ج١٣ / ص ٨٠، ٨١، وكذلك م ١٤ / ج٢٧ / ص ١٤٦، ١٤٧.

ثم انتشر النور الإسلامي في كل مكان، وباتت النصوص الإسلامية هي الزاد الأول الذي يتزود منه كل مفكر، وبات أمر استعمال العقول قاعدة عامة دعت إليها النصوص الشرعية، من ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُخَيِّئُ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢)، وأيضاً قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣) وأيضاً قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾^(٤) وأيضاً قوله تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُوا اللَّهَ أَوْفُوا ذِكْرَكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٦) وأيضاً قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يُمْسَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(٧)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ

(١) سورة البقرة / الآية ٧٣، ومن ثم وردت مادة عقل في القرآن الكريم حوالى ثمانية وأربعين مرة / راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / الشيخ / محمد فؤاد عبد الباقي / مؤسسة مناهل العرفان / بيروت / ص ٤٦٨، ٤٦٩.

(٢) سورة البقرة / الآية ٢١٩.

(٣) سورة الأنعام / من الآية ٥٠، وكذلك وردت مادة - فكر - في القرآن الكريم حوالى ثمانية عشر مرة / راجع المصدر السابق ص ٥٢٥.

(٤) سورة النساء / من الآية ٧٨.

(٥) سورة الأنعام / من الآية ٦٥ وكذلك وردت مادة - فقه - في القرآن الكريم حوالى عشرون مرة تقريباً / المصدر السابق / ص ٥٢٥.

(٦) سورة الأنعام / من الآية ١٥٢.

(٧) سورة هود / الآية ٢٤، وكذلك وردت مادة - ذكر - في القرآن الكريم ما يزيد على ثلاثمائة مرة تقريباً / المصدر السابق / ص ٢٧٠-٢٧٥.

الْمُسْلِمِ وَالْذَّهَارِ لَا يَتَاتِي لِأُولِي الْأَلْبَابِ^(١)، وقوله تعالى :
﴿وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلْيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾^(٢)، وقوله تعالى :
﴿كُلُوا وَارْزُقُوا اتَّعَمَّكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾^(٣).

بل إن تلك الآيات دفعت العقل الإنساني دفعا متواصلا إلى التفكير الجاد والهادف في الكون كله، أرضه وسماؤه، بره وبحره وجوه، أناسه وحيواناته ونباتاته وجماداته، والعلاقات المتبادلة بين هذه الكائنات كلها ليصل العقل في النهاية إلى أن لها جميعا إلها واحدا له أعلى صفات الجلال والجمال والاکرام.

وأن هذا الخالق العظيم، قد أمرنا أن نتفكر فيها ونتدبر شئونها، ويدرك العلاقات المتبادلة بينها، وإدراك تأثير هذه العلاقات في ذات الكائنات وهو معنى التفلسف بالمصطلح الفني الحديث، حيث يعرف بأنه : إدراك العلاقات المتبادلة بين الأشياء، وتأثير بعضها في بعض على نحو متمايز^(٤).

ويعرفه شيخنا الدكتور / "عوض الله حجازي" بأنه : ربط ما بين الكائنات في سلسلة عقلية لها بداية ونهاية" وعرفه أيضا بأنه : إدراك الأشياء بما هي عليه، ومعرفة ما بينها من علاقات^(٥).

(١) سورة آل عمران / آية رقم ١٩٠.

(٢) سورة إبراهيم / من الآية رقم ٥٢، وكذلك وردت مادة - لب - في القرآن الكريم حوالي ستة عشر مرة تقريبا / المصدر السابق / ص ٦٤٤.

(٣) سورة طه / آية ٥٤.

(٤) د / محمود السيد أبو غدة / التفلسف مقاييسه ودرجاته / ص ١٧، طبعة دار الفؤاد ١٩٧١م.

(٥) د / عوض الله حجازي، و د / محمد السيد نعيم / في تاريخ الفلسفة اليونانية ص ١٣ ط ٢ / ١٩٧١م.

ويقول بعض الباحثين عن التفلسف: أنه عملية عقلية متوازنة يقوم بها المفكر لمعرفة حقائق الظواهر وأصولها، مع ضرورة فحص العلاقات التي تربط بين أجزائها^(١)، ولا يقوم بهذا النوع من التفكير إلا من سلك طريق التأمل العقلي الحر بخصوص بحثه، والزم نفسه السير فيه، بغية الوصول إلى معارف صحيحة.

والتفلسف بمثابة "التفسير الفلسفي للظواهر وحقائق الأشياء في صورة تجعل تلك الموضوعات غاية في الوضوح مع الصدق واليقين"^(٢) بحيث تعتبر تلك العملية العقلية هي المعبر الحقيقي عن القدرات العقلية التي يتمتع بها ذلك المفكر ويتميز بها عن غيره.

وما دام التفلسف عملية عقلية خالصة، فإن أفراد الجنس البشري جميعاً يقومون به، كل حسب قدراته العقلية، وملكوته الفكرية التي زوده الله - تعالى - بها وخلقها متمكناً من استعمالها، حيث يقوم بها الإنسان ذاته ومن ثم يكون التفلسف قاسماً مشتركاً بين كافة أجناس البشر وإن اختلفت درجاته ومستوياته، ولا يتخلف عن القيام بهذا النوع من التفكير إلا من شغلته لذته وشهوته عن البحث والتفكير، أو كان ناقص العقل بعيداً عن التأمل والنظر^(٣).

ونظراً لكون بني البشر يتفاوتون في المدارك والقدرات العقلية والملكات واختلافهم في الألوان والألسنة، فإن عملية التفلسف تكون

(١) الدكتور / هناء محمود اليوسف / الفلسفة العامة / ص ٢٥ ط أولى ١٩٧١ م / طبعة دار المعرفة بتونس.

(٢) الشيخ / أمين محمد الأنطاكي / نظرات في الفلسفة ص ٩ طبعة أولى دار الأنصار ١٩٣١ م.

(٣) الدكتور / عوض الله جاد حجازي، و د / محمد السيد نعيم / في تاريخ الفلسفة اليونانية / ص ٦ ط ٢.

نسبية من ناحية التعمق والتسطح، كما تكون نسبية من ناحية الإجابة للعملية العقلية من ناحية العمق أو التهميش، ويرجع ذلك لاختلاف بنى الإنسان في الملكات والقدرات والإمكانات^(١).

ومن ثم فإن مفكرى المسلمين قد نهضوا إلى البحث العقلى الحر، وبذلوا فيه جهداً كبيراً، وبعضه كان استقلالاً متميزاً، بحيث لا يمكن أن يشاركهم فيه أحد أو ينازعهم فيه منازع، وذلك مما يؤكد أصالة الفكر الفلسفى الإسلامى.

وبعضه - وهو القليل - كان ترجمة أمينة لبعض ملامح الفكر اليونانى في الجانب الذى لا يتعلق بالعقيدة، ولا يصادم الأصول الشرعية، وفي نفس الوقت لا تقع له الممانعة، وبعض أخير كان صورة مختلطة بين الفكر اليونانى والمحتوى الإسلامى، بمعنى أن يلجأ المفكر المسلم إلى استخدام بعض المصطلحات في المذاهب الأخرى ثم يفرغها من محتواها اليونانى، ويدخل بدلاً منه محتوى إسلامياً خالصاً، كاستخداماتهم لألفاظ: الجوهر والعرض، والهولى، وغير ذلك

إذا المفكر المسلم لم يقبل تراث الآخرين على ما هو عليه، وإنما نظر إليه نظرة واعية مدققة حكيمة، تقوم على الموازنة بين المعروف، ثم انتقاء المناسب طبقاً لقواد وأصول الشريعة الإسلامية، ومن ثم ظهر لهم فكر فلسفى خالص أطلقوا عليه اسم الحكمة تارة، أو المباحث الميتافيزيقية تارة أخرى، وربما أطلقوا عليه غير ذلك من الإطلاقات

(١) د / محمد حسيني موسى محمد الغزالي / التفلسف : مفهومه، بواعثه، خصائصه / ص ٢٨ طبعة أولى ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢ ل بسبوني للطباعة والنشر.

الخاصة بهم^(١). لكنها في مجملها تمثل القرارات الكاشفة عن عقلية متميزة، استطاعت توظيف قدراتها في خدمة النصوص التي جاءتهم من عند المولى - جل علاه.

وهذا الذي أنتجته عقولهم صار خالصا لهم، ومن ثم يوصف بأنه فكر إسلامي خالص، كما يوصف بأنه فلسفة إسلامية مستقلة، ومن ثم ظهرت ملامح تلك البذور الفلسفية في الحواضر الإسلامية، لكنها كانت في المشرق الإسلامي أسبق منه في المغرب الإسلامي، وذلك يرجع لعدة عوامل من أبرزها :

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة راجع / د / محمد حسيني موسى / المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية حيث تعرض لذكر هذه الوجوه.

٢ العامل الأول : القرب المكاني

المعلوم القطعي أن سيدنا رسول الله - ﷺ - قد ولد في مكة وأنه نشأ بها، وأن ذلك كان عام ٥٧١ م^(١)، وأم هذا الميلاد المبارك في جزيرة العرب قد صحبه بداية ابلاغ تلك الدعوة من داخل ذات الجزيرة، بل ومن ذات قريش نفسها، وعلى الأخص العائلة الأولى، والخلية المتميزة لقوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

فقد أمر الله تعالى رسوله - ﷺ - بتبليغ الرسالة منذراً ومخوفاً أقاربه الأقرب فالأقرب من عذاب الله - تعالى - أن لم يؤمنوا، فقد روى أنه - ﷺ - قام حين نزلت عليه هذه الآية قال : يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا صفة عمه محمد لا أغنى عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت محمد سلين ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا، قال المفسرون : وإنما أمر بأنذار أقاربه أولاً لئلا يظن أحد به المحابه والطف معهم، فإذا تشدد على نفسه وعلى أقاربه كان قوله أنفع، وكلامه أنجع^(٣).

(١) د / محمود زيادة / العرب وظهور الإسلام / السيرة النبوية ص ٢٩٨ دار الطباعة الفنية ١٩٧١م، ويذهب غيره إلى أن هذه الولادة المباركة قد تمت عام ٥٧٠ ميلادية والتحقيق ما ذهب إليه الأول طبقاً للتقويم الفلكي المعمول به، ولمزيد من التفاصيل راجع د / محمد حسين هيك / حياة محمد - ﷺ - ود / فوزي محمد نصار / السيرة النبوية ص ١١٣ وما بعدها تحقيق حسام المقدسي / تقديم د / عبد الحليم محمود / طبعة ١٩٧١م.

(٢) سورة الشعراء / ٢١٤ / ٢١٥.

(٣) الإمام الطبري / ج ١٩ / ص ٧٨، ومختصر بن سثير / ج ٢ / ص ٦٦٠.

وكان هذا المولد المبارك في ذات المكان بمثابة الشعلة التي أضاعت سماء المشرق أولاً، ثم امتدت منه إلى المغرب ثانياً، وبالتالي رسالة رسول الله - ﷺ عامة وخالدة، خاتمة رغم أن نقطة انطلاقها كانت محددة أنها كالشمس تسطع من نقطة صغيرة، ثم ما تلبث أن تغطي العالم كله لقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا خَافَةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

أى وما أرسلناك يا محمد للعرب خاصة وإنما أرسلناك لعموم الخلق مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم، ومنذراً للكافرين من عذاب الجحيم^(٢)، وأيضاً قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٣) أى وما أرسلناك يا محمد إلا رحمة للخلق أجمعين وفي الحديث الشريف : "إنما أنا رحمة مهداة" فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة^(٤).

ومن الثابت أيضاً أن أغلب من دخلوا للإسلام أبان المرحلة الأولى من عمر تبليغ الرسالة المحمدية الخالدة، كانوا من أهل الجزيرة العربية أولاً والبلدان المجاورة لها ثانياً^(٥)، وأن هؤلاء الرواد الأوائل كانت لهم تعاملات مع أهل الجزيرة العربية، كما كان لقريش تعاملات تجارية عبرت عنها رحلتا الشتاء والصيف قال تعالى مصوراً ذلك

(١) سورة سبأ / الآية / ٢٨.

(٢) راجع العلامة أبو السعود / تفسير أبو السعود / جـ ٤ / ٢٣١.

(٣) سورة الأنبياء / ١٠٧.

(٤) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / جـ ١١ / ص ٣٤٥.

(٥) د/ عبد الرحمن محمد المنوفى / الدولة الإسلامية في مراحلها الأولى ص ٤٤، طدار التوفيق ١٩٨٥.

﴿إِيلَافَ قُرَيْشٍ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ
الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(١).

وقد أكرم الله تعالى قريش بنعمتين عظيمتين من نعمه الكثيرة هما :
نعمة الأمن والاستقرار، ونعمة الغنى واليسار، فكانت رحلة الشتاء إلى
اليمن، وفي الصيف إلى الشام، حيث كانوا يسافرون للتجارة، ويأتون
بالأطعمة والثياب، ويربحون في الذهاب والإياب، وهم آمنون مطمئنون
لا يتعرض لهم أحد بسوء، لأن الناس كانوا يقولون : هؤلاء جيران بيت
الله وسكان حرمة، وهم أهل الله لأنهم ولادة الكعبة، فلا تؤذوهم، ولا
تظلموهم، ولما أهلك الله أصحاب الفيل، ورد كيدهم في نحورهم ازداد
وقع أهل مكة في القلوب، وازداد تعظيم الأمراء والملوك لهم، فازدادت
تلك المنافع والمتاجر.

فلذلك جاء الامتنان على قريش، وتذكيرهم بنعم الله ليوحده
ويشكروه، فإن لم يعبدوه لسانر نعمه، فليعبده من أجل إيلافهم الرحلتين
التي هي من أظهر نعمه عليهم، لأنهم في بلاد لا زرع فيها ولا ضرع،
وقد كانوا يسافرون آمنين لا يتعرض لهم أحد، ولا يغير عليهم أحد، لا
في سفرهم ولا في حضرهم، وذلك ببركة دعوة أبيهم إبراهيم الخليل -
عليه السلام - حيث قال : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ وقوله :
﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أفلا يجب على قريش أن يفردوا بالعبادة هذا
الإله الجليل، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف؟^(٢).

(١) سورة قريش / ١ : ٤.

(٢) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج ٢٠ / ١٨٧، والإمام الرازي /
مفاتيح الغيب / ج ٣١ / ص ٩٦.

وكان من طبيعة هذه التعاملات وقوع العديد من الاحتكاكات المباشرة بين أصحاب الدعوة الوليدة، وبين أولئك المتعاملين مع القرشيين وغيرهم، وقد تنامت هذه التعاملات وتكاثرت أشكالها بحيث لم يعد غريباً على أحد إدراك طبيعة هذه التعاملات^(١).

وذلك كالحال مع أهل فارس الذين كان منهم سيدنا سلمان الفارسي الباحث عن الحقيقة - رضى الله عنه - وأن هؤلاء الذين مرّ ذكرهم قد عرفوا خبر النبوة في الواقع المعاش من خلال السلوكيات التي طالعوها أو عن طريق الأصناف الذين كان لهم علم سابق بتبشير النبوة الخاتمة، وكانوا يبشرون بقربها في حلهم والترحال، كالحال مع ورقة بن نوفل، وزيد بن عمر بن نفيل، وقس بن ساعدة الأيادي، وكثير غيرهم ممن جاء ذكرهم في كتب السير والتواريخ، كما كان منهم الرهبان الذين ظهر لديهم ولع شديد لكتبهم، معرفة بها، واستظهاراً لها على ما يريدونه منها، بغية معرفة ما فيها وإذاعته، والإعلان عنه، وما يتعلق بأمر النبوة الخاتمة، ورسولها الكريم سيدنا محمد ﷺ^(٢).

ونظراً لقرب بلاد فارس والروم ومصر من جزيرة العرب، فقد كان المؤمنون بالله تعالى مع سيدنا محمد ﷺ من أهل تلك البلاد يترددون على مهبط الوحي، موئل النبوة حتى يتعرفوا أوامر الشريعة، وطرائق الحقيقة كما يتناولون قضايا وأحكام كل منهما، بجانب التي بات بحثها أمراً شرعياً واجباً، أما إهمالها، فقد أمسى مخالفة شرعية لا يمكن قبولها أو التهاون فيها، وقد أبلى أهل الإسلام في بيان ذلك البلاء الحسن^(٣).

(١) أ / خالد محمد عبد البديع / تاريخ الأمة الإسلامية / ج ١ / ص ٩٧.

(٢) راجع د / محمود زيادة / العرب وظهور الإسلام / ص ١٨٣ كالحال مع بحيري الراهب الذي أخبر عن نبوة سيدنا محمد ﷺ.

(٣) لأن ذلك من خصائص الأمة الإسلامية. قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ سورة النحل / ١٢٥، وهذا الأمر لكل المسلمين أينما كانوا وعلى أي ناحية جاؤوا.

إن هذا القرب المكاني من مهبط الوحي الذي برز في المشرق قد ساهم في تعرف هؤلاء على التفقه في أمور دينهم، ومعرفة قضايهم العقديّة وطرائق ممارسة التكاليف الشرعية ولن يكون ذلك ممكناً إلا بالرجوع إلى منطقة الوحي في مكة والمدينة وما بينهما حال حياة رسول الله ﷺ.

حتى إذا استقرت النفوس وهدأت الخواطر، واستراحت في رحب الإيمان والقلوب، واستتارت الضمائر انطلق هؤلاء وأولئك إلى تعاليم الإله يطبقونها على أنفسهم سلوكاً متكاملًا بعد أن تمكنت من قلوبهم إيماناً واعتقاداً ونصوصاً، ومن ثم فقد كان كذلك كله أعظم الأثر^(١).

على أن ذلك الأثر المكاني، والتعدد المستمر قد سمح لهم بالنظر المتواصل في آلاء الله - تعالى - المتعددة، ونعمه التي لا تنقطع، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(٣).

أى أن الله تبارك وتعالى من على عباده وخلقهم جميعاً فأعطاهم ما يحتاجون إليه، وما يصلح أحوالهم ومعاشهم مما سألوه بلسان الحال أو المقال، وإن تعدوا نعم الله عليكم لا تطيقوا حصرها وعدّها، فهي أكبر وأكثر من أن يحصيها عدد، فالإنسان من طبعه المبالغة في الظلم

(١) إذا هناك فرق كبير بين الإيمان ومحله القلب والمعرفة ومحله العقل، كما أن الإيمان حق الله، أما المعرفة فحق الحياة.

(٢) سورة النحل / الآية ١٨.

(٣) سورة إبراهيم / الآية ٣٤.

والجحود، ظالم لنفسه بتعديه حدود الله، جحود لنعم الله فهو ظلوم في الشدة يشكوا ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع^(١).

ويقول الشيخ سيد قطب - رحمه الله تعالى - : "وهنا يفتح كتاب الكون على مصراعيه، فتتطق سطوره الهائلة بنعم الله التي لا تحصى : السموات، والأرض، الشمس، والقمر، الليل والنهار، البحار والأنهار، الأمطار والثمار، هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار، ولكن البشر لا ينظرون ولا يقرعون، ولا يتدبرون ولا يشكرون، ان الإنسان لظلوم كفار، يجعل لله أندادا وهو الخالق الرزاق مسخر الكون لهذا الإنسان، والمشهد الهائل المعروض هنا لأيدى الله وآلته، تسير فيه خطوط الريشة المبدعة، أفكل هذا الكون الهائل مسخر لذلك المخلوق الصغير؟ السموات ينزل منها الماء، والأرض تتلقاه، ثم تخرج به الثمار، والبحر تجري فيه الفلك بأمر الله مسخرة، والأنهار تجري بالحياة والأرزاق في مصلحة الإنسان، والشمس والقمر دائبان لا يفتران، والليل والنهار يتعاقبان، أفكل ذلك للإنسان ثم لا يشكر ولا يذكر؟!؟"^(٢)

ومن أنعم الله تعالى : السماء باتساعها، وتعدد أنواعها، وتكاثر أخبارها، وكثرة سكانها، وفوق ذلك سمكها وكونها مرتفعة واقفة لا تسقط بإذن الله. من ذلك قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِإِذْنِ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾^(٣) وقوله تعالى : ﴿أَقْلَمُ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾^(٤) وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي

(١) الإمام الرازي / مفاتيح الغيب / ج ١٩ / ص ١١١.

(٢) الإمام الشيخ / سيد قطب / في ظلال القرآن الكريم / ج ١٣ / ص ١٦٦.

(٣) سورة الذاريات / الآية ٤٧.

(٤) سورة ق / الآية ٦.

السَّمَاءُ بَرُوجًا وَزَيَّاتُهَا لِلنَّاطِرِينَ^(١)، «وَزَيَّاتُ السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِجَظًا»^(٢)، وقوله تعالى «وَيُمْسِكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بَيَّانَتِهَا»^(٣).

ومن ثم فالمولى عز وجل يظهر لعباده من دلائل قدرته ووحدانيته الدالة على عظمة رب العالمين فيقول : أفلم ينظروا نظر تفكر واعتبار إلى السماء في ارتفاعها واحكامها فيعلموا أن القادر على إيجادها، قادر على إعادة الإنسان بعد موته، كيف رفعناها بلا عمد وزيناها بالنجوم، وما لها من شقوق وصدوع، والأرض وما يحيط بها من الهواء والماء بالنسبة لها كحلقة صغيرة في فلاة^(٤).

ثم أنه جل شأنه يبين أن هذه السماء مع كبرها واتساع حجمها وامتداد أجزائها، وتكاثر سكانها يوم يشاء قبضها يقبضها لا يمنعها من ذلك مانع، وأن هذا القبض سيكون على صورة تسترعى النظر، وتستدعي التأمل، وتحرك على التفكير الجاد العميق، قال تعالى : «يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعِندَ عَلَيْنَا إِذَا كُنَّا فَاعِلِينَ»^(٥).

واذكر يا محمد لهم يوم نطوى السماء طيا مثل طي الصحيفة على ما كتب فيها، قال ابن عباس : كطي الصحيفة على ما فيها، واللام

(١) سورة الحجر / الآية ١٦.

(٢) سورة فصلت / الآية ١٢.

(٣) سورة الحج / الآية ٦٥.

(٤) ابن كثير / مختصر تفسير ابن كثير / ج ٣ / ص ٣٧٢، الإمام الألويسي / ج ٢٦ / ص ١٧٨.

(٥) سورة الأنبياء / الآية ١٠٤.

في "الكتاب" بمعنى على "كما بدأنا أول خلق نعيده" فنحشرهم خفاة عراة غرلا على الصورة التي بدأنا خلقهم فيها وهذا وعد مؤكد لا يخلف ولا يبدل لازم علينا إنجاز به الوفاء به إنا كنا فاعلين أى قادرين على ما نشاء^(١).

ولا شك أن ذلك يدفع المفكر إلى محاولة التعرف على ما في هذه السموات وهل تربطها بالأرض جاذبية، أم أنها مرفوعة على عمد غير مرئية، وبخاصة أن بعض الظواهر القرآنية قد أرشدت إلى ذلك. قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾^(٢).

فالله - عز وجل - خلقها مرتفعة البناء، قائمة بقدرته، لا تستند على شيء حال كونكم تشاهدونها، وتنتظرونها بغير دعائم، وذلك دليل وجود الخالق المبدع الحكيم، ثم علا فوق العرش علواً يليق بجلاله من غير تجسيم ولا تكييف ولا تعطيل، وذلك الشمس والقمر لمصالح العباد، كل يسير بقدرته تعالى إلى زمن معين هو زمان فناء الدنيا، يصرف بحكمته وقدرته أمور الخلق وشئون الملكوت من إيجاد وإعدام، وإحياء وإماتة، وغير ذلك^(٣).

والمفكر المسلم لا يمكنه أن يقرأ تلك النصوص من غير محاولة التأمل فيها وإلا معناه أنه ألغى عقله وخالف نصوص ربه، إذا لا مناص أمامه من استعمال عقله، والتأمل في ملكوت ربه، والعمل الجاد الهادف

(١) الإمام القرطبي / ج ١١ / ص ٣٤٥.

(٢) سورة الرعد / الآية ٢.

(٣) الإمام أبو السعود / ج ٣ / ص ٩٧، والبحر المحيط / ج ٥ / ص ٣٦٧.

لخدمة النصوص الشرعية، ومن ثم يصير مفكراً خالصاً، وفيلسوفاً مستقلاً، كذلك يتحول ذات المفكر إلى سائل يطرح تساؤلاته بالنسبة للنصوص، ثم يلقي بتلك التساؤلات بين يدي رسول الله ﷺ فيأتيه الجواب من عند الله تبارك وتعالى. من ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَآتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢).

كما كانوا يسألون رسول الله ﷺ في الأمور التي تتجاوز السبع سموات سواء باعتبار الزمان، أو باعتبار المكان، دليل ذلك، إجابة رسول الله ﷺ لهم في قوله ﷺ: كان الله ولا شيء معه، وكان عرشه على الماء وكتب كل شيء في الذكر^(٣).

في نفس الوقت جاءت آيات قرآنية تتحدث عن الليل، وأخرى تتحدث عن النهار، وثالثة تصف حال الليل وحال النهار مع بعضهما، فمن الأول قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لُجْلُجٍ﴾^(٤)، وقوله

(١) سورة البقرة / الآية ١٨٩.

(٢) سورة الإسراء / الآية ٨٥، وقد وردت خمس عشرة آية في القرآن الكريم تقريباً تبدأ بقوله: "يسئلونك... قل... في سور: سبع في البقرة وواحدة في المائدة، ومرتان في الأعراف وواحدة في الأنفال والإسراء والكهف وطه والنازعات، راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٣٣٧ باب المين.

(٣) رواه البخاري في صحيحه / ج ٣ / ص ١١٦٦.

(٤) سورة القصص / ٧١.

تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾^(١)، وقوله : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَسُرُّ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾^(٢).

ومن النوع الثاني - الآيات التي تتحدث عن النهار - قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ لَهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾^(٣)، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَقْلًا تُبْصِرُونَ ﴾^(٤)، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾^(٥).

ومن النوع الثالث : قوله تعالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(٦)، وقوله تعالى : ﴿ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي النَّبْصَارِ ﴾^(٧)، وقوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾^(٨)، ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾^(٩).

(١) سورة الإنسان / ٢٦.

(٢) سورة الفجر / ٤.

(٣) سورة يونس / ٤٥.

(٤) سورة القصص / ٧٢.

(٥) سورة المزمل / ٧.

(٦) سورة القصص / ٧٣.

(٧) سورة النور / ٤٤.

(٨) سورة يس / ٣٧.

(٩) سورة يس / آية ٤٠، راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم فقد حصر آيات الليل والنهار لمن أراد المزيد.

فهل يقف المفكر المسلم أمام تلك الظواهر التي يشاهدها على مدار عمره ليلا ونهارا دون أن يتحرك عقله، فتلد أفكاره بنتا تنسب فيما بعد إليه؟ ما أظن عاقلا يمنع ذلك، بل إن العقل الصحيح يقر بضرورة وقوع هذا من المفكر المسلم.

في نفس الوقت تحدثت آيات القرآن الكريم عن النباتات وأنواعها وتقسيماتها^(١)، ثم علاقة النباتات بالمياه والأرض التي سقطت فيها النباتات أو هطلت عليها من السماء القطرات، قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ وَجِثَاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صَبْوَانٌ وَغَيْرُ صَبْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقْضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٢).

أى في الأرض بقاع مختلفة متلاصقات قريب بعضها من بعض، قال ابن عباس أرض طيبة، وأرض سيخة تنبت هذه، وهذه إلى جنبها لا تنبت، وبساتين كثيرة من أشجار العنب، وفي هذه القطع المتجاورة أنواع الزروع والحبوب والنخيل والرطب، منها ما ينبت منه من أصل واحد شجرتان فأكثر، ومنها ما ينبت منه شجرة واحدة، والكل يسقى بماء واحد، والتربة واحدة ولكن الثمار مختلفات الطعوم.

قال الإمام الطبري: الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ والكمثرى والعنب الأبيض والأسود، بعضها حلو، وبعضها حامض، وبعضها أفضل من بعض مع اجتماع جميعها على شرب واحد، وهذه علامات باهرة ظاهرة لمن عقل وتدبر^(٣).

(١) منها الماء المالح الأجاج، ومنها العذب الفرات، ومنها ماء التطف يصب في الأرحام، وكلها من أنعم الله - عز وجل -.

(٢) سورة الرعد / الآية ٤.

(٣) الإمام سيد سابق / في ظلال القرآن الكريم / ج ٥ / ص ٧٢.

فهل سيقراً المفكر المسلم تلك الآيات دون أن يستريحه التفكير في طبيعتها ومكوناتها، وظروفها، والعلاقات المتبادلة فيها، لم يستعمل عقله وأجهد فكره، حتى يرضى ربه، ويخدم دينه، ثم يتجلى عليه المولى الكريم فيرزقه من أفضاله توفيقاً في العلم، وبركة في المعرفة، أظنك ستقف معي ملوحاً أن هذا هو الذي دفع المفكر المسلم إلى أن يكون فيلسوفاً وقد كان ذلك كله يتم في المشرق الإسلامي أولاً، على يد رسول الله ﷺ مطالعة للنصوص، وإجابة للأسئلة.

وعلى يد صحابة رسول الله ﷺ متابعة وتزكية، ثم على أيدي الخلفاء الراشدين، تنظيم العلماء، وترتيباً للأرزاق، وتكريساً للجهود بدليل أن سيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أول من أنشأ الدواوين، وأجرى العمال ووضع الأرزاق التي تجري عليهم طبقاً لطبيعة الأعمال التي يقومون بها^(١).

ثم جاء خلفاء بني أمية، وخلفاء بني العباس فأكثرُوا من هذا الطريق، وأكثرُوا أيضاً من استثماره إلى أبعد مدى، ومن ثم ظهرت بواكير الفلسفة الإسلامية في المشرق الإسلامي بصورة أكثر وضوحاً وتقدماً عنه في المغرب الإسلامي.

(١) لمزيد من التفاصيل راجع / عبقرية عمر / للعقاد، وكذلك للشيخ / محمد عبد النبي إبراهيم الوراق / الخليفة الثاني عمر وجهوده الإصلاحية ص ٢٢٥ ح ١ / طبعة دار مراد سنة ١٩٣٧ م.

العامل الثاني : السبب الزماني

الزمان هو الوعاء الطبيعي الذي تجري فيه الأحداث، وما من حدث إلا ويقع في زمان، ويتم ذلك الحدث داخل مكان بعينه، سواء أكان ذلك المكان ضيقاً جداً، أم متسعاً إلى أبعد مدى باعتبار أن هذه العناصر الثلاثة تتكامل فيما بينها^(١).

ومتى وقع زمان بعينه تم فيه حدث بذاته، والمعروف أن الله جل علاه قد بعث نبينا محمد ﷺ في مطالع العقد الثاني من القرن السابع الميلادي ٦١٠م، حيث كانت سنة ﷺ قد بلغت الأربعين فنيئ، وفي الأثر : ما من نبي نبي إلا وهو في الأربعين عدا ابن مريم، وقد ظل رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً في مكة يغرس في الناس أصول العقيدة الإيمانية، لم يكلفهم بشيء من التكليف الشرعية سوى النذر اليسير الذي أمره الله سبحانه وتعالى أن يكلفهم به.

ثم ولت تلك الأعوام فخرج مهاجراً بإذن الله - تعالى - وأمره إلى المدينة المنورة التي استنارت برسول الله ﷺ وطابت به فصارت تدعى طيبة، وكانت يثرب، فصارت تدعى المدينة المنورة^(٢)، فما مكث رسول الله ﷺ هناك عشر سنوات كان الوحي يأتيه على الدوام بالقرآن الكريم، كما كان يلهم السنة النبوية المطهرة إلهاماً من عند الله، وكان ذلك كله في فترة زمنية لم تتجاوز ربع قرن^(٣).

(١) والعناصر الثلاثة هي : الزمان، والمكان، والحدث، وربما استعيرت الحركة كبديل عن الحدث / راجع الأصول العامة في الفلسفة اليونانية / د. رمزي حسن رزق ص ١٣٨، ١٣٩ ط أولى سنة ١٩٦٧.

(٢) أ. جمال الدين أبو طالب / في رحاب الحرمين ص ١٩٣ / ط ٢ ١٩٦٢.

(٣) حيث قضى رسول الله ﷺ في مكة ثلاث عشر عاماً، وفي المدينة عشرة أعوام هي مجمل سنوات رسول الله ﷺ بعد الهجرة وجملة الوقتين - مكة والمدينة - ثلاثة وعشرون عاماً

وقد أمعن أصحاب رسول الله ﷺ في التعرف على أهداف الوحي المنزل وغاياته في الوقت الذي لم يكن غيرهم من أهل البلدان الأخرى قد تعرف على الإسلام، اللهم إلا من خلال المعلومات المنقولة عن نبيه أو تعاليمه، بعضها مما قصد به الإساءة للإسلام، كالحال مع اليهود الخبثاء الذين حاولوا تعبئة الشعور العام بالعداء للإسلام والمسلمين وكذلك متعصبوا المسيحية المتطرفين الذين ظلوا يكيّدون للإسلام ويصورونه على أنه سلبية فتط^(١)، وبالتالي فقد كانت هذه الأفكار ناقصة مشوهة غير صحيحة.

في نفس الوقت كانت هناك جملة من الظلمات تحيط بالمجتمعات الإنسانية في مواطنها المختلفة بل إن هذه التجمعات السكانية كانت شبهاً بالظلمات تغطي كل صورة ضوئية يمكن تلمس أحد جوانبها الحقيقية من خلالها، وبالتالي فقد كانت فترة طويلة سادت فيها ظلمات عديدة عرفت لدى دارسي الفكر الإنساني باسم العصور الوسطى^(٢).

على أن هؤلاء الأوائل في الإسلام كانوا كلما أمعنوا النظر في كتاب الله تعالى، وحاولوا التأمل في آياته ازدادوا إيماناً على إيمانهم، وحكمة فوق حكمهم، حتى إذا ارتقت مداركهم الفكرية وارتفعت إلى أعلى مكان، وهم في كل حالاتهم ينقلون هذه المفاهيم إلى من يتعاملون معهم ويراجعونها فيما بينهم مما ساعد على إيجاد أفكار إبداعية بالنسبة إليهم كانت كلها تعبيراً ونتائج لما أقررتهم التأملات العقلية الخالصة في النصوص الدينية الإسلامية.

(١) أستاذ: محمد نجيب طاحون / كليات المستشرقين / ص ٤٥ / الدار الشرقية ١٩٤٣م.

(٢) وقد امتدت تلك العصور الوسطى ابتداءً من القرن الثالث الميلادي حتى نهاية القرن الثاني عشر، فكانت مدتها تسعة قرون متواصلة.

وكان هؤلاء المتعاملون مع النقل المنزل من المسلمين يحرصون على مدارسة ذلك النتاج العقلي المتميز وتدريبه أيضاً حتى صار من الطبيعي أن تظهر بينهم أفكار فلسفية خالصة تجوب المشرق الإسلامي كله، وتظهر في وقت مبكر جداً عن غيره من بلاد الإسلام الأخرى التي لم يقدر لها وجود مثل ذلك النشاط العلمي بعد وجود القاعدة الإيمانية^(١).

في نفس الوقت فإن هذا السبق الزماني للمشرق الإسلامي في الدخول إلى رياض الإسلام قد حقق معادلة تمكن فيها الأوانل الذين استطاعوا التناول الدائم للقضايا التي عرضتها الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية على سبيل الإجمال أو التفصيل ومحاولة إيجاد حلول لبعضها مما عرضه النقل المنزل.

وكان العديد منهم يحرص كل الحرص على بذل طاقاته في هذا الجانب ما أمكنه إلى ذلك من سبيل، بناء عليه ظهرت رؤوس فكرية كان لها الأثر الأكبر في صياغة العديد من القضايا الفلسفية وبخاصة تلك التي تتميز بها المباحث الإسلامية، ولا شك أن ذلك كله قد أفرز العديد من النتائج التي فتحت الباب لظهور المستجدات العلمية، كما عرضت للكثير من المسائل المعرفية، ونهت للأكثر من المشكلات التي طلب الشارع الحكيم من العقل الإنساني أن يجتهد في تناولها بكل ما أتيج له من إمكانيات، وأن يبحث لها عن حلول عملية تكون قابلة للتطبيق وغير مناهضة لأحكام العقل الصحيحة^(٢).

(١) أستاذ / غريب محمد أبو الوفا / من التراث الإسلامي / ص ٧١ / طبعة دار توفيق ١٩٦٩.

(٢) أستاذ / بركات عبد العظيم بركات / دراسات قرآنية / ص ١٢١ / طبعة دار مراد ١٩٧٢م.

من ثم فإن ظهور المبادئ الفلسفية الإسلامية في المشرق الإسلامي قد سبق ظهورها في المغرب الإسلامي بفترة تقترب من القرن، وذلك أمر طبيعي فرضه القرب الزماني الشديد من أنوار النبوة الخاتمة بالنسبة للمشرق الإسلامي على وجه الخصوص^(١).

وقد حفلت كتب التراجم، وكتب السير بجانب تاريخ الفكر الإسلامي ببيان هذا الشأن، والتركيز على أن القرب الزماني من مكان النبوة الخاتمة كان أحد العوامل الهامة التي أدت إلى سبق الفلسفة الإسلامية في المشرق الإسلامي عن قرينتها التي ظهرت في المغرب الإسلامي، مما يؤكد أصالتها واستقلالها عن غيرها من الفلسفات الأخرى.

ربما يقال : ان الإسلام دخل الأندلس في زمن رسول الله ﷺ وكانت مقاطعة "تجيب" قد دخلت الإسلام في وقت مبكر جداً يتزامن مع دخول المشرق إلى حظيرة الإسلام، بدليل أنهم أقبلوا بوفودهم على رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة مرات عديدة، يحملون أقواتهم وهداياهم، بجانب الصدقات والزكوات، وتكرر ذلك مرات عديدة، ومعنى هذا أن السبق الزماني للمشرق على المغرب قضية غير قائمة، بدليل أن وفداً من "تجيب" تكون من ثلاثة عشر رجلاً قدموا إلى رسول الله ﷺ ومعهم صدقاتهم التي فرضها الله تعالى عليهم، وأن الرسول ﷺ قد سرَّ بهم وأكرم منزلتهم، وأنهم قالوا : يا رسول الله :

(١) د. محمد حسيني موسى / ملاح الحكمة الإسلامية في المغرب / ط أولى آل بسبوني ١٩٩٨ / ج ١ / ص ٤٤.

سقتنا إليك حق الله في أموالنا، فقال ﷺ ردوها فاقسموها على فقير انكم^(١)، فقالوا : يا رسول الله : ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا، فقال الصديق : يا رسول الله : ما وفد من العرب بمثل ما وفد به هذا الحي من "تجيب"، فقال رسول الله ﷺ : إن الهدى بيد الله - عز وجل - فمن أراد به خيراً شرح صدره للإسلام^(٢).

ويذكر الرواة أيضاً أن وفد تجيب هذا قد جاء من المغرب وأخذ أفرادهم يسألون رسول الله ﷺ عن أشياء كثيرة، فكتب لهم بها إجابات واضحة وكان يملئ تلك الكتابات على كتاب الوحي، ثم راح أفراد هذا الوفد يسألون رسول الله ﷺ عن القرآن والسنة، فازداد الرسول ﷺ بهم رغبة وأمر بلال بن رباح^(٣) أن يحسن ضيافتهم، فأقاموا أياماً ولم يطيلوا اللبث.

(١) كان رسول الله ﷺ يرشد إلى عدم نقل الصدقات من أماكنها حتى يستوفي أهل الحي أو المنطقة حقهم منها ما داموا ممن يقعون في مصارفها وبهذا أخذ من ذهب إلى جواز نقل الزكاة.

(٢) العلامة / بن القيم / زاد المعاد في هدى خير العباد / ج ٣ / ٤٦، وما بعدها / المطبعة العصرية.

(٣) بلال بن رباح : مؤذن رسول الله ﷺ أعتقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان ترب أبي بكر وكان له ولأوه وكنيته أبو عمرو ويقال أبو عبد الله ويقال أبو عبد الكريم أمه حميمة قال لأبي بكر بعد موت النبي ﷺ إن كنت أعتقتني لله فدعني أذهب حيث شئت وإن كنت أعتقتني لنفسك فأمسكني قال أبو بكر أذهب حيث شئت فذهب إلى الشام مؤثراً للجهاد على الأذان إلى أن مات سنة عشرين ويقال إن قبره بدمشق وسمعت أهل فلسطين يقولون إن قبره بعمواس وقد قيل إن قبره بداريا وامرأة بلال هند الخولانية وكان لبلال يوم مات بضع وستون سنة. (راجع العلامة محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي المتوفى ٣٥٤ - مشاهير علماء الأمصار / ج ١ / ص ٥٠ رقم ٣٢٣ - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٥٩م - عدد الأجزاء ١ - تحقيق م. فلايشهر، الثقات / ج ٣ / ص ٢٨ رقم ٩٥).

فقل ما يعجبكم، فقالوا نرجع إلى من وراينا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله ﷺ وكلامنا إياه، وما رد به علينا^(١)، ثم جازوا إلى رسول الله ﷺ يودعون، فأرسل إليهم بلالاً فأجازهم بلال بأرفع ما كان يجيز به الوفود^(٢)، حيث كان رسول الله ﷺ يهدى إليهم ويؤلف قلوبهم، ويرسل معهم مكتوبات تعلمهم أمور دينهم وما فرضه الله عليهم.

ومن هذا يتبين لنا أن الإسلام قد دخل تلك البلاد المغربية، في نفس الوقت الذي دخل فيه المناطق المشرقية، ربما بنفس القوة والمتانة، وفي ذات الزمان، وبالتالي فلا يعتبر السبق الزمني عاملاً مهماً يسمح بسبق الفلسفة الإسلامية في المشرق عنها في المغرب الإسلامي.

والجواب : أن هذا التساؤل قد يكون وارداً، لكن حقيقة الأمور تظهر نوعاً من التباين في النتائج والمقدمات، لأن الإسلام حين دخل هذه البلاد كان متعلقاً بالأفراد والممارسات الفردية التي تتم لهم في غيبة من رقابة السلطان الكنسي، والجماعات اليهودية، وذلك لا يجعل أصحابه يتمكنون من القيام بإبراز نتائج عقلي خالص يمكنهم من خوض غمار القضايا الفكرية العويصة الشائكة، وإنما سينحصر همومه كمفكر داخل عقله، أو يحاول بث عقيدته في الآخرين المحيطين به، من خلال ترجمة عملية تعبر عنها سلوكيات تتمثل في التكاليف الشرعية والمعاملات الإسلامية التي يحرص كل متمسك بدينه على القيام بها، وذلك لا يسمح بظهور تراث فكري جيد تكون له القوة والمتانة بحيث تقف على كتفه حضارة زاهية.

(١) ونعم ما فعل هؤلاء الحكماء كانت اتجاهاتهم واضحة، ورغباتهم محددة ونواياهم واضحة.

(٢) الإمام ابن القيم / زاد المعاد في هدى خير العباد / ج٣ ص ٤٧، وما بعدها / المطبعة العصرية.

أما بعد الفتح الإسلامي العام للأندلس والمغرب الإسلامي^(١)، فقد تغير الأمر وصار المسلم متمكناً من ممارسة شعائره دينه في حرية تامة، وحماية تتم بواسطة الدولة المسلمة ذاتها وهو مما يتيح الفرصة للمسلم في التأمل العقلي والتعبير عنه، بجانب جعله الأفكار في مطروح واحد يأخذ منها ما يراه مناسباً، وي طرح منها ما لا يجد الأسس الصحيحة تدعمه، وبناء عليه فإن السياق الزماني يمثل عاملاً هاماً لظهور الفكر الإسلامي في المشرق مبكراً عنه في المغرب.

ومن الشواهد الفريدة على ذلك ظهور رسائل قصيرة في مبانيتها، كبيرة في معانيها، قام بتأليفها بعض الخلفاء الراشدين استجابة لبعض المواقف ورداً على بعض الفرق، ورغبة في الوقوف على الحقائق، كما أن أول مفكر منظم كوّن مذهباً فقهياً كان من المشرق الإسلامي وهو الإمام أبو حنيفة النعمان^(٢)، وفي ذات الوقت ظهرت اتجاهات فكرية

(١) حيث ابتدأ هذا الفتح في آخر خلافة بني أمية اعتباراً من عام ٩٢ هـ وقد امتد حتى القرن الثالث الهجري داخل مناطق المغرب الإسلامي.

(٢) هو الإمام أبو حنيفة، واسمه النعمان بن ثابت التيمي مولاهم الكوفي، فقيه العراق وأحد أئمة الإسلام، والسادة الأعلام، وأحد أركان العلماء وأحد الأئمة أصحاب المذاهب المنوعة، وه أقدمهم وفاة لأنه أدرك عصر الصحابة، ورأى أنس بن مالك قيل وغيره، وذكر بعضهم أنه روى عن سبعة من الصحابة فأنه أعلم، وروى عن جماعة من التابعين منهم الحكم وحمام بن أبي سليمان وسلمه بن كهيل وعامر الشعبي وعكرمة وعطاء وقتادة والزهرى ونافع مولى ابن عمر ويحيى بن سعيد الأنصاري، وأبو إسحاق السبيعي وروى عنه جماعة منهم ابنه حماد وإبراهيم بن طهمان وإسحاق بن يوسف الأزرق وأسد بن عمر والقاضي، والحسن بن زياد اللؤلؤي وحمزة الزيات وداود الطائي وزفر وعبد الرزاق وأبو نعيم، ومحمد بن الحسن الشيباني، وهشيم ووكيع وأبو يوسف القاضي، وقيل في الشافعي رأيت رجلاً لو كلمك في هذا السارية أن ==

كثيرة، بعضها كان منظماً على طريقة منهجية، وبعضها كانت تغلب عليه العشوائية، لكن تحوطه النية الصادقة^(١).

في نفس الوقت فقد كانت هناك سفرات يقوم بها المسلمون الأوائل إلى البلاد المجاورة في المشرق الإسلامي تحمل معها النصوص الدينية ومجهودات مفكرى المسلمين في فهم تلك النصوص، وكان الذي ابتدأ هذا الطريق هو النبي محمد ﷺ في الرسائل التي أرسلها إلى الأمراء والملوك والرؤساء^(٢).

وكان منطق ذلك كله هو المشرق الإسلامي، فلا غرو أن يسبق المغرب الإسلامي في ظهور أفكار فلسفية منظمة تعبر عن أصالة المفكر المسلم ودوره في فهم النصوص الشرعية على الجوانب المختلفة.

== يجعلها ذهباً لقام بحجته، وقال الشافعى من أراد الفقه فهو عيال على أبى حنيفة، ومن أراد السير فهو عيال على محمد بن اسحاق ومن أراد الحديث فهو عيال على مالك ومن أراد التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان مرة، وكانت وفاته في رجب من هذه السنة أعنى سنة خمسين ومائة، وعن ابن معين سنة إحدى وخمسين وقال غيره سنة ثلاث وخمسين والصحيح الأول، وكان مولده في سنة ثمانين فتم له من العمر سبعون سنة وصلى عليه ببغداد ست مرات لكثرة الزحام وقره هناك رحمه الله. راجع البداية والنهاية، للإمام ابن كثير. وراجع (معجم المؤلفين ١٠٤/١٣، الجواهر المضيئة ص ٣٠/٢٦).

(١) الأستاذة / فوزية محمود عبد اللطيف / دور المفكر المسلم في فهم النص الدينى / ص ٩٣ ط أولى ١٩٨٢.

(٢) وكانت هذه الرسائل متعددة، عدها البعض : مائة وثنتين وثلاثين رسالة، وبعضها أُرَادَ عليها، وبعضهم أنقص منها، وقد حاول الدكتور / على السبكي الأستاذ بقسم الدعوة بكلية أصول الدين بالقاهرة الوفاء بهذه الجوانب في رسالته للتخصص الماجستير والتي كانت بعنوان / الرسائل النبوية وأثرها في الدعوة إلى الله تعالى / ماجستير / مخطوط بكلية أصول الدين بالقاهرة ١٩٧٨ فيرجع إليها من أراد المزيد في هذا المقام.

أضف إلى ما سبق أن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم خلفاء بنى أمية قد ساروا هم الآخرون إلى تصدير تلك الأفكار الإسلامية من خلال الفاتحين المسلمين إلى تلك البلاد، فكان هؤلاء الفاتحون العقليّة الناضجة القادرة على حمل النصوص وتوظيفها في الوجوه التي تخدم قضيتهم الأساسية وهي الدعوة إلى الله – عز وجل – وإبلاغ دينه للعالمين أجمعين^(١).

ثم إن خلفاء بنى أمية في العقد السابع الهجري قد فطنوا إلى ضرورة مواصلة طريق الفتوحات الإسلامية، ومواصلة عمليات التفكير العقلي وتنظيم تلك العمليات، مع فتح باب للثقافات الوافدة، بحيث تكون على مائدة المفاوضات، فما يقبل منها يمكن الأخذ به، وما يرفض منها يجب الابتعاد عنه، وبالتالي ظهرت عمليات الترجمة إلى الفكر الإسلامي، سواء أقام بها خالد بن يزيد الأموي أم قام بدعمها، لكن الذي لا جدال حوله :

هو أن المشرق الإسلامي قد سبق المغرب الإسلامي بما يقرب من تسعة عقود زمنية، وذلك يعطى أى باحث الحق في إعلان رأيه بأن السبق الزماني من عوامل ظهور الفلسفة الإسلامية في المشرق الإسلامي قبل المغرب الإسلامي، ولأن التفكير العقلي سلسلة تأخذ حلقاتها بعناق بعضها، فإن عملية التأثر والتأثير تكون لصالح الفكرة التي أعرضها^(٢).

(١) وقد أثنى المسلمون الأوائل القيام بهذا الدور على أتم وجه / راجع الشيخ / محمد زكي مصطفى زكي / نظرات في الفكر الإسلامي / ص ١٩١.

(٢) راجع للدكتور / محمد رجب محمود / التفكير الإنساني في مراحل الأولى / ص ٧٥ / طبعة أولى ١٩٦٣.

وفى تقديري : أن سبق المشرق الإسلامى للدخول في الإسلام
عن المغرب الإسلامى مع تأمين مسلمى المشرق على حياتهم وأرواحهم
وممتلكاتهم، كون الصحبة الكريمة بينهم مع أن الرسول ﷺ ولد في ذات
المنطقة، وابتدأ دعوته منها، فإن ذلك يؤكد ضرورة أن يسبق الفكر
الفلسفى الإسلامى ببلاد المشرق عن المغرب.

العامل الثالث: وجوب ملائمة الثقافات بالمشرق

* الدارس لطبيعة البيئة العربية يرقبها قبل ظهور الإسلام فيها، يراها منطقة تتلاقى فيها بعض الجنسيات والثقافات نظراً لموقع الجزيرة العربية من الناحية التجارية، فلما ظهر الإسلام، كان أغلب من دخلوا إليه وترددوا على مهبط الوحي من بداية عهد البعثة النبوية، كانوا إما من الجزيرة العربية أو البلاد المجاورة لها، كاليمن وفارس وغيرها، وأن هؤلاء المختلfi الثقافات لما دخلوا في الإسلام صاروا دوائر معارف إسلامية بحيث تنتقل المعارف من رسول الله ﷺ بجانب العقيدة والشريعة إلى بلادهم لا باعتبارها ثقافة، وإنما باعتبارها جزءاً من نصوص الدين نفسه وأصوله التي يقوم عليها، ومن ثم كانوا يحافظون على هذه النصوص من ناحية الأداء والسلوك، بجانب المفاهيم التي فرضت حولها^(١).

ثم إن هؤلاء الذين اختلفت لهجاتهم وثقافتهم القديمة قد وحدثهم العقيدة الإسلامية، فإذا عادوا إلى ديارهم، وصاروا بين أوطانهم التي جازوا منها راحوا يمارسون ذلك النوع من المعارف الإسلامية في شكل واسع وعميق، لا على أنه مجرد معارف عقلية خالصة، وإنما باعتبارها مفاهيم دينية لا يمكن التفريط فيها، أو التقليل من دور الاهتمام بها^(٢).

(١) والفرق بين الثقافة أو المعرفة والإيمان القلبي كبير، فهم نقلوا ثقافتهم التي حملتها مفاهيمهم وفرضتها عليهم اعتقاداتهم، الأستاذة / فوزية محمود عبد اللطيف / دور المفكر المسلم في فهم النص الديني / ص ٩٧.

(٢) دكتور / محمد رجب محمود / التفكير الإنساني في مراحل الأولى / ص ٦١ ط دار الجبل ١٩٨٧.

بل على العكس من ذلك كانوا يعرضون النصوص الدينية والمفاهيم التي هي شروح لها في أن واحد، باعتبار أن النص هو الأصل والشرح هو الموضح لذلك النص وراحوا يجادلون خصومهم بكل منهما على الإنفراد، بحيث يكون النقل المنزل أولاً، ثم الأفهام التي حوله ثانياً لتأدية الغرض، وتوضيح الهدف، وتقريب مرامي النقل المنزل إلى العقول، حتى تنظرها في دقة، وتبحث عن طرائق أخرى لتفهمها في سهولة ويسر، وكان ذلك في المشرق الإسلامي.

ونظراً لأن هؤلاء الأوائل كانوا من مختلفي الثقافات قبل دخولهم الإسلام فقد كانوا يتعاملون مع ثقافتهم السابقة في شيء من الحذر بغية أن لا تكون مخالفة للتعاليم الإسلامية التي يؤمنون بها، لكن إذا تأكدوا أنها مخالفة للشرع الإسلامي أطاحوا بها بعيداً عن اعتقاداتهم، وسلوكهم الديني أيضاً، وذلك شأن المسلم الحريص على رضوان الله عز وجل^(١).

أما إذا وجدوا ثقافتهم القديمة مخالفة في وجه قليل القوا بالمخالف، وتمسكوا بالموافق، لكن إذا وقفوا على أنها موافقة لتعاليم الدين الإلهي من كل ناحية فأنهم يستبقونها لا على أنها ثقافة سابقة وإنما باعتبارها قضايا لم يصدر الدين فيها حكماً قطعياً بالرفض لها أو القبول^(٢).

ولا شك أن هذا المنهج يكون مقبولا متى روعى فيه القيام على القواعد الشرعية وكانت الغاية الوصول إلى الحقيقة، ففي الحديث

(١) دكتور / محمد حسيني موسى / ملامح الحكمة الإسلامية في المغرب / ص ٥٥.
(٢) الأستاذ / زكي محمد مصطفى / نظرات في الفكر الإسلامي / ص ١٩١ / ط ٢ / ١٩٨٧.

الشريف : " الحقيقة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها لا يبالي من أين جاءت" ^(١).

ومن ثم كان الحرص على القيام بها من الناحية الشرعية، والوقوف عليها مما نهيت إليه شريعتنا الغراء، فلما كثرت الثقافات فيما بينهم وانتشرت المعارف التي اقتبسوها من نصوص دينهم، وتم ضبط هذه وتلك على النواحي الشرعية انطلقوا منها إلى الجانب الإبداعي بأوسع ما أمكنهم وبنفس السرعة والقوة في الوقت الذي كان المغرب لم يعرف عن الإسلام إلا ما عرفه الأفراد القلائل كوفد "تجيب" عن رسول الله ﷺ أو يأتيهم به المرسلون من قبل رسول الله ﷺ الذين كانوا في بادئ الأمر لا يجدون الاستجابة السريعة من حكام تلك البلاد، بل كانوا يلاقون منهم العنت الشديد، والخصومة واللد إلى أبعد مستوى.

وذلك لما هو معروف من أن الرسول ﷺ أرسل إلى كافة ملوك أهل الأرض يدعوهم إلى الإسلام، ويبين لهم ما فيه من عقيدة وشرعية وأخلاق وأحكام، بجانب الحب والعدل والرحمة وما فيه صلاح الدين ويمهد للسعادة في الآخرة ^(٢).

إذا وجود أصحاب تلك الثقافات المختلفة الذين دخلوا في الإسلام مبكراً ونعموا بصحبة سيدنا رسول الله ﷺ كانوا من العوامل الهامة التي ساعدت على ظهور الفلسفة الإسلامية في المشرق وبلوغها حد التفرع قبل أن تبدوا بذور فكرية فلسفية في المغرب الإسلامي بوقت طويل

(١) الحديث رواه الترمذي في سننه ج٥ / ص ٥١، وابن ماجه في سننه / ج٢ / ص ١٣٩٥.

(٢) وذلك من صفات التعاليم الإلهية بحيث تكون تلك التعاليم هي النور الكاشف والهادي إلى ما فيه الخير.

يتناسب مع ذات المدة الزمانية والمسافة المكانية، التي هي من الفواصل القائمة في الماضي بين عوامل السبق في المشرق والتأخر في المغرب.

بل هي التي جعلت الفكر الفلسفي الإبداعي الإسلامي في المشرق يتقدم بخطى سريعة ويسبق قرينه في المغرب الإسلامي الذي ظهر في نهاية خلافة بني أمية في صور ضئيلة، ثم ما لبث أن اشتد عوده في يد بني أمية مرة أخرى عندما أسسوا الخلافة الأموية الثانية في المغرب الإسلامي ابتداءً من القرن الثاني الهجري حتى دولة المرابطين.

ربما يقال : ان دخول مختلفى الثقافات إلى البيئة الإسلامية قد أثر في تكوين فكر مختلط لا يمكن حسبانه فلسفة إسلامية بقدر ما يمكن النظر إليه باعتباره جملة من النتائج أو الاقتباسات التي تأتي بها ثقافات متباينة.

والجواب : أن هذا القول غير مقبول.

أما لماذا؟

فلأننا نقول : ان هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام قد أفادوا أنفسهم بثقافتهم السابقة، فلما دخلوا الإسلام تخلوا عن تلك الثقافة إلى أبعد ما يمكن التخلي من الناحية الإيمانية^(١).

بمعنى أنهم اعتمدوا في قضايا العقيدة الإسلامية والأحكام الشرعية اثباتاً وتناولاً على النقل المنزل وحده، أما المنهج والوسائل التي استعملوها للتعرف على فهم ذلك النقل فلم يكن لديهم مانع من استخدام ثقافتهم السابقة كوسائل يقع في بعضها القبول حتى يصلوا للغايات

(١) دكتور / عبد الرحمن محمد المنوفى / الدولة الإسلامية في مراحلها الأولى / ص ٥٧، ٥٨.

السامية التي يجدون في طلبها، ويسعون إلى الوقوف عليها والأمران مختلفان من كل النواحي وليس أحدهما هو الثاني أبداً^(١).

كما أن المتأمل في ثقافة هؤلاء التي كانت لهم قبل الإسلام يراها معنية بأحد أمرين :

الأول : الجانب المادي الذي تدربوا عليه، وفي كل حال مارسوه أكثر من عنايتهم بالجانب الروحي المتعلق بالوجدانيات أو الزهنيات والعقائيات فلما دخلوا في الإسلام واستظلوا به راحوا يضبطون هذا الجانب في شيء من التنازل الدقيق عن بعضه، أو التطوير المتناسب معه.

الثاني : الجانب الميتافيزيقي، حيث كان يقوم على جملة من الأفكار الشعبية التي دعمتها الحكايات المتواصلة في النفوس، وذلك لا ينتج فكراً فلسفياً خالصاً، فلما دخلوا في الإسلام تحولوا بهذه المعارف إلى الجانب المأمون وهو الجانب الإيماني الذي تحرمة النصوص الدينية الإسلامية ذاتها، ومن ثم ظهرت لديهم بواكير ميتافيزيقية تأملية^(٢)، كانت خالصة لهم طبقاً للنصوص الشرعية التي هدتهم إلى ذلك.

كما كانت لديهم اتجاهات تجريبية تمثلت في الميتافيزيقا النقدية والموائمة بين كليهما واختيار المناهج المثلى للوقوف على تلك الأصول العامة والقواعد الثابتة.

(١) دكتور : نصر الدين عبد الكريم الحطاب / أثر الإسلام في الثقافة الإنسانية / ص ٥١ / طبعة دار عبد الرؤوف ١٩٨١م.

(٢) الفرق بين الميتافيزيقا التأملية والأخرى النقدية كبير : فالتأملية تتعلق بالجانب الغيبي، أما النقدية فتتعلق بالجانب التجريبي، وقد أفاض في بيان ذلك الدكتور / سليمان دنيا في كتابه / التفكير الفلسفي الإسلامي / طبعة الرباط بالمغرب / نشرة مكتبة الخانجي بمصر / ١٩٦٧م.

في ذات الوقت لم يكن هناك من أصحاب الثقافات المتباينة ممن انتقل مبكراً إلى بلاد المغرب الإسلامي، إذ لم يكن مسموحاً لأحد بالانتقال أو الاستمرار فيه، وبناء عليه ظهرت عوامل السبق للفلسفة الإسلامية في المشرق عنها في المغرب.

وفوق ذلك فقد كان حرص بنى أمية على الاستزادة من ثقافات هؤلاء عالياً بدليل أنهم خصوا جزءاً من إدارتهم بكون أمره متعلقاً بعمليات الترجمة للأفكار المطروحة على الساحة، ولم يقف أمرهم عند مجرد إنشاء إدارة للترجمة من الإسلام إلى غيره، وإنما كانت تقوم بعملين متوازيين في وقت واحد فتترجم من الإسلام إلى غيره، كما تترجم من غير الإسلام إليه، ومن ثم جمعت هذه بين خصيصتين لا يمكن أن تنفصل إحداها عن الأخرى، بحيث يمكن القول بأن عملية الترجمة من الفكر الإسلامي وإليه قد ساهمت في ظهور نشاط فكري جاء على درجة عالية من الجدة والابتكار أيضاً.

كما أن عمليات الترجمة هذه كان يقع فيها التخوف أول الأمر على أساس أنها تمثل فاصلاً بين ثقافتين وإنما على أساس أنها قد تمثل قفراً على أصول ثابتة أو قواعد عامة.

بل إن هؤلاء الأوائل كانوا بمثابة الانفتاح الثقافي الإسلامي في المشرق على الأفكار والمعارف الأخرى بحيث يمكن اعتبار هؤلاء بمثابة حلقة الوصل أيضاً بين التراث الإسلامي وما يمكن قبوله من أنواع الفكر الآخر مع محافظة هؤلاء على الأصول العامة، والنصوص الشرعية وعدم الرغبة في القفز على أعناق الآخرين.

أجل : اعتنقت بعض المجتمعات أفكاراً سلبية، ثم تناقلها أفراد تلك المجتمعات على أساس أنها فلسفات ادعى أصحابها التقدم والعصرية، وما هي إلا عصارة من الفكر الضيق، والأفق المنغلق، وعبودية العقل للأهواء، وامتداد الشعور العدائي إلى كافة أفراد المجتمع حتى غلب عليهم "الأنا الذاتي"^(١) دون الإنفات "لأنا الأعلى"^(٢) أو رغبات "الأنا"^(٣) الآخر"^(٤).

لكن أهل الإسلام لم ينظروا إلى ثقافتهم القديمة على أنها حجر عثرة، أو هرم لا يمكن نقض أسسه، وإنما نظروا إليها نظرة بعيدة عن القدسية والتبجيل بحيث لم يوجد عندهم سوى الإسلام وحده، وبالتالي استخدموا أسنتهم وملكاتهم في تبليغ هذا الذي جاءهم به من عند الله – تعالى – وكانوا يحرصون على تنفيذ ذلك كله في صور دقيقة، وأصول عامة وخطوات منتظمة.

(١) الأنا الذاتي : هو ما يتعلق بذات الفرد صاحب الوجه التي ينشدها.

(٢) الأنا الأعلى : هو الغاية التي يبحث عنها كل فرد من أفراد الأنا النوعي – الذاتي والآخر – وهو ما يطلق عليه : عالم المثل عند المثاليين.

(٣) الأنا الآخر : هو الذي يقع في مقابل الأنا الأول سواء أكان محدداً أم غير محدد، وسواء أكان فرداً أم كان جماعة، والمهم أنه يطلق عليه اسم الأنا الآخر.

راجع / دكتور / وفاء محمد نصر / الأنا الذاتي والآخر / ص ٤٥ / ج ١ / دار المتيم / ١٩٧١م.

(٤) دكتور / وفاء محمد نصر / الأنا الذاتي والآخر / ص ٤٥ / ج ١ / دار المتيم / ١٩٧١م.

ومن ثم ظهرت الفلسفة الإسلامية في المشرق الإسلامي محطمة الحواجز الثقافية، هادمة الجدر والموانع التي زعم أصحابها لها القداسة فوق ذلك انطلقت بالجوانب الروحية، فكانوا هداة إلى الله بقلوبهم والسنتهم وعلمهم وسلوكياتهم، وما يزال أثرهم إلى اليوم قائماً^(١).

ربما يتصور البعض أن وجود هؤلاء كان صورة من صور نقل التراث غير الإسلامي إلى البيئة الإسلامية زاعماً أن مسلمة أهل الكتاب ككعب الأحمير، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، قد قاموا بذلك، وربما استشهد على ما ذهب إليه ببعض الآراء العجلى، ولكن هذا غير صحيح، لأنهم كانوا ألسنة تنطق، وقلوباً تقف على الحق، وعلماء يميزون بين ما هو من نصوص الدين، وما هو من ثقافتهم التي جاءتهم من الآخرين، ومن كان ذلك شأنه فلا يمكن أن يضيع عمله، ومن ثم يصير القول بأن وجود هؤلاء كان لصالح التراث الإسلامي والفلسفة الإسلامية أمراً معتاداً وحقيقة شرعية.

أجل أن للقرآن الكريم ذوقاً خالصاً، وروحاً ذاتية تجعل من يطيل عشرته ومصاحبته ذا بصر يفوق من يتلقف آياته في لحظات عابرة ليقوم رأياً أو يجتمع لفكرته، وهمه كله مصروف إلى تأكيد الفكرة التي أنتجت إليها^(٢).

(١) ومن يراجع أغلب التراث الإسلامي يجد المسلمين غير العرب قد بذلوا في خدمته جهوداً كبيرة كالإمام البخاري والغزالي وعلماء أصفهان، وأصبهان وماتريد، ونفتازان وجرجان وغيرهم ممن امتلأت بهم المعارف الإسلامية.

(٢) دكتور / محمد كمال جعفر / تأملات في الفكر الإسلامي / ص ٤٨ / ط أولى ١٩٨٠.

وبالتالي فقد كان هؤلاء من أكثر الذين تأثروا بالجمال القرآني،
وانبهروا به وأكثروا من الاستمتاع بما فيه، بل كانوا يرفضون الانصياع
لموروثاتهم القديمة، حتى ولو كانت بينهم وبينها روابط وثيقة.

دليل ذلك : ما ورد عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه - أنه
قال للنبي ﷺ يا رسول الله : إنا نسمع أحاديث يهود تعجبنا، أفترى أن
نكتب بعضها؟ قال ﷺ : أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى،
لقد جنتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي^(١).

في نفس الوقت فقد كان هؤلاء المختلفين في أصولهم
الثقافية بمثابة العملية التي يقع لها التكامل بين الأصدقاء وليست الصورة
الغريبة التي تدعوا إلى التصارع بين الناس، أو تحويلهم إلى فرقاء، ولما
كان ذلك كله قد ابتدأ في أرض المشرق الإسلامي، فلا شك أنه سيمثل
سبقاً واضحاً لظهور الفكر الفلسفي الإسلامي في المشرق قبل أن يظهر
في المغرب، وذلك مما لا يمكن إنكاره أو إهماله دوره في المسألة.

(١) العلامة الدهلوي / حجة الله البالغة / ج١ / ص١٦٨ طبعة بولاق ١٢٩٤هـ.

✽ العامل الرابع : النقل المنزل - القرآن الكريم والسنة

النبوية المطهرة

أجل نزل القرآن الكريم على قلب سيدنا محمد ﷺ - فاستقبله المسلمون بكل العناية والاهتمام من حفظ له وكتابة مع تلاوة وإجادة وإتقان، وبجانبهما جاء التأمل والتدبر، وقد تمثلت تلك العناية في العديد من المظاهر التي برزت لدى القائلين على بيانها^(١).

وقد نزل القرآن الكريم على قلب الرسول الكريم ﷺ بواسطة جبريل ونقله الصحابة رضوان الله عليهم بالتواتر عن رسول الله ﷺ - وظل ذلك الأمر في التابعين ومن بعدهم، وسيظل فينا نحن المسلمين إلى أن يقوم الناس لرب العالمين. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(٢).

أى نحن بعظمة شأننا نزلنا عليك القرآن يا محمد، ونحن الحافظون لهذا القرآن نصونه عن الزيادة والنقصان، والتبديل والتغيير، فقد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم، فلم يقدر أحد على الزيادة فيه ولا النقصان، ولا على التبديل والتغيير، كما جرى في غيره من الكتب، فإن حفظها موكول إلى أهلها لقوله تعالى: ﴿ بِمَا اسْتَحَقُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾^(٣)، وانظر الفرق بين هذه الآية: ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ حيث ضمن حفظه وبين الآية السابقة حيث وكل حفظه إليهم فبدلوا وغيروا^(٤).

(١) راجع في بيان ذلك للعلامة / جلال الدين السيوطي / الإتقان في علوم القرآن / ج١ ص ١٨٠، ج٢ ص ١١٧ / طبعة المعاهد الأزهرية.

(٢) سورة الحجر / الآية ٩.

(٣) سورة المائدة / ٤٤.

(٤) الإمام الفخر الرازي / مفاتيح الغيب / ج١٩ / ص ١٦٧، وأيضاً / مختصر تفسير ابن كثير / ج٢ / ص ٣٠٨.

وكان من جملة الصحابة الأوائل أجلة حسموا أمورهم، واتجهوا بكل قلوبهم إلى ربهم وعاشوا في المشرق الإسلامي، ثم خصوا أنفسهم بالنظر في كتاب الله الكريم، كما رتعا بين رياضة، ورشقوا من رحيقه، ثم نقلوا ذلك من مجرد النصوص إلى صورة من التطبيق العملي، أغرت أقرانهم، وأصدقائهم حتى يناقشهم، وبات من المؤكد أمر ذلك المناقشة، وبخاصة ما جاء به الحديث الشريف من قوله ﷺ: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فهو يقوم على هلكته في سبيل الله أثناء الليل وأطراف النهار، ورجل آتاه الله علما فهو يعلمه ويعمل به أثناء الليل وأطراف النهار"^(١).

بل بات من المؤكد وجود بعض المفاهيم المستقاة من تدبر هذه العقول لآيات القرآن الحكيم، فكان ذلك التدبير في مرحلته الأولى يظهر في المشرق الإسلامي، وبناءً عليه، كان سبق الفكر الإسلامي في المشرق عنه في المغرب.

بل قد فطن المتقدمون من أهل الإسلام إلى ما في آيات القرآن الكريم من الحكم والمصالح التي جاءت على جميع الأنحاء، فحاول كل منهم تطبيق تأملاته على العملي، بدليل ظهور مهرة في تلاوة القرآن الكريم، والتعرف على أحكامه وأوجه القراءات وكيفية توجيهها مع استعمال كافة ألوان التحسين الأدائي^(٢).

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه ج ١ / ص ٥٥٩، والإمام البخاري في صحيحه ج ١ / ص ٣٩.

(٢) وقد كثر علماء القراءات في البلاد الإسلامية وكانت لهم جهود كبيرة وما تزال هذه المعاهد قائمة، بل وستظل لأن قراءات القرآن هي نفسها آيات القرآن متى كانت صحيحة.

وكانوا ينعمون عقولهم وقلوبهم وأفئدتهم بالتجوال في رحاب هذا الجانب الأداني بدليل ما روى من أن أبا موسى الأشعري قال له رسول الله ﷺ لو رأيتي البارحة وأنا أستمع لقراءتك، لقد أعطيت مزاراً من مزامير آل داود، فقال أبو موسى الأشعري: لو أني أعلم أنك تسمعن يا رسول الله لحبرته لك تحبيراً^(١).

إذا تلك العناية بالقرآن الكريم وكتابة حروفه وكلماته واستخراج الدلائل العقلية والشرعية من آياته أما لماذا؟ فلما ذكره الإمام الشافعي من أن القرآن الكريم قد ذكر لأهل الإيمان ما فعله أهل الكتب السابقة من تحريف وتبديل وإهمال فقال: بعث الله - عز وجل - محمداً والناس صنفان:

أحدهما: أهل كتاب بدلوا من أحكامه وكفروا بالله، فافتعلوا كذباً صاغوه بالسنتهم فخلطوه بحق الله الذي أنزل إليهم، فذكر تبارك وتعالى لنبيه ﷺ من كفرهم (٢) فقال تعالى: ﴿وَلَيْنَ مِنْهُمْ لَقَرِيفًا يَكُونُونَ السِّنْتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَنَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

فمن اليهود طائفة يفتلون السنتهم في حال قراءة الكتاب لتحريف معانيه وتبديل كلام الله عن المراد منه، قال ابن عباس: يحرفونه بتأويله على غير مراد الله لتظنوا أن هذا المحرف من كلام الله، وما هو إلا

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه.

(٢) الإمام الشافعي محمد بن إدريس / الرسالة ص ٦٥٦ / تحقيق الأستاذ / أحمد شاكر.

(٣) سورة آل عمران / ٧٨.

تضليل وبهتان، وينسبونه إلى الله، وهو كذب على الله واقتراء عليه سبحانه وتعالى^(١).

ويقول المولى عز وجل أيضاً: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَتَبُوا الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبْتُ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾^(٢).

فينتظر هؤلاء الذين حرقوا التوراة وكتبوا تلك الآيات المحرفة بأيديهم هلاك وعذاب، ثم يقولون بعد كتابتهم وتبديلهم وتغييرهم لأتباعهم الأميين هذا الذي تجدونه هو من نصوص التوراة التي أنزلها الله على موسى – عليه السلام – مع أنهم كتبوها بأيديهم ونسبوها إلى الله تعالى كذباً وزوراً لينالوا به عرض الدنيا وحطامها الفاني، فشدّة عذاب لهم على ما فعلوا من تحريف الكتاب، وويل لهم مما يصيبون من الحرام والسحت^(٣).

لكن وجوه كيفية الاستفادة من النقل المنزل في تحريك الفكر والقدرة على إبراز الفلسفة الإسلامية وإخراجها من دائرة العقول إلى دائرة الواقع العملي قد جاءت عديدة من أبرزها ما يلي :

(١) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج٤ / ١١٩.

(٢) سورة البقرة / ٧٩.

(٣) الإمام أبو السعود / تفسير أبو السعود / ج١ ص ٩٤، والإمام ابن كثير / مختصر تفسير ابن كثير / ج١ ص ٨٢.

المظهر الأول : وجود النص القرآني القطعي في وروده

الامتثال في دلالاته

وهذه الآيات الاحتمالية في الدلالة لا يمكن أن ينظر إليها المفكر المسلم من غير أن تستوقفه أو تسترعى تفكيره من مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾^(١) فهي آية قطعية في ورودها، لأنها آية من القرآن الكريم لكنها جاءت بلفظ ستة، وهو يحتمل من حيث المعنى الكثير والكثير، بل ان اضافة الأيام إليه قد جاءت للتمييز، لكنها في ذات الوقت حملت أوجه عديدة :

هل الأيام هي التي نعرفها نحن وتسمى بالزمان الفلكي ؟
أم هي الأيام التي في علم الله وتسمى الزمان المقدر ؟

(١) سورة ق / الآية رقم ٣٨، وهذه الآية رد على اليهود حيث زعموا أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة وأنه تعب فاستراح يوم السبت واستلقى على ظهره فوق العرش فكذبهم الله تعالى، والمعنى : والله خلق السموات السبع في ارتفاعها وعظمتها والأرض في كثافتها وسعتها وما بينهما من المخلوقات البديعة في ستة أيام وما مسنا من إعياء وتعب فاصبر يا محمد على ما يقوله اليهود وغيرهم من كفار قريش واهجرهم هجراً جميلاً. راجع الإمام الألويسي / روح المعاني / ج٢٦ / ص ١٩٠، ومختصر ابن كثير ٣٨/٣.

إذ بات المسلم مجهداً عقله في هذه النصوص وأمثالها بغية الوقوف على حلول يمكن أن تؤكد بالنسبة له مجهودات فكرية في فهم النقل المنزل، وكذلك الحديث عن الجن والملائكة والكرسي والعرش وغيرها من السمعيات التي جاء بها النقل المنزل، لكنها تحتمل المعاني الكثيرة، بدليل أن البعض عرف الملائكة بأنهم أجسام لطيفة نورانية قابضة للتشكل بالأشكال الحسنة^(١).

بينما ذهب آخرون إلى أن الملائكة أجسام لطيفة نورانية قابلة للتشكل بالأشكال الحسنة وغيرها^(٢). ولا شك أن كلا منهما قد اجتهد في فهم النص الوارد في القرآن الكريم والوارد أيضاً في الحديث الشريف، من قوله ﷺ: "خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجن من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم"^(٣).

كذلك قوله تعالى عن السور والنفخ فيه وتكرار ذلك، فراح كل مفكر يبحث هل هو نفختان فقط لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى

(١) الشيخ محمد عبد النبي أبو خضرة / دراسات في سورة الجن / ص ١٧ ط ٢ / ١٩٣٥ م.

(٢) الأستاذ محمود عبد اللطيف توفيق / نظرات في سورة الجن / ص ٢٣ / طدار توفيق ١٩٤١ م.

(٣) الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه.

فإذا هم قيام ينظرون^(١)، وبعضهم جمعها فإذا هي ثلاث نفخات، نفخة الصعق، ثم نفخة الفزع، ثم نفخة القيام للملك العلام، وذلك مما يؤكد وجود نصوص قطعية في ورودها، احتمالية في دلالتها مما شجع الكثيرين من أهل الإسلام على محاولة فهم تلك النصوص التي جاءت من هذا الطريق، وكيفية الاستفادة بها على الوجه الأمثل.

(١) سورة الزمر / ٦٨، ونفخ في الصور : وهو قرن ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام بأمر الله، والمراد بالنفخة هنا " نفخة الصعق التي تكون بعد نفخة الفزع وقال الإمام بن كثير : وهى النفخة الثانية التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض (فصعق من في السموات ومن في الأرض) أى فخر ميتاً كل من في السموات والأرض إلا من شاء الله بقاءه كحملة العرش والحوار العين والولدان، ثم نفخ فيه أخرى وهى نفخة الأحياء (فإذا هم قيام ينظرون) أى فإذا جميع الخلائق الأموات يقومون من القبور ينظرون ماذا يؤمرون. راجع الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج١٥ / ٢٨٤. وهناك آيات أخرى تتكلم عن النفخ في الصور يوم القيامة منها ما جاء في سورة الحاقة / الآية ١٣، وسورة يس / الآية ٥١، والكهف / ٩٩، والمؤمنون / ٩٩، سورة ق / ٢٠.

المظهر الثاني : ضرب الأمثال :

ضرب القرآن الكريم الأمثال للناس، بل صار المثل في القرآن حقيقة واقعة تقوم عليه دراسات متعددة، سواء أ جاء المثل على صيغته المشهورة كقوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾^(١)، أو جاء على صورة يظهر فيها المثل على ناحية إعجازية كقوله تعالى في أمر النشأة الأخرى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ثَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَتُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَقَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدْ إِلَىٰ أَرْثِلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾^(٢).

(١) سورة الأعراف / الآية ٢٩.

(٢) سورة الحج / ٥. ذكر المولى عز وجل هنا دليل من الأدلة التي ساقها على إمكان البعث وهو ما جاء في هذه الآية، والمعنى : إن شككتم في قدرتنا على إحيائكم بعد موتكم فانظروا في أصل خلقكم ليزول ريبكم، فقد خلقنا أصلكم "أدم" من التراب، ومن قدر على خلقكم أول مرة قادر على أن يعيدكم ثاني مرة، والذي قدر على إخراج النبات من الأرض بعد موتها قادر على أن يخرجكم من قبوركم، "ثم من نطفة" أي ثم جعلنا نسله من المنى الذي ينطف من صلب الرجل، قال الإمام القرطبي : والنطف : القطر سمي نطفة لقلته، "ثم من علقه" وهو الدم الجامد الذي يشبه العلقه التي تظهر حول الأحواض والمياه، "ثم من مضغة" أي من قطعة من لحم مقدار ما يمضغ "مخلقة وغير مخلقة" أي مستنبئة الخلق، مصورة وغير مصورة، فالمخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين، وغير مخلقة : التي لم يخلق فيها شيء "لنبيين لكم" أي خلقناكم على هذا النموذج البديع لنبيين لكم أسرار قدرتنا وحكمتنا، قال الإمام الزمخشري : أي لنبيين لكم بهذا التدرج قدرتنا، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولا، ==

كذلك ضرب القرآن الكريم مثالا آخر للبعث الثاني بالأرض الهامدة التي لا نبات فيها ولا حياة يهجرها الإنسان ويفر من سكنائها الحيوان، فهي من الحركة السكانية خالية الحركة السكانية خالية ومن أصحاب الانطلاق العقلي خالية، وبالتالي فهي هامة لا يسمع فيها صوت، ولا يرى فيها من خيال، فافتت المقابر سكونا، وتميزت عنها غموضا حتى صارت الوحشة طابعها، والاستغراب في الإقامة بها سمة بارزة فيها^(١).

فإذا أنزل الله عليها الماء انشقت أرحامها بالنبات، وظهرت فيها أنواع الحياة المختلفة التي تعين على الإقامة فيها والبقاء بها، وإمكانية التعايش داخلها حينئذ يلجأ الإنسان إليها، فيستقر فيها، والحيوان فيقترب منها ويعيش في نواحيها، ولكثرة ما فيها من حياة متنوعة تظهر فيها

== ثم من نقطة ثانيا، ولا تناسب بين التراب والماء وقد على أن يجعل النطفة علقه وبينهما تباين ظاهر، ثم يجعل العلقه مضغة والمضغة عظما، قادر على إعادة ما بداه، بل هذا أدخل في القدرة وأهون في القياس، ونشبت من الحمل في أرحام الأمهات من أردنا أن نقره فيها حتى يتكامل خلقه إلى زمن معين هو وقت الوضع ثم نخرج هذا الجنين طفلا ضعيفا في بدنه وسمعه وبصره وحواسه، ثم نعطيه القوة شيئا فشيئا، ثم لتبلغوا كمال قوتكم وعقلكم، ومنكم من يموت في ريعان شبابه، ومنكم من يعمر حتى يصل إلى الشيخوخة والهرم وضعف القوة، والخرف ليعود إلى ما كان عليه في أوان الطفولة من ضعف البنية وسخافة العقل، وقلة الفهم، فينسى ما علمه وينكر ما عرفه ويعجز عما قدر عليه قال تعالى : ﴿ومن نعمة ننكسه في الخلق﴾. راجع الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج ١٢ ص ٦، وتفسير الكشاف / ج ٣ ص ١٤٤، والإمام الرازي / مفاتيح الغيب / ج ٢٣ ص ٢٢.

(١) الأستاذ / رضوان محمد صقر / دراسات في القرآن الكريم / ص ١٣٥ ط دار خيرت ١٩٣٧.

ألوان المباحج وأفانين الحياة، أنها تتحول بفضل الله تعالى من أرض هالمة إلى أرض متحركة بالخيرات عامرة. قال تعالى : ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾^(١).

يقول الإمام القرطبي تحت تفسيره لهذه الآية : "تبيهم الله تعالى بهذا على احياء الموتى، وذكرهم على توحيده وكمل قدرته بالأرض الميتة أحيائها بالنبات وإخراج الحب منها فصاروا من الحب يأكلون، وبه يتغذون، وعليه يتعيشون"^(٢)، وهذه الآية الكريمة من الأدلة والبراهين على قدرة الله تعالى ووجدانيته.

قال أبو العتاهية :

فيا عجباً كيف يعصى الإله .. أم كيف يجحده الجاحد

ولله في كل تحريك .. وتسكينة أبدأ شاهد

وفى كل شيء له آية .. تدل على أنه واحد^(٣)

وكذلك أمر البعث في قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَتَسَىٰ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الشَّجَرَةَ الْأُخْضَرَ تَارًا قَبْلَ إِذَا أَنشَأْتُمْ مِنْهُ ثَوْدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٤).

(١) سورة يس / الآيات ٣٠، ٣٢.

(٢) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن ج٥ / ١٥ ص ٢٥.

(٣) الإمام الصابوني / صفوة التفسير / ج٣ / ص ١٣.

(٤) سورة يس / الآيات ٧٨-٨٣.

والمعنى : أن الله عز وجل ضرب هذا المثل للكافر الذي يستبعد على الله - عز وجل - إعادة خلق الله الإنسان بعد موته وفنائه، ونسى أنا أنشأناه من نطفة ميتة وركبنا فيه الحياة، فقد نسى خلقه العجيب وبدأه الغريب، وجوابه من نفسه حاضر، من يحيى العظام وهي بالية أشد البلى، مفتنة متلاشية؟

قال العلامة الصاوي : أي أورد كلاماً عجيباً في الغرابة هو كالمثل، حيث قاس قدرتنا على قدرة الخلق، قل يا محمد تخريسا وتبكيثاً لهذا الكافر وأمثاله : يخلقها ويحييها الذي أوجدها من العدم، وأبدع خلقها أول مرة من غير شيء، فالذي قدر على البداء، قادر على الإعادة، يعلم كيف يخلق ويبدع، فلا يصعب عليه بعث الأجساد بعد الفناء، فالذي جعل لكم بقدرته من الشجر الأخضر نارا تحرق الشجر، لا يمتنع عليه فعل ما أراد، ولا يعجزه احياء العظام البالية وإعادتها خلقاً جديداً، قال الإمام أبو حيان : ذكر تعالى لهم ما هو أغرب من خلق الإنسان من النطفة، وهو إبراز الشيء من ضده، وذلك أبدع شيء وهو اقتداح النار من الشيء الأخضر، ألا ترى الماء يطفئ النار، ومع ذلك خرجت مما مشتمل على الماء، والأعراب توري النار من المرخ والغفار وفي أمثالهم "في كل شيء نار، واستمجد المرخ والغفار" ولقد أحسن القائل :

جمع النقيضين من أسرار قدرته .. هذا السحاب به ماء به نار
أوليس الذي خلق السموات والأرض مع كبر جرمهما وعظم شأنهما قادر على أن يخلق أجساد بني آدم بعد فنائها؟ بلى هو القادر على ذلك، فهو الخالق المبدع في الخلق والتكوين، العليم بكل شيء لا يصعب عليه جل وعلا شيء، لأن أمره بين الكاف والتون، فمتى أراد تعالى شيئاً وجد بدون تعب ولا جهد، ولا كلفة ولا عناء^(١).

(١) راجع / حاشية الصاوي على الجلالين / ج ٣ / ص ٣٣١ وأيضاً الإمام الطبري / ج ٢٣ / ص ٢١ والبحر المحيط / ٧ / ٣٤٨.

بل إن نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار قد جاء في صور رائعة التعبير، ولكن يأتي فيه ضرب المثال من ذلك قوله تعالى : ﴿وَيُبَشِّرُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَلُوهَا بِهِ مُتَشَابِهَةٌ وَلَهُمْ فِيهَا أَنْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١)، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾^(٢).

فهذه البشريات لعباد الله المؤمنين المتقين والذين كانوا في الدنيا محسنين، والذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح بأن لهم حدائق وبساتين ذات أشجار ومساكن تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنة، كلما أعطوا عطاءً، ورزقوا رزقا من ثمار الجنة، فإن أهل الجنة يرزقون من ثمارها تأتيهم به الملائكة، فإذا قدم لهم في ثانية، قالوا : هذا الذي آتينمونا به من قبل، فنقول الملائكة : كل يا عبد الله فاللون واحد والطعم مختلف، ولهم في الجنة زوجات من الحور العين مطهرات من

(١) سورة البقرة / الآية / ٢٥.

(٢) سورة الحج / الآيات / ٢٥، ٢٤.

والمعنى : أن الله تعالى يدخل المؤمنين الصالحين في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار العظيمة المتنوعة، وتلبسهم الملائكة في الجنة الأساور الذهبية، كحلية وزينة يتزينون بها ويحلون باللؤلؤ كذلك إكراما من الله – عز وجل – لهم، ولباسهم في الجنة الحرير ولكنه أعلى وأرفع مما في الدنيا بكثير، وأرشدوا إلى الكلام الطيب، والقول النافع إذ ليس في الجنة لغو ولا كذب "وهذا إلى صراط الحميد" أي إلى صراط الله وهو الجنة دار المتقين. راجع الإمام الرازي / مفتاح الغيب / ج٢٣ / ص ٢٥.

الأقدار والأنداس الحسية والمعنوية وهم في ذلك دائمون وذلك هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين، يعيشون مع زوجاتهم في هناء خالد لا يعتريه انقطاع^(١).

ولا شك أن أهل النعيم سوف يكرمهم الله تعالى بالجنان وهى ممتدة الدرجات كثيرة الخيرات، فيها القصور العاليات، والغرف التي تجرى من تحتها الأنهار قال تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾^(٢) وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٣).

فللعبد الذي يخاف قيامه بين يدي ربه للحساب جنتان : جنة لسكنه، وجنة لأزواجه وخدمه، كما هي حال ملوك الدنيا، حيث يكون له قصر، ولأزواجه قصر يقول الإمام القرطبي : وإنما كانتا اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى جهة وقال الإمام الزمخشري : جنة لفعل الطاعات، وجنة لترك المعاصي، وفي الحديث " جنتان من فضة أنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن"^(٤).

ولفظ الغرف الواردة في الآية الكريمة يأتي على معان متعددة ...

(١) الإمام الفخر الرازي / مفاتيح الغيب / ج ١ / ص ٨٤ والإمام بن كثير / مختصر تفسير بن كثير / ج ١ / ص ٣٩.

(٢) سورة الرحمن / الآية ٤٦.

(٣) سورة العنكبوت / الآية ٥٨.

(٤) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج ١٣ / ص ٣٦٣.

يقول أحد العلماء في ذلك : أن الغرف هي أماكن في أعلى الجنان، رفيعة العماد والبنيان، ساكنها يتمكن من التمتع بما فيها من حور وولدان، تجرى من تحت أشجارها وقصورها أنهار تسر القلب، وتنصح للعيان، نعمة عظيمة من ربنا الرحيم الرحمن، صاحب الفضل والجود الحليم المنان، فذلك من أنعمه العظمى وفضله القينان، وفوق ذلك ولهم ما يدعون سلام قولاً من رب رحيم^(١).

كذلك جاء الحديث الشريف في قوله ﷺ "بيننا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة، فذلك قوله تعالى ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ : قال فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم^(٢).

وقوله تعالى ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾^(٣).

فالذين كانوا في الدنيا أبراراً بطاعتهم الملك الجبار الرحيم الرحمن، فأنهم يشربون كأساً من الخمر، ممزوجة بأنفس أنواع الطيب وهو الكفور : طيب معروف يستحضر من أشجار ببلاد الهند والصين،

(١) الشيخ / محسن عبد الرحمن شاكر / تفسير سورة العنكبوت / ص ١٢١ / ط أولى ١٩٥٨م.

(٢) العلامة بن كثير / المختصر ج ٣ / ص ١٦٧ والحديث أخرجه ابن أبي حاتم ورواه ابن ماجه في سننه.

(٣) سورة الإنسان / الآيات ٥ : ٧.

وهو من أنفاس أنواع الطيب عند العرب فمن شرب من تلك الكأس وجدها في طيب رائحتها، وفوحان شذاها كالكاפור وقال ابن عباس : الكافور اسم عين ماء في الجنة يقال له عين الكافور تمتزج الكأس بماء هذه العين، وتختم بالمسك، فتكون أذ شراب، وهذا الكافور يتدفق من عين جارية من عيون الجنة، يشرب منها عباد الله الأبرار، وصفهم بالعبودية تكريما لهم وتشريفا باضافتهم إليه تعالى وهم المؤمنون المنقون، يجرونها حيث شاءوا من الدور والقصور، فهي سهلة لا تمتنع عليهم، وقد ورد أن الرجل منهم يمشى في بيوته، ويصعد على قصوره ويبيده قضيب يشير به إلى الماء، فيجرى معه حيثما دار في منزله، ويتبعه حيثما صعد إلى اعلى قصوره^(١).

ومنها أيضا قوله تعالى ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾^(٢).

فالقرآن الكريم عرض من أنعم أهل الجنة التي أكرمهم الله تعالى بها جريان الأنهار المتنوعة في مصدر كل منها، وتنوع النهر الجارى ذاته، ومن ثم فالمفكر المسلم راح يسأل في معنى الآسن الوارد في الآية الكريمة، هل هو الذي لا تتغير رائحته أم الذي لا يتوقف عن الجريان ماؤه، أم هو الثابت في جهة الجريان على الاستمرار حتى يمتع العين والقلب كما يريح النفس والوجدان أم غير ذلك من الوجوه.

(١) الإمام الفخر الرازي / مفاتيح الغيب / جـ ٣٠ ص ٢٣٨ والإمام القرطبي / جـ ١٩ ص ١٢٣.
(٢) سورة محمد / الآية / ١٥.

والأسئلة التي دفعت المفكر المسلم للبحث عن إجابات لها يمكن للعقل أن يتعرف عليها ويتفهم مراميها وبخاصة أن الأثر المروى عن سيدنا عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - يقول : أن أنهار الجنة تنجر من جبل من مسك^(١).

ولا شك أن هذه الآيات التي تحدثت عن صورة من صور النعيم لأهل الجنة تجعل المسلم يفكر هل هي جنات تجري من تحتها الأنهار التي نعرفها أم الأنهار التي تتناسب مع الدار الآخرة، وبخاصة أن القرآن الكريم قال ﴿ وَاتَّخَذُوا فِيهَا مَثَابِغَ وَكُنُفًا فِيهَا أَنْهَارٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٢).

ثم هل غرف الجنة كالغرف التي نعيش فيها ونبنيتها، ثم نحتاج إلى إصلاحها وترميمها، أم تقوم الملائكة بهذا الدور، أم هي خالدة لا تحتاج شيئا من ذلك؟

لاشك أن هذا كله قد دفع المفكر المسلم إلى عملية التفكير العقلى دفعا وطلب منه أن يكون ميتا فيزيقيا تأمليا إلى أبعد مدى، وقد ظهر ذلك في البينة المشرقية.

أولاً : بينة نزول القرآن الكريم :

كما عرض القرآن الكريم لصورة من صور عذاب أهل النار، وبين أنهم قطعت لهم ثياب من النار، وأنهم يصب من فوق رؤوسهم الحميم، وأنهم يشربون من هذا الحميم، وفوق ذلك ولهم مقامع من حديد تحبسهم عن الحركة، قال تعالى : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ

(١) الإمام بن كثير / المختصر / ج ٣ / ص ٣٣٢.

(٢) سورة البقرة / الآية ٢٥.

تَقَرُّوا قَطَعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَتُوقَفَا عَذَابَ الْخَرِيقِ^(١).

فثيابهم مقطعة على جهة التفصيل من مادة النار التي إذا لمست جسما قابلا للاحتراق أذابتها، وفي نفس الوقت، فإن هذه الثياب ليست واسعة بحيث تمكنهم من الهرب، ولا ضيقة فلا تدخل أجسادهم فيها، وإنما هي على قدر التناسب مع كل فرد من أفراد أهل النار، ولا شك أن ذلك سوف يدفع المرء العاقل ليتساءل: هل هذه الثياب لها أطراف وجيوب وأكتاف كما نفعل نحن في الحضر؟ أم هي إزار ورداء كالتي يلبسها أهل البدوة؟

وهل هي جزء من النار التي أعدها الله للعاصين أم هي نار مستخلصة من الأولى؟ والمفكر المسلم يجد نفسه مضطرا إلى تأمل هذه النصوص ومحاولة استخراج ما فيها، ومن ثم يصير مينا فيزيقا رغم أنفه، ولا شك أن ذلك مما يميز الإسلام والمسلمين معا^(٢).

(١) سورة الحج / ١٩-٢٢.

(٢) إذ تعجز كل الكتب الأخرى عن إبراز هذا الجانب لأنها قد حرفت كما أنها لم تجيء لهذا الغرض.

المظهر الثالث: إخراج الأضداد من بعضها :

ذكرت بعض آيات القرآن الكريم أن الله تعالى يخرج الأضداد من بعضها، أو يدخلها في بعضها، أو يجعلها تتلاقى مع بعضها، كالميت والحي مثلا، والرطب والحار مثلا، والأخضر والجاف النارى أيضا من ذلك قوله تعالى : ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(١)، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَالِقُ الْخَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾^(٢).

والمعنى : تدخل الليل في النهار، كما تدخل النهار في الليل، فتزيد في هذا وتنقص في ذاك والعكس، وهكذا في فصول السنة شتاء وصيفا، وتخرج الزرع من الحب، والحب من الزرع، والنخلة من النواة، والنواة من النخلة، والبيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيضة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وقال الإمام الطبري : وأولى التأويلات بالصواب تأويل من قال : يخرج الإنسان الحي والأنعام والبهايم من النطف الميئة، ويخرج النطفة الميئة من الإنسان الحي والأنعام والبهايم الأحياء^(٣).

(١) سورة آل عمران / الآية ٢٧.

(٢) سورة الأنعام / الآية ٩٥.

(٣) الإمام الطبري / ج ١١ / ص ٥٥٤، وحاشية الصاوي على الجلالين / ج ٢ / ص ٣٤.

وفى آية الأنعام: ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ... ﴾ أى يخلق الحب تحت الأرض لخروج النبات منها، ويفلق النوى لخروج الشجر منها، قال الإمام القرطبي: أى يشق النواة الميتة فيخرج منها ورقا أخضر وكذلك الحبة، فيخرج النبات الغض الطرى من الحب اليابس، ويخرج الحب اليابس من النبات الحى النامى^(١).

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ نَعْمَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أُنْتَمَ مِنْهُ تُوقِفُونَ ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ اللَّيْلُ تُسَلِّخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾^(٤)، فمن آيات قدرته تعالى إيلاج الليل في النهار أى أنه يدخل كلا منهما في الآخر، بأن ينقص من الليل فيزيد في النهار وبالعكس وهذا مشاهد ملموس في الصيف والشتاء^(٥).

ولا شك أن العقل العادى ربما يعجز عن الوقوف على هذه المظاهر، ومن ثم يحاول إيجاد حلول لها، أو مجهودات فكرية بجوارها فيقول مثلا: يخرج الحى وهو النبات من الميت وهو الأرض، قال تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾

(١) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج٧ / ص ٦١.

(٢) سورة يس / ٨٠.

(٣) سورة يس ٣٨.

(٤) سورة الحج / ٦١.

(٥) الإمام الصابوني / صفوة التفسير / ج٢ / ص ٢٩٦.

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ^(١).

فمن الآيات الباهرة، والعلامات الظاهرة الدالة على كمال قدرة الله ووحدانيته هذه الآية العظيمة، هي الأرض اليابسة الهامدة التي لا نبات فيها ولا زرع أحييناها بالمطر، وموت الأرض : جذبها، وإحيائها : بالغيث، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، وأخرجنا بهذا الماء أنواع الحبوب ليتغذوا به ويعيشوا، وجعل الله في الأرض بساتين ناضرة فيها من أنواع النخيل والعنب، وجعلنا فيها ينابيع من الماء العذب، والأنهار السارحة في بلدان كثيرة ليأكلوا من ثمرات ما ذكر من الجنات والنخيل التي أنشأها لهم ومما عملته أيديهم مما غرسوه وزرعوه بأنفسهم، قال الإمام بن كثير : لما امتن الله على خلقه بإيجاد الزروع لهم عطفت بذكر الثمار وأنواعها وأصنافها، وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم، لا بسعيهم وكدهم ولا بحولهم وقوتهم، أفلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم^(٢).

كما يخرج الحق تبارك وتعالى الميت من الحي حيث تكون البيضة من الدجاجة وقد حاول كل أن يجد صورة ذهنية راقية يقف عليها

(١) سورة يس / ٣٣-٣٦.

(٢) الإمام القرطبي / تفسير الجامع لأحكام القرآن / ج١٥ / ص٢٥، ومختصر ابن كثير / ج٣ / ص١٦٢.

تقنعه بأن ما انتهى إليه هو الصحيح، ومن هنا كثرت المدارس التفسيرية.

كذلك في قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ قالوا ان الشجر الأخضر فيه نوعان من النبات، هما : المرخ والغفار، وكل منهما إذا قُص منه جزء ومُنَّ به الآخر فإنه تنشأ عنهما نار حارقة^(١). ومن ذلك قيل :

جمع النقيضين من أسرار قدرته .. هذا السحاب به ماء ونار^(٢)
إذا هذه الآية الكريمة فيها دليل على البعث، ودليل على النشأة الأخرى، ودليل آخر على الميثاقية التجريبية النقدية، إذ أن المسلم المفكر أخذ عودين من النباتين اللذين سلف ذكرهما، ثم جرب عليهما، فإذا هما يخرجان نارا، وبالتالي تحول المفكر المسلم مع الميثاقية التأملية والنقدية معا، وذلك موجود بكثرة في القرآن الكريم ومظاهره لا تنقطع أبدا.

(١) حاشية الصاوي على الجلالين / ج٣ / ص ٢٣١.

(٢) صفرة التفاسير / ج٣ / ص ٢٥.

المظهر الرابع : توالى المتباينات :

جاءت آيات من القرآن الكريم تتحدث عن الليل والنهار وعلاقة كل منهما بالآخر، ومن هنا راح المفكر المسلم يتساءل : هل الليل واقع بعينه؟ أم مدة زمنية؟ هل هو فكرة يمكن التعبير عنها من خلال مفردات لا تسمح بالخروج عن النقل ومع هذا تساهم في التعرف عليه؟ أم أن الليل فكرة وواقع تقيء فيه النسبية الزمانية أو المكانية.

فمن المكانية قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾^(١)، فلفظ الليل متسع يمتد ساعات طويلة، لكن قوله تعالى : ﴿ مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ تجرى فيه النسبية المكانية المرتبطة بمفهوم الليل ارتباطاً وثيقاً.

(١) سورة الإسراء / ١، والمعنى : تنزهه وتقديسه عما لا يليق بجلاله الله العلي الشأن الذي انتقل بعبدته ونبيه محمد ﷺ في جزء من الليل من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، وسمى بالأقصى لبعده المسافة بينه وبين المسجد الحرام. قال المفسرون : وإنما قال ﴿لَيْلًا﴾ بلفظ التكرير لتقليل مدة الإسراء، وأنه قطع به المسافات الشاسعة البعيدة في جزء من الليل، وكانت مسيرة أربعين ليلة وذلك أبلغ في القدرة والإعجاز ولهذا كان بدء السورة بلفظ سبحان الدال على كمال القدرة، وبالغ الحكمة، ونهاية تنزهه تعالى عن صفات المخلوقين وكان الإسراء بالروح والجسد نقطة لا مناماً. راجع / الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / جـ ١٠ ص ٢٢٤.

ومن النسبية الزمانية قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾^(١).

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾^(٢) أى ومن الليل فصلّ له، متهجدا مستغرقا في مناجاته، وأكثر من التهجد والقيام لربك في جناح الظلام والناس نيام والمقصود أن يكون عابدا لله ذكرا أنه في جميع الأوقات، في الليل والنهار، والصباح والمساء، بقلبه ولسانه، لينتقى على مجابهة أعدائه^(٣).

ومن النسبية الكلامية المتعلقة بالحكم على الفكر قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٤)، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ هُمْ

(١) سورة هود / الآية ١١٤، والمعنى : أقم الصلاة المكتوبة على تمامها وكمالها أول النهار وآخره والمراد صلاة الصبح والعصر لأنهما طرفا النهار واختاره الإمام الطبري لأنه مروي عن ابن عباس، أما قوله ﴿ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ ﴾ أى ساعات منه قريبة من النهار، والمراد بهما المغرب والعشاء، فإن الأعمال الصالحة ومنها الصلوات الخمس تكفر الذنوب الصغائر لحديث : " الصلاة الخمس كفارة لما بينها ما اجتنب الكبار "، وقال المفسرون : المراد بالحسنات الصلوات الخمس واستدلوا على ذلك بسبب النزول وهذا قول الجمهور، والأظهر أن المراد بها العموم وهو اختيار العلامة بن كثير حيث قال : المعنى أن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث " ما من مسلم يذنب ذنبا فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له "، راجع / الإمام القرطبي / ج ٩ / ص ١٠٨، والإمام بن كثير / المختصر / ٢ / ٢٣٥، والإمام البيضاوي / ص ٢٥٨.

(٢) سورة الانسان / الآية ٢٦ وكذلك سورة ق الآية ٤٠ وأيضا سورة الطور الآية ٤٩.

(٣) الإمام الفخر الرازي / التفسير الكبير ج ٣٠ / ص ٢٥٨.

(٤) سورة البقرة الآية ١١١.

شُهَدَاءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْلِبُونَ^(١).

والمعنى : قل لهم يا محمد احضروا لى من يشهد لكم على صحة ما تزعمون أن الله تعالى حرم هذه الأشياء التي تدعونها من البحيرة والسانية وغيرهما، فإن حضروا وكذبوا في شهادتهم وزوروا فلا تشيد بمثل شهادتهم ولا تصدقهم فإنه كذب بحت، ولا تتبع أهواء المكذبين بآيات الرحمن الذين لا يصدقون بالآخرة وهم يشركون بالله غيره فيعبدون الأوثان^(٢).

ومن النسبية في الملكات الأساسية قوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾^(٣). وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر فكما لا يتساوى الأعمى مع البصير فكذلك لا يتساوى المؤمن المستنير بنور القرآن والكافر الذي يتخبط في الظلام ولا يتساوى كذلك الكفر والإيمان، كما لا يتساوى النور والظلام، وكذلك لا يستوى الحق والباطل، والهدى والضلال، كما لا يستوى الظل الظليل مع شدة حر الشمس المتوهجة، قال المفسرون : ضرب الله الظل مثلا للجنة وظلها الظليل، وأشجارها

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٠ وكذلك سورة البقرة الآية ٢٣ وأيضا البقرة الآيات ١٤٠، ٢٨٢، ٢٨٣.

(٢) البحر المحيط ج ٤ ص ٢٤٣.

(٣) سورة فاطر الآيات ١٩، ٢٣ وكذلك الآيات سورة الأنعام ٥٠ وسورة هود ٢٤، والرعد ١٦ وغافر ٥٨

راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / باب / الباء ص ١٢١.

البانعة تجري من تحتها الأنهار، كما جعل الحرور مثلاً للنار وسعيرها وشدة أوارها وحرها، وجعل الجنة مستقر للأبرار، والنار مستقراً للفجار فإن الجنة لا تستوى مع النار، وكذلك أهلها لا يستوون، وأيضاً لا يستوى العقلاء والجهلاء.

وترتيب هذه الأشياء في بيان عدم الاستواء جاء في غاية الفصاحة، فقد ذكر سبحانه وتعالى الأعمى والبصير مثلاً للمؤمن والكافر، فنكر ما عليه الكافر من ظلمة الكفر، وما عليه المؤمن من نور الإيمان، ثم ذكر مآلهما وهو الظل والحرور، فالمؤمن بآيمانه في ظل وراحة، والكافر بكفره في حر وتعيب، ثم ذكر سبحانه وتعالى مثلاً آخر على أبلغ وجه وهو الحي والميت، فالأعمى قد يكون فيه بعض النفع بخلاف الميت، وجمع سبحانه وتعالى الظلمات، لأن طرق الكفر متعددة، وأفرد النور لأن التوحيد والحق واحد لا يتعدد، وقدم الأشرف المثلين الأخيرين وهما: "الظل والحي" وقدم الأوضح في المثلين الأولين وهما "الأعمى والظلمات" ليظهر الفرق جلياً.

ولا يقال ذلك لأجل السجع، لأن معجزة القرآن الكريم ليست في مجرد انلفظ، بل في المعنى أيضاً، نلله سرُّ القرآن، فاشه عز وجل يسمع من يشاء إسماعه دعوة الحق، فيحبه بالإيمان ويشرح صدره للإسلام، وما أنت يا محمد بمسمع هؤلاء الكفار، لأنهم أموات القلوب لا يدركون ولا يفقهون، فكما لا تقدر أن تسمع من في القبور كتاب الله وينتفع بمواعظه، فكذلك من كان ميت القلب لا ينتفع بما يسمع وما أنت إلا رسول منذر^(١).

(١) البحر المحيط ج ٧ / ص ٢٠٨ وأيضاً الإمام الطبري ج ٢٢ / ص ٨٦ والإمام بن كثير / المختصر ج ٣ / ص ١٤٦.

وقوله تعالى ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾^(١)، وقوله تعالى ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢) وقوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَتَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٣).

(١) سورة لقمان / الآية ١٩. أى توسط في مشيتك واعتدل فيها بين الإسراع والبطء، واخفض من صوتك فلا ترفعه عاليا فإنه قبيح لا يجمل بالعقل، فإن أوجس الأصوات صوت الحمير، فمن رفع صوته كان مماثلا لهم. راجع الإمام القرطبي / ج٤ / ص ٧٠.

(٢) سورة النمل / الآية ٨٨. أى وترى أيها المخاطب الجبال وقت النفخة الأولى تظنها ثابتة في مكانها وواقفة وهي تسير سيرا سريعا كالسحاب.

قال الإمام الفخر : ووجه حساباتهم أنها جامدة : أن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد ظن الناظر إليها أنها واقفة مع أنها تمر مرأ سريعا، ذلك صنع الله البديع الى أحكم كل شيء خلقه وأودع فيه من الحكمة ما أودع انه عليم بما يفعل العباد من خير وشر، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء.

راجع / صفوة التفسير / للإمام الصابوني / ج٢ / ص ٤٢١، والإمام الفخر الرازي / مفاتيح الغيب / ج٢ / ص ٣٤.

(٣) سورة يس / الآيات ٣٨ / ٤٠.

وكل في فلك يسبحون، فهذه آية أخرى لهم : الشمس تسير بقدره الله في فلك لا تتجاوزه ولا تتخطاه لزمان تستقر فيه، ولوقت تنتهي إليه وهو يوم القيامة، حيث ينقطع جريانها عند خراب العالم.

ويقول العلامة بن كثير : في قوله تعالى ﴿لمستقر لها﴾ قولان : أحدهما : أن المراد مستقرها المكنى وهو تحت العرش مما يلي الأرض لحديث البخاري : أن النبي ﷺ قال : "يا أيها ذو الأثرى أين تغرب الشمس؟ قلت الله ورسوله أعلم، فن : فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش..." الحديث، والثاني : أن المراد بمستقرها هو منتهى هذا العالم إلى غايته، وقريه : "لا مستقر لها" أى لا قرار لها ولا =

ومن المجال الحيوى قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ

==سكون، بل هي سائرة ليلا ونهارا، لا تقتر ولا تقف، وذلك الجرى والدوران بانتظام وبحساب دقيق هو تقدير الإله العزيز في ملكه العليم بخلقه.

﴿والقمر قدرناه منازل﴾ أى قدرنا مسيره في منازل يسير فيها لمعرفة الشهور وهي ثمانية وعشرون منزلا، في قمانية وعشرين ليلة، ينزل كل ليلة في واحد منها لا يتخطاها ولا يتعدها، فإذا كان في آخر منزله دق واستقوس حتى صار كغصن النخل اليابس، وهو عقود الثمر حين يجف ويصغر ويتقوس.

قال ابن كثير : جعل الله القمر لمعرفة الشهور كما جعل الشمس لمعرفة الليل والنهار، وفاوت بين سير الشمس وسير القمر، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب في آخره، وتنقل في مطالعها ومغاربها صيفا وشتاء، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل، ثم يطول الليل ويقصر النهار، وهي كوكب نهاري، أما القمر فقدره منازل يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلا قليل النور، ثم يزداد نورا في الليلة الثانية ويرتفع منزلة، ثم كلما ارتفع ازداد ضياؤه حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر حتى يصير كالعرجون القديم أى الغدق اليابس وهو عقود الرطب إذا علق ويبس واتحنى ثم يبدأ جديدا أول الشهر الآخر فلا يمكن للشمس ولا يصح لها أن تجتمع مع القمر بالليل فتمحوا نوره، لأن ذلك يخل بتلوين النبات ومصلحة العباد، ولا الشمس يصلح لها ادراك القمر فيذهب ضوؤها نوره فتكون الأوقات كلها نهارا لا ليل فيها، ولا الليل يسبق النهار حتى يدركه فيذهب بضياؤه فتكون الأوقات كلها ليلا، وكل من الشمس والقمر والنجوم تدور في فلك السماء، والآيات الكريمات تظهر قدرة الله تبارك وتعالى في تسير هذا الكون بنظام دقيق فالشمس لها مدار، والقمر له مدار، وكل كوكب من الكواكب له مدار لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه، ولا يطغى أحدهما على الآخر حتى يأتى الأجل المعلوم بخراب العالم فيجمع الله بين الشمس والقمر فيختل نظام الكون وتقوم القيامة وتنتهى حياة البشرية عن سطح هذا الكوكب الأرضي.

راجع الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / جـ ١٥ / ص ٢٦، ٢٧، والإمام الطبري / تفسير الطبري / جـ ٢٣ / ص ٦.

رَقِيبًا^(١) وقوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾^(٢) وقوله ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٣) وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٤).

ومن ثم يمكن القول بأن مسلمي المشرق الإسلامي كانوا الأكثر حرصا على استيعاب ما جاء به النقل المنزل، والأسرع تطبيقا لما جاء فيه، ومن هنا جاء دور السبق لها على الفلسفة في المشرق الإسلامي.

(١) سورة النساء / الآية ١.

فقد افتتح الله جل ثناؤه سورة النساء بخطاب الناس جميعاً ودعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له منبهاً لهم على قدرته ووحديته وتخويفهم منه سبحانه وتعالى فهو الذي أنشأكم من أصل واحد وهو نفس أبيكم آدم، وأوجد من تلك النفس الواحدة زوجها وهي حواء، ونشر وفرق من آدم وحواء خلقت كثيرين ذكورا وإناثا، فخافوا الله الذي يناشد بعضكم بعضاً به حيث يقول أسألك بالله، وأنشدك بالله، واتقوا الأرحام أن تقطعوها إن الله كان عليكم حفيظاً مطلعاً على جميع أحوالكم وأعمالكم، وقد أكد الحق سبحانه وتعالى الأمر بتقوى الله في موطنين : في أول الآية، وفي آخرها ليشير إلى عظم حق الله على عباده، كما قرن سبحانه بين التقوى وصلة الرحم ليدل على أهمية هذه الرابطة الإنسانية فالناس جميعاً من أصل واحد، وهم أخوة في الإنسانية والنسب ولو أدرك الناس هذا لعاشوا في سعادة وأمان. راجع الإمام الصابوني / صفوة التفسير / ج ١ / ص ٢٥٨.

(٢) سورة الفرقان / الآية ٥٤.

(٣) الذاريات ٤٩.

أى ومن كل شيء خلقنا صنفين ونوعين مختلفين ذكر وأنثى وحلوا وحامض، ونجد ذلك كي نتذكروا عظمة الله فتؤمنوا به وتعلموا أن خالق الأزواج واحد أحد. راجع البحر المحيط / ٨ / ١٤٢.

(٤) سورة الحجرات / الآية ١٣.

ربما يقال إن وجود النصوص الشرعية حرك العقول في كل المسلمين، فلماذا اعتبرت هذا الوجه من عوامل ظهور التفكير الفلسفي الإسلامي في المشرق وسبقه على الآخر في المغرب!!!

والجواب : أن هؤلاء الذين تلقوا القرآن الكريم عن رسول الله - ﷺ - وصحبوه كانوا في المشرق أولا، فانتقال تلك المفاهيم بعد ذلك إلى المغرب الإسلامي وإنما جاء متأخرا بعض الوقت وهو ما دعى إلى القول بسبق الفكر الفلسفي في المشرق على قرينه في المغرب فما هي عوامل تأخر ظهور الفكر الفلسفي الإسلامي في المغرب الإسلامي ذلك ما سأخصه بالحديث في الفصل التالي إن شاء الله تعالى :

الفصل الرابع

عوامل ظهور الفلسفة الإسلامية
في المغرب الإسلامي

الفصل الرابع

عوامل ظهور الفلسفة الإسلامية

في المغرب الإسلامي

سلف القول بأن هناك عوامل قد أدت إلى ظهور النتاج الفكري الإسلامي في المشرق منذ وقت مبكر، وكان من ذلك الإنتاج الفكري، ما عرف بالحكمة الإسلامية، أو الفلسفة الإسلامية، لكن الدارس لتاريخ الفكر الفلسفي الإسلامي يرى ظهور بواكير له أيضا في المغرب الإسلامي، وفي نفس الوقت يواجه بالعديد من الأسئلة التي تدور في عقله، وتبحث عن إجابات محددة تقنع العقل المتأمل ذاته^(١).

ثم إن المفكر هو الذي يقوم بطرح هذه الأسئلة والعمل على إيجاد صور متعددة من الإجابة عليها، وبالتالي، فهو الآخر يطرح المزيد من الأسئلة فهو يتسائل :

- لماذا سبقت الفلسفة في المشرق؟
- لماذا تأخر ظهورها في المغرب؟
- أليس المشرق الإسلامي والمغرب الإسلامي سواء؟
- لماذا كان هذا التأخر الطويل الذي جعل الفلسفة في المشرق تسبق المغرب بفترات طويلة؟
- وتظل الأسئلة تأتيه من كل ناحية وهو يعمل على إيجاد إجابات لها، ولكنها ترند إلى بعض العوامل المحددة من أبرزها ما يلي :

(١) دكتورة / سامية محمود عبد العاطي / الفلسفة الإسلامية في المغرب / ص ١٣ / طبعة أولى ١٩٨٣.

العامل الأول : تأخر الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس ٩٢ / ٩٥ هـ

من الثابت لدينا طبقاً للمصادر التاريخية أن فتح الأندلس الإسلامي كان مما أخبر به الرسول الكريم - ﷺ^(١) - وهو من أخبار بالغيب المستقبلي، بدليل أن بلاد الأندلس قد فتحت بعد انتقاله ﷺ - إلى الرقيق الأعلى بفترة كبيرة، اقتربت من العقود التسعة^(٢).

ذهب العلامة ابن حزم إلى أن فاتح الأندلس من المسلمين الأوائل هم ثمانية الجماعتين اللتين أخبر عنهما رسول الله ﷺ في حديثه الشريف عن فضل الجهاد في البحر، ونقله المؤرخون في مصادرهم التاريخية أيضاً^(٣).

فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ كان يذهب إلى بيت خالته من الرضاعة - أم حرام بنت ملحان - زوج عبادة

(١) وذلك من دلائل نبوته ﷺ حيث دل على هذا الفتح العديد من النصوص الشرعية.

(٢) لأنه ﷺ انتقل إلى الرقيق الأعلى عام ١٠ هـ، والأندلس فتحت بداية عام ٩٢/٩٥ هـ، والفرق بينهما يزيد على ثمانين عام فلذلك اعتبرته مما أخبر به ﷺ على سبيل الغيب المستقبلي.

(٣) الشيخ / أحمد بن محمد المقرئ التلمساني / نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب / ج ٣ / ص ١٥٦، وما بعدها / تحقيق د / إحسان عباس / طبعة دار صادر / بيروت ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م، وقد نقل ابن حزم ذلك بتفصيل أرى ضرورة الرجوع إليه.

بن الصامت - رضي الله عنه^(١) - ، فدخل عليها رسول الله ﷺ ثم مكث عندها قليلاً فأخذته سنة من النوم، ثم استيقظ وهو يضحك ﷺ فقالت : ما يضحكك يا رسول الله؟^(٢) فقال رسول الله ﷺ أرئت أناساً من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج البحر^(٣)، ملوكاً على الأسرة، أو مثل الملوك على الأسرة، قال قلت يا رسول الله : أدعو الله أن يجعلني منهم، فدعا لها بما طلبته، ومن رسول الله التمسته .

ثم وضع ﷺ رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك أيضاً قالت فقلت يا رسول الله ما يضحكك؟ قال أناس من أمتي عرضوا على غزاة في

(١) عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الإمام القدوة أبو الوليد الأنصاري أحد النقباء ليلة العقبة ومن أعيان البدرين سكن بيت المقدس، حدث عنه أبو أمامة الباهلي وأنس بن مالك وأبو مسلم الخولاني ...، وآخرون، وهو ممن جمع القرآن في زمن النبي ﷺ، ومن أقواله : ألا تروني لا أقوم إلا رفداً ولا أكل إلا مالوق يعني لبن وسخن وقد مات صاحبي منذ زمان يعني ذكره وما يسرنى أني خلوت بامرأة لا تحل لي وإن لي ما تطلع عليه الشمس مخافة أن يأتي الشيطان فيحركه على أنه لا سمع له ولا بصر، ومات رحمه الله بالرملة سنة أربع وثلاثين وهو ابن ثنتين وسبعين سنة. (راجع أعلام النبلاء ج٢ / ص ٥ رقم ١).

(٢) وهذا مما يؤكد أن صحابة رسول الله ﷺ كانوا يسألونه ﷺ في كل ما يعن لهم حتى ولو كان أمراً قليلاً أو خاصاً به ﷺ.

(٣) الثبج : هو وسط الشيء إذا تجمع وبرز، والوقوف على أطرافه أو أحدهما هو الثبج، ومنه ثبج البحر، ويقال في الحسيات كما يقال في العقليات أيضاً، راجع / لسان الميزان / باب الثاء / ص ٣٨٢، والمعجم الوجيز باب الثاء / ص ٨٢ / طبعة وزارة التربية والتعليم ١٩٩٢.

سبيل الله، كما قال في الأولى، قالت: قلت يا رسول الله: ادعو الله أن يجعلني منهم، قال أنتى من الأولين، فركبت أم حرام بنت ملحان البحر مع معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت^(١).

يقول علامة الأندلس ابن حزم، وهذا مما أوتيته رسول الله ﷺ من جوامع الكلم وفصل الخطاب وأمر بالبيان لما أوحى إليه، إذ أنه ﷺ قد أخبر في الحديث الشريف المتصل بالسند العدل عن العدل أن طائفتين من أمته ﷺ سيركبون ثبج البحر غزاة واحدة بعد واحدة^(٢)، فسألته خالته من الرضاغة "أم حرام" أن يدعوا ربه عز وجل حتى جعلها منهم بحيث تنال شرف الجهاد، وفي سبيل الله عن هذا الطريق أيضاً، فأخبرها ﷺ وخبره الحق بأنها ستكون من الأولين، وليست من الآخرين^(٣).

ثم يقول ابن حزم، وهذا من أعلام نبوته ﷺ ومن أخباره بالشيء قبل كونه، فوضح بالبرهان أنه دليل على صدق رسالته، وقد تحقق كل ذلك، فكانت "أم حرام" من الفاتحين إلى قبرص عام ٢٨ هـ، في عهد الخليفة الثالث - ذى النورين - عثمان بن عفان - رضى الله عنه - في الحملة التي قادها معاوية بن أبى سفيان - رضى الله عنه - وأنها قد خربت عن بغلتها هناك فتوفيت رحمها الله تعالى، وذلك مما يؤكد أن

(١) الإمام الحافظ المنذرى / الترغيب والترهيب / ج٢ / ص ٤٥، ٤٦، ومختصر الإمام مسلم أيضاً.

(٢) الشيخ / أحمد بن محمد المقرئ / نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب / ج٣ / ص ١٦١.

(٣) ومعنى هذا أن فتح بلاد الأندلس قد سبقه فتح آخر وفتوحات كثيرة احتاج الصحابة فيها إلى ركوب ثبج البحر، وهذا ما أكنته الفتوحات الإسلامية التي تمت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وعلى بن أبى طالب، ثم استكملها بنو أمية فيما بعد.

الجهاد في الإسلام كان يتسابق إليه الرجال والنساء دون انتظار لأمر أكر وأن كل فرد منهم كان يسعى للشهادة سعيه للقاء الله عز وجل.

وكانت هذه الغزوة مع معاوية - رضى الله عنه - هي أول مرة يركب فيها المسلمون البحر، فثبت أن الذين ذهبوا إلى قبرص حتى يفتحوها هم الأولون الذين بشر بهم الرسول الكريم ﷺ، وكانت "أم حرام بنت ملحان" هذه منهم كما أخبر بذلك النبي ﷺ وخبره الصدوق^(١).

أما الغزوة الثانية من الغزوتين اللتين أخبر عنهما رسول الله ﷺ فكانت حين جهز المسلمون أنفسهم لفتح الأندلس بناءً على الإلتماسات التي قدمها أهلها من أهل الإسلام هناك، وغيرهم للخليفة الأموي حتى يدخلوا في الإسلام أمناً وحماية، وينقذهم من المعاملات السيئة التي يقوم بها الجيش القوطي ضدهم، حيث لا يفرق جنوده بين محارب، ومسلم، ولا بين صحيح أو سقيم، وفي نفس الوقت، فإن تكيلهم بالمسلمين القلائل كان كبير، وحماية المسلمين واجب شرعي^(٢).

وأن هذه الغزوة كانت بتكليف "الموسى بن نصير" الذي اختار قواد الفرق العسكرية التي ستعمل معه، ومن بين هؤلاء القواد "طارق بن زياد"، وقد نجح طارق بن زياد في تحقيق الأهداف التي ارتبطت به، وفتح الله للمسلمين بولكير بلاد الأندلس عام ٩٢هـ، ثم ظلت الفتوحات الإسلامية لتلك البلاد متواصلة حتى تم فتح أغلبها في عام ٩٥هـ^(٣)، وبالتالي استمرت عمليات الفتح للأندلس فترة أخرى، حتى صارت كلها

(١) الشيخ / أحمد بن محمد المقرئ / نفح الطيب / ج٣ / ص ١٦١ وما بعدها.

(٢) دكتور / محمد حسيني موسى / ملامح الحكمة الإسلامية في المغرب / ج١ / ص ٤١.

(٣) العلامة الإدريسي / نزهة المشتاق / ص ١٧٧.

تحت رعاية المسلمين يقومون فيها بشرع الله، ويعملون على تبليغ دينه إلى أهل تلك البلاد.

ومن ثم فالإخبار بالغيب الذي ذكره سيدنا محمد ﷺ قد تحقق على ما هو معروف من أن الإخبار بالغيب أحد العلامات الهامة في الدلالة على صدق ما جاء في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وقد تحقق كل ما أخبر به الرسول الكريم ﷺ.

من المؤكد أن الفتح الإسلامي للأندلس لم يكن فتحاً واحداً، وإنما كان هناك فتحات :

- الأول : فتح جزنى : وهو الذي ابتدأ من عام ٩٢ / ٩٥ هـ.
- الثاني : فتح عام : وهو الذي شغل الفترة من ٩٥ إلى ١١٥ هـ.

حيث ظهرت دولة بنى أمية الثانية في الأندلس.

ومما سبق اتضح أن تأخر الفتح الإسلامي للمغرب الإسلامي قد قارب ما يزيد على مائة عام، إذ لا يمكن حسابان فترات الاضطراب أو القلق السياسى، والأعمال العسكرية ممهدة لظهور بواكير فكرية، أما وقد استقرت الأحوال في الأندلس بعد ذلك، وراح الناس يتعرفون أصول العقيدة الإسلامية الصحيحة مباشرة، ويتفهمون الأحكام الشرعية على سبيل التطبيق لها، فلا بد أن تبرز نتائج هامة قد تمهد لظهور فكر فلسفى جديد^(١).

وقد قرأ أعماقهم العمل بالعقيدة، وضرورة تطبيق الشريعة قراراً لا مفر منه بعد الفتح الإسلامي العام، على أن هذا قد استغرق وقتاً ليس

(١) دكتور / فوزى محمد عبد المعز / أثر المسلمين في الأندلس / ص ٧٥ / ط أولى سنة ١٩٨٣.

بالقليل، فإذا عرفنا أن القرن الثاني الهجري هو المعتبر كبداية حقيقة للفتوحات، فمن المؤكد أن هذا القرن قد شهد بعض بواكير التفكير الفلسفي الإسلامي في المغرب، ويعلل أحد الدارسين هذا إلى أن الفتح الإسلامي للأندلس قد اتسم بالقوة والسرعة وهذا لا يرجع إلى تفوق المسلمين في القوة العسكرية أو السلطة السياسية وإنما يرجع إلى انحياز المسلمين الأوائل المخلصين إلى العقيدة الإسلامية التي سرعان ما يدخل الناس في رحابها أفواجا، وتلك العقيدة الغالية التي يفتديها المسلمون بالنفس رخيصة، لرفع شأنها، كما استهانوا بالصعاب التي واجهتهم في سبيل بقاء تلك العقيدة الصافية^(١).

أجل : كانت التضحيات كثيرة، وكان الجهد الذي يستغرقه الفتح الإسلامي لتلك البلاد كبيرا جدا، كما كانت الدروب شاقة عويصة، وكان المناخ شديد في قسوته، والجو غريبا في طبيعته، والأرض متصخرة عنيفة، والأفراد الذين كان "القوط" يتحكمون فيهم متوجسين الخوف لكن مستوى العقيدة الإسلامية في تلك النفوس الفاتحة كان أعلى من كل هذه وأكبر، بل كان شوقهم إلى الفتح هو الذي يدفعهم دفعا لمواجهة تلك الصعاب وتخطيها.

وكيف لا، ورسول الله ﷺ يقول : "عينان لا تمسهما النار : عين باتت تحرس في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله"^(٢)، كما أن رسول الله ﷺ بين فضل الجهاد وفضيلة المجاهدين، وأن الشهداء ذكر موقفهم

(١) دكتور / عبد المنعم حامد المرسى الصاوي / معالم الحضارة الإسلامية في الأندلس / ص ٤٣ طبعة أولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

(٢) الحديث ذكره الإمام الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب ج ٢ / ص ١٥٩، والإمام السيوطي ج ١ / ص ٥٩٢.

القرآن الكريم بأنهم باعوا أنفسهم لله، وحصلوا على الجنة، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١).

أى اشترى أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة، وهو تمثيل في ذروة البلاغة والبيان لأجر المجاهدين، فقد مثل تعالى جزاءهم بالجنة على بذلهم الأموال والأنفس في سبيله بصورة عقد فيه بيع وشراء، قال الحسن : بايعهم فأغلى لهم الثمن، وانظروا إلى كرم الله - تعالى - أنفسا هو خلقها، وأموالها هو رزقها، ثم وهبها لهم ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالى، فإنها لصفقة رابحة، وقال بعضهم : ناهيك عن بيع البائع فيه المؤمن، والمشتري فيه رب العزة، والثمن فيه الجنة، والصك فيه الكتب السماوية، والواسطة فيه محمد ﷺ، يجاهدون لأعزاز دين الله، وإعلاء كلمته، فيقتلون ويقتلون وذلك في حالتي الظفر بالأعداء يقتلهم أو الاستشهاد في المعركة بموتهم، وعدهم الله وعداً قاطعاً مثبتاً في الكتب المقدسة : التوراة، الإنجيل، القرآن، ولا أحد أوفى من الله تعالى.

قال الإمام الزمخشري : لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق، فكيف بالغنى الذي لا يجوز عليه القبيح؟ ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ فأبشروا بذلك البيع الرباح، وافرحوا به غاية الفرح، فهو الفوز الذي لا فوز أعظم منه^(٢).

(١) سورة التوبة / الآية ١١١.

(٢) الإنشام الطبري / تفسير نصيري / ج ١١ / ص ٣٥، والإمام تنخري الرازي / مفاتيح الغيب / ج ١٦ / ص ١٩٩، والإمام الزمخشري / الكشف / ج ٢ / ص ٣١٤.

وكذلك جاء الحديث الشريف الذي يقول فيه الرسول الكريم ﷺ :
 "ما من ميت يحب أن يرجع إلى الدنيا إلا الشهيد لما له من المكانة وما يرى من الأجر"^(١).

ومن ثم انساب الفاتحون المسلمون في شوطهم هذا بسرعة حتى بدت للآخرين كأنها نزهة، انها حياة روحية، وتضحية مثالية، غايتها إعلاء كلمة الله في الأرض وهي مجلبة لراحة المؤمن، كما أنها فرحة بنصر الله ان عاش، وجنته ان استشهد لقوله ﷺ : تضمن الله للمجاهدين في سبيله أن يعودوا بأحد أمرين : إما النصر وإما الشهادة^(٢).

إذ ليس من اليسير أن تبدأ العمليات العقلية الفكرية بالاندلس على سبيل الإبداع في مجال الميتافيزيقا التأملية، أو النقدية إلا بعد أن يستتب العمل العسكري، ويستقر الجهاز الإداري، ويطمئن الناس على أمنهم وأمانهم، وأن يتحول المفكرون إلى قواعد ثابتة وجماعات متألفة بحيث يستفيد كل من الآخر ولن يكون ذلك ممكناً إلا بعد نهاية القرن الثامن الهجري على أكثر تقدير، وذلك مما يفسر أسباب تأخر ظهور الفكر الفلسفي الإسلامي في المغرب على نظيره في المشرق بحوالي قرنين من الزمان، وذلك له أهمية كبرى من وجهة نظرنا متى حاولنا الإجابة على السؤال التقليدي وهو :

لماذا تأخر ظهور الفكر الفلسفي الإسلامي في المغرب عنه في المشرق؟

(١) الحديث ذكره الإمام البخاري في باب الجهاد

(٢) الشيخ / محمد عبد المنعم عبد العظيم الدوماني / الجهاد في الإسلام / ص ٣١ / طبعة أولى / دار موسى / ١٩٣٨.

ومن المؤكد أيضاً أنه في ظل الاضطرابات السياسية، والعمليات العسكرية وتدخل الواقع الاجتماعي، وظهور عمليات الانحراف، واستغلال الفرص التي يلجأ إليها أصحاب الطرق الملتوية تمثل صورة من صور القلق الفكري وذلك لا يساعد على ظهور أعمال عقلية أو فلسفية خالصة.

من المؤكد أن عمليات الفتح الإسلامي للأندلس قد تمت في سرعة، لكنها لم تكن على وتيرة واحدة، كما لم تشمل كل المناطق في وقت واحد، لما هو معروف من أن "البربر والقوط" وغيرهم كانوا يناهضون المسلمين، ويعملون على تفتيت الجيش المسلم بأية صورة من الصور، كما كانوا يسارعون إلى الوقعة بين المسلمين وغيرهم، وبالتالي فقد كانت هناك مشاغبات ومناوشات بجانب تركيبات اجتماعية ودينية وعرقية، في نفس الوقت فإن الأندلسيين كانوا خليطاً من جماعات "البربر" و"الأيبيريين" بجانب "الوندال" و"القوط".

ولم يكن لدى الجميع استعداد نفسي أو ذهني واحد، وبناء عليه فقد كان المسلمون يلاقون صعوبات كثيرة أثناء الفتح وكلها كان يقوم بها خصوم الحق الراغبون في استبعاد العباد^(١).

كما كان هؤلاء المشاغبون يعملون على إيجاد عثرات أمام جيوش المسلمين وإشاعة الأفكار السوداء عن الغاية من هذا الفتح، بدليل ظهور بعض العمليات الإرشادية^(٢).

(١) دكتور / بكرى عبد الوارث السيد / الفتح الإسلامي للأندلس / ص ٥٩ / طبعة أولى ١٩٥١ م.

(٢) راجع في هذا الشأن للعلامة / الحميري / الروض المعطار، ولابن المقرئ / فتح الطيب، ولابن خلدون / العبر، وللدكتور حسين مؤنس / فجر الأندلس،

كذلك واجه المسلمون الأوائل بعض صعوبات أخرى تمثلت في انتمسك "القوط" و"الأبييرين" وكذلك "الوندال" و"البربر" حقيقتهم في أعمال إدارية بعينها أو ممارسة قيادات في حدود إدارات بذاتها، فلما لم يجيبهم المسلمون إلى ذلك حاولوا الطعن عليهم، كما عملوا على تشتيت الناس من حولهم، ومن ثم فقد حرص بنو أمية على أن تكون تلك القيادات في أيديهم أنفسهم بحيث لا يقع للغير أي صورة من صور الابتزاز، وذلك من شأنه أن يؤخر ظهور التفكير الفلسفي في المغرب لبعض الوقت.

كما أن بنو أمية قد أظهروا نوعاً من التصلب في الرأي أول الأمر، واستثناء بالحكم، بحيث انقسم حكم بنو أمية في الأندلس إلى جملة من العصور :-

أ) عصر الإمارة التابعة لبنو أمية :

وهذا العصر يبدأ من عام ٩٥هـ وينتهي بعام ١٣٨هـ، واستمر قرابة ستة وأربعين عاماً.

ب) بداية الفتنة :

وهو عصر الإمارة المستقلة، ويبدأ من عام ١٣٨هـ بمجيء / عبد الرحمن الداخل للأندلس وقيادته له حتى إعلانه الاستقلال التام من الخلافة لعباسية، ومعادتها على يد / عبد الرحمن الناصر - الثالث - ٣١٦هـ-٩٢٩م.

وللأساذ / محمد عبد الله عان / دولة الإسلام في الأندلس، وللعلامة السلاوي / الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، وللعلامة بن عزاري المراكشي / البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.

وهذا من شأنه أن يصور لأهل تلك البلاد ومن يتعامل معهم، بأن المسلمين ربما يحولون بلاد الأندلس إلى حكم ورأى، يشبه تماماً الذي كانت تقوم به الجماعات القوطية، والجماعات الأيبيرية، وذلك من شأنه أن يدفع الناس إلى مقاومة الفتح الإسلامي أول الأمر، أو على الأقل يساهم هؤلاء في انتصار طلبة الأعمال الدنيوية من القيادات القديمة، وذلك من شأنه أن يقلل من طبيعة أولئك الذين يفتحون البلاد، كما يباعد بينهم وبين الرغبة في التمسك بالقيادات الجديدة.

ومن ثم فإن هذه المرحلة الأولى كانت فيها اضطرابات سياسية بعضها كان هادئاً نسبياً، وبعضها كان قلقاً عنيفاً، بل ربما أدى ذلك إلى تهديد وجود المسلمين أول الأمر بالأندلس نظراً لابتعاد السلالات وتكاثر الأجناس واختلاطها بين أسبوي عربي، وبربري أفريقي، وأسباني أوريبي، وقوطي غير معروف مصدره^(١).

ويذكر الأستاذ: محمد عبد اللطيف العبد : أن ظهور طبقات عديدة في ذلك المجتمع الجديد جعل بعضها يتناحر مع البعض الآخر، ويسعى لغلبته وذلك من شأنه أن يشغل الناس بأمور بعيدة عن التفكير العنثي^(٢).

ويذكر المؤرخون أن دولة بنى أمية، لما انتهت تماماً في المشرق الإسلامي عام ١٣٨هـ كان يوسف بن عبد الرحمن الفهري المضري والياً لبنى أمية على الأندلس، من غير أن توافق الخلافة الأموية على

(١) العلامة / الأمير شبيب أرسلان / الحل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية / ج١ / ص ٢٤٦ / ط أولى / المطبعة الرحمانية / ١٣٣٥هـ-١٩٣٦م.

(٢) الأستاذ / محمد عبد اللطيف العبد / دور الفقهاء في الأندلس / ص ١٨٧ / ط أولى ١٩٦١.

تشبته في الولاية، إذ كان منتزعا لها، وظل عشر سنوات واليا على الأندلس، فلما سقطت الدولة الأموية في المشرق، فرَّ عبد الرحمن الأموي آخر أمراء بني أمية إلى المغرب ثم عبر إلى الأندلس، فانضم إليه جموع غفيرة، فقاومه يوسف الفهري، إلا أن مقاومته انقضت في معركة "المسارة" التي هُزم فيها عبد الرحمن الفهري وانتصر عبد الرحمن الأموي، وبويع بالإمارة في الأندلس، واستقل بها فكان ذلك بداية قيام الدولة الأموية الثانية بالمغرب والأندلس وقد نجح عبد الرحمن الأموي في القضاء على الزعامات المحلية والعناصر الناقمة ومن ثم كانت البلاد غير مهيأة لإنتاج فكر فلسفي جيد^(١).

من ثم فلم يكن هذا الموقف يسمح بممارسة أعمال فكرية جيدة، كما لم يسمح بظهور اتجاهات علمية، لأن الوقت لم يكن مناسباً، كما كان المسلمون معنيين بإنشاء مراكز ثابتة تحقق العدالة بين الناس وتسعى إلى توفير الأمن والأمان لهم.

وبناءً عليه، فقد ظهرت بعد ذلك العمليات العقلية المستقرة، وهو ما كان أحد أسباب تأخر ظهور الحكمة الإسلامية في المغرب الإسلامي.

(١) العلامة أبو عبد الله ابن الأثير القضاعي / الحلة السرياء / ص ١٩٨ / تحقيق / عبد الله أنيس الطباع / دار النشر للجامعيين / بيروت / ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م، وراجع للأستاذ / نور الدين عبد اللطيف / الأندلس الإسلامي / عصر الولاية والأمراء / ص ٣٧٩ الطبعة الثالثة / ١٩٧١ م.

❦ العامل الثاني : وجه قول من تصوم الإسلام بالإنطلاق :

عرفت أن الإسلام دين الحق والعدل والإنصاف، فلما ظهر في المجتمع القرشي أول الأمر كانت هناك ديانات متعددة، واتجاهات متباينة، حيث انتشرت بين البعض العقائد الوثنية، كما كانت هناك المسيحية المجرفة، واليهودية الزائفة، والديانات الفارسية والهندوكية وغيرها ممن كان نه وجود بالشرق الإسلامي.

فلما رأوا الإسلام يساوي بين الجميع، فلا رئيس ولا مرؤوس أمام الله، ولا سيد ولا عبد إلا الله، كرهوا أن يتساووا مع الفقراء كما كرهوا هذا الدين الذي يساوي بين الرئيس والمرؤوس، بين العبد والسيد، وبناء عليه هربوا من المشرق الإسلامي إلى المغرب وبخاصة بلاد "إيبيريا، والوندال، وأشبيلية، وغرناطة" وغيرها.

- ربما يقال : لماذا كان هذا الهرب؟

والجواب : أنهم حينما كانوا بالشرق، فقد كانوا يحلمون بالسلطة، كما تداعبهم خيالاتهم في الإمساك بزمام الأمور، فلما انتهى أمر هذه الجماعة بدخول الإسلام وظهوره، ينسوا من أن يمسكوا بزمام السلطات، كما رأوا الناس انطلقوا في المشرق إلى الإسلام يؤمنون به، ويعتقدون فيه ويتمسكون بكل تعاليمه، ويطبقون كافة أحكامه، ويدافعون في سبيل ذبوعه وانتشاره^(١)، ويبذلون كل جهودهم بغية تحقيق ذلك السبيل غير هيايين بشيء يلاقونه من جراء ذلك.

في نفس الوقت فإن عظمة الإسلام تكمن في نصوصه الموثقة وتعاليمه السمحة الميسرة، وأحكامه القائمة على القواعد الثابتة التي

(١) دكتور / محمد عبد اللطيف السيد / قوة المسلمين من دينهم / ص ٧١ / طبعة دار الوفاء ١٩٨٣م.

يمكن تطبيقها على الناس جميعاً باعتبار أنه دين الله تعالى للناس أجمعين قد جعلت كل من ينظر إليها بعقل متجرد يتجه ناحية الاعتقاد فيها، والإلتزام بما تقرضه تلك العقيدة على المؤمنين بها في الجانب الإيماني الاعتقادي أولاً، ثم يأتي الجانب العلمي المعرفي ثانياً.

حينئذ قرر الكثيرون من المسيحيين واليهود، والوثنيين، وطالبي السلطة، وراغبي امتصاص دماء الآخرين الهرب الفردى من أرض المشرق، جزيرة العرب التي استتارت بالوحى والمعرفة التي جاء بهما الإسلام، ولم تعد قابلة لتلك الأفكار التي يرددها الوثنيون^(١).

من ثم ظهرت فكرة الهرب الجماعى لهؤلاء، والاتجاه نحو الأندلس البعيدة حتى يقيموا هناك، إذ كانت تلك البلاد محتلة "بالقوط" و"الوندال"، كما كان الوثنيون يحتلون فيها مراكز عالية، حينئذ قرر هؤلاء الهاربون أن يعدوا أنفسهم لمكاسب تعلقوا بها في المغرب لم تحقق لهم في المشرق، ظانين أن الإسلام دين محلى، سيتوقف عند حدود جزيرة العرب، وأنه إذا امتد فلن يزيد عن البلاد المحيطة به، وسوف يستغرق ذلك الامتداد فترات زمنية طويلة قد تستنفذ طاقات وأعمار وأجيال كاملة^(٢).

وما درى هؤلاء أن الإسلام لما كان هو الدين الخاتم العام الشامل، وأنه سيزحف إلى كل أرجاء الأرض حتى يعمرها وتستضيئ بأنواره وتبلغ دعوة الله إلى الخلق أجمعين.

(١) أستاذ / عيد الحى خليل المتولى / دراسات في الملل الوثنية / ص ١٤٧ طبعة أولى ١٩٥٣م.

(٢) الشيخ / محمد نصر الدين البتانونى / أثر المعاهدين في سقوط الأندلس / ص ١٥٣ طبعة أولى ١٩٣٨م.

فلما أقام هؤلاء الهاربون بالأندلس، حاولوا تثبيت أنفسهم فيها مستخدمين الطرق والأساليب التي أجادوها، وكذلك حاولوا إيجاد أوضاع ومراكز ثابتة لهم في نفوس أهل تلك البلاد الذين كان أغلبهم من القبائل المختلفة النازحة إلى شبه جزيرة "الأيبيريين" التي سميت باسمهم وأطلق عليها الفينيقيون قديما اسم أسبانيا، ومعناها : الأرض التي سبيت للأخريين^(١).

وكان يشارك هؤلاء تلك المنطق السكونية جماعات من "الوندال والسويف" الذين أسسوا مملكة لهم على نهر الوادي الكبير سميت باسم : "فينداليسيا" وقد أخذت منها كلمة الأندلس فيما بعد، ومعناها : الأرض الطيبة الخضراء^(٢).

وكان في هذه البلاد العديد من الجماعات المختلفة، والشعوب المتباينة الذين تملكوا هذه البلاد على سبيل الاحتلال والاعتصاف في القرن الخامس الميلادي^(٣)، وظلوا بها حتى فتحها المسلمون عام ٩٢ هجرية الموافق ٧١١ ميلادية، فمكثوا بها ما يزيد على عامين كانوا يوتقون أعمالهم، ويثبتون أقدامهم، ولم يكن لأهل تلك البلاد من قدرة على مقاومة هؤلاء المحتلين الذين دمروا كل شيء في سبيل أن يكون لهم مجد ثابت.

من المؤكد أن المجتمع الأندلسي حينئذ كان يتكون من بقايا "الوندال" الذين هم إحدى القبائل الجرمانية "المتبربرة"، وبعض

(١) أستاذ / بركات محمد علي شحاته / الأندلس قبل الإسلام / ص ١٢١ طبعة أولى ١٩٥١م.

(٢) دكتور / علي أحمد عبد اللطيف / المجتمع الأندلسي قبل الإسلام / ص ١٨٥ طبعة أولى ١٩٥٧م.

(٣) الشيخ / أحمد بن محمد المقرئ التلمساني / نفح الطيب / ج ١ / ص ١٣١ وما بعده.

الجماعات "القوطية"، بجانب بقايا اليونان والفينيقيين، وقبائل السويف الذين احتلوا المدن الأندلسية الرئيسية^(١).

وكذلك كان بدو تلك البلاد وحضرها من قرطبة وأشبيلية وغرناطة وطليلة، ومالطة وغيرها من بلاد الأندلس، تتوزع فيها جماعات ممثلة لتلك الطوائف التي سلف ذكرها، فلما هرباقلول المسيحية واليهودية والوثنية من المشرق الإسلامي، وجدوا الأرض في الأندلس صالحة لاستقبال بذورهم.

لأن الجماعات الموجودة حينئذ لم تكن تمثل مجتمعا ذا طبيعة ثابتة، أو يحمل صورة متكاملة من خلال قواعد وقوانين، وبالتالي استقل هؤلاء الهاربون طبيعة تلك المجتمعات، واستعملوا حيلهم في الوقعة بين أفراد وقيادات هذه الجماعات.

ونظرا للطبيعة اليهودية، والرغبة العدوانية في تحريك الطوائف على بعضها وبذر الفتنة بين أجزاء الجسم الواحد، فقد حقق هؤلاء الكثير من النجاحات في هذا الطريق، لأنهم مارسوا لعبتهم على أوسع نطاق مغلفين أهدافهم التدميرية في صور اجتماعية، مستغلين ما لديهم من خبث ومكر ودهاء، في مقابلة ما يعيش بداخله أولئك الهمج الرعاع^(٢).

ولما كانت هذه النتائج الشيطانية قد أفرزت صراعات كثيرة فقد أسست أيضا نظاما طبقيا سارع في تأكيد تلك الصراعات، والمساهمة في اشعال نيرانها التي لم تنطفأ، حيث عمد هؤلاء الهاربون إلى إيجاد نظام طبقى اجتماعى يتكون من :

(١) أستاذ / بركات محمد على / الأندلس قبل الإسلام / ص ١٢٧.
(٢) دكتور / محمد السيد عبد الكريم / المجتمع المختلط وأثره في الثقافة / ص ١٢١ طبعة أولى ١٩٨٣م.

١- طبقة النبلاء :

وهي الطبقة الحاكمة التي كانت أعمدها من القوط المستعمرين الذين يتمتعون بكافة الامتيازات، ويمثلون الطبقة الحاكمة، والأسرة المالكة، وهم الذين بيدهم كافة الأمور على أن يكون اليهود النازحون هم المستشارون لهم، وبالتالي يكون اليهود هم الحاكمون الفعليون^(١).

من ثم اندفع كل قبائل السويف وبعض النازحين إلى سكنى شمال البلاد وأقاموا فيها وأخذوا اليهود كمستشارين لهم، وكذلك عمل المسيحيون في الأعمال الإدارية، أما الوثنيون من الفرس، فقد كانوا يقومون بأعمال خدمية لهؤلاء النبلاء، وبالتالي فكانوا يحرصون على تلك المواقع بكل ما أوتوا من قوة^(٢).

أما طوائف "الوندال" فقد انطلقوا إلى الجنوب هرباً من قسوة طبقة النبلاء التي ظلت متمسكة طيلة القرن الخامس والسادس الميلادي، فلما جاءت مطالع القرن السابع تهاوى نظامها، وانقضى أمرها، وسقطت أعلامها تحت أقدام الفاتحين المسلمين الذين مكن الله لهم من أهل تلك البلاد.

(١) دكتورة / سناء عبد الحميد سلطان / تتازع السلطات في أسبانيا قبل الإسلام ص ١٩٠ طبعة أولى ١٩٦١ دار أبو عزيزة بالمغرب وكذلك دكتور / محمد عبد الكريم السيد / النظام السياسي في الأندلس قبل الإسلام ص ٩١ طبعة أولى ١٩٦١.

(٢) دكتور / فوزي محمد عبد المعز / أثر المسلمين في الأندلس / ص ٧٧.

٢. الثانية : طبقة رجال الكنيسة :

وهم الذين فرضوا أنفسهم على سكان تلك البلاد على الناحية الدينية^(١)، وكانت لهم بعض المكانة في نفوس كبار رجال هذه القبائل الذين راحوا ينظرون إليهم نظرة المخلص والمنقذ من مساويء الطبقة الحاكمة، وكان اليهود النازحون وكذلك المسيحيون يعملون على تركية هذا الجانب في نفوس كبار رجال هذه القبائل في شكل دائم، وعمل متواصل مستمر.

غير أن ذلك الأمر لم يكن على وجه التقيض، أو في محله اللائق، إذ أن رجال الكنيسة كانوا هم الآخرين ثلة من المنتفعين، وبالتالي فقد حرصوا على خداع هؤلاء البسطاء، بدليل أنهم كانوا يظهرون لهم غير ما يظنون، بينما هم في حقيقة الأمر يستمتعون بمقاسمة طبقة النبلاء حكم البلاد وخيراتهم أيضا^(٢).

أما عامة الناس فكان رجال الكنيسة في نظرهم يمثلون صور التقوى والزهد كما يمثلون شكل الطهارة أو النقاء بينما هم في الحقيقة على العكس من ذلك تماما انهم شياطين مرده، فلما اكتشف أمرهم ظهر له الأثر السلبي على المجتمع الأندلسي كله، وشأن هؤلاء أن يحافظوا على مواقعهم التي اكتسبوها، فلما جاء الإسلام قاوموه بكل ما يملكون، غير هيايين بشيء آخر، وذلك من شأنه أن يؤخر ظهور التفكير الفلسفي الخالص.

(١) دكتور / حسين مؤنس / فجر الإسلام في الأندلس / ج٢ / ص ١٥ وما بعدها / طبعة القاهرة ١٩٥٩.

(٢) دكتور / محمد بحر عبد الحميد / اليهود في الأندلس / ص ١٣٧ / طبعة أولى ١٩٨٤ / مطبعة / سعيد رافت بالقاهرة.

❦ الثالثة : طبقة التجار والزراعي والملوك :

وهم الذين تنحصر ملكياتهم في قطع صغيرة أقل بكثير من طبقة النبلاء، وهم في ذات الوقت الذين يتحملون الضرائب المختلفة، كما يقومون بالأعمال التي يوكل إليهم القيام بها سواء من قبل طبقة النبلاء أو رجال الكنيسة، لقد كانوا في أغلب الأحوال أشبه بالخدم الذين يجبرون على القيام بأعمالهم غير راضين عنها إلا أن السلطة الحاكمة هي التي تفرضها عليهم.

أجل كان هؤلاء غير راضين عن أداء السلطة الحاكمة، أو تصرفات أفرادها الذين يقومون بالاستغلال الدائم لخيرات تلك البلاد، ووجهوا أهلها، كما لم يكونوا راضين عن رجال الكنيسة الذين يظهرون خلاف ما يبطنون^(١).

وفي نفس الوقت فلما جاءهم النازحون من المشرق أوعزوا إليهم بالمخالفة لهذه الأوامر، وأفهموهم أن من حقهم الاعتراض على تلك التصرفات غير المقبولة وبناءً عليه استعان هؤلاء باليهود والمسيحيين والجماعات الوثنية حتى يكونوا طبقة متكاملة في مواجهة كل من طبقات النبلاء ورجال الكنيسة.

(١) دكتورة / سناء عبد الحميد / تنازع السلطات في أسبانيا قبل الإسلام / ص ١٩٧.

الرابعة : طبقة عبيد الأرض :

وهم الذين يتبعون مالك ذات الأرض أيا كان نوعه، فإذا كان مالك الأرض "ليبيريا" فإنهم يكونون تبعاً له، وإذا كان مالك الأرض "قوطيا" فإنهم يتبعونه، أما إذا تحولت ملكية الأرض إلى همجي، فإنهم يتبعونه أيضاً.

لقد صاروا كالسوائم، من يحمل حبها يملك رأسها وزيلها، فإذا باع مالك الأرض القديم انتقلت ملكية عبيد الأرض أيضاً إلى المشتري الجديد كأن هؤلاء الأفراد جزء من ذات الأرض^(١)، أو أن الأرض أهمهم وهم أولادها، فإذا بيعت الأم تبعها أبناؤها في ذلك البيع وكانوا يشعرون بشيء من الضجر، والكثير من الغين للحقوق مع التكليف بالأعمال المرفقة وتحمل التصرفات الغير سوية من ملاك تلك الأرض، يستوى في ذلك القدماء والمحدثون^(٢).

ولا شك أنهم كانوا يتطلعون إلى منقذ يأخذ بأيديهم إلى الخروج من هذا السجن الكبير والتعبير عن الذات^(٣)، وقد استغل اليهود والوثنيون هذه الحاجة فحاولوا الاستفادة منها على أعلى نطاق وثبتت أقدامهم ومكانتهم في نفوس هؤلاء وكذلك إشباع صدورهم بالحق على الطبقات الأخرى وهكذا وجد أولئك الفاسدون الأرضية تسمح بوجودهم.

(١) وهو ما يعرف الآن باسم البيوع بالجدك، حيث يعلن البائع للعقار مثلاً أنه سيبيعه بمحتوياته فتصير المحتويات كأنها جزء من البيع نفسه.

(٢) دكتور / محمد الحسيني موسى / ملامح الحكمة الإسلامية في المغرب / جـ ١ / ص ٢٧.

(٣) دكتور / عبد الحليم صالح / علاقة العبيد بتملك في أسبانيا / ص ٧٣ ١٩٨١ م.

٥. الثامنة : طبقة العبيد المتقلين فاقصي الأصول :

وهم الذين يباعون في الأسواق ويتم التبادل معهم في المسألة كأنهم سلع مرنة أو غير مرنة^(١)، وكانوا وأولادهم ونسائهم جزء من المتاع يستعمله صاحبه متى شاء وفي أي وقت يشاء، بل كان يعامله كحيوان يذبحه لمن أراد، ولا عبرة لأدميته ولا احترام لشيء من إنسانيته هو وزوجته وأولاده في هذا سواء^(٢).

حتى أن المالك لهم قد يستغنى بالبيع عن الأم المرضعة، ويستبقى الطفل الصغير يصرخ أمام والدته المبيعة، وربما هلك بين يدي والده من الجوع أو بسبب فقده أمه، فإذا ضاق المالك بهذا الصغير ولم يجد من يشتريه ألقاه إلى الحيوانات المفترسة حتى يستريح من صراخه^(٣).

وهكذا وجد اليهود مكاناً لهم في نفوس هؤلاء فعملوا على تثبيت أقدامهم بينهم، كما سعوا إلى إيجاد أنظمة يمكن اختراقها بحيث تمثل وجهات نظرهم وذلك من شأنه أن يعرقل ظهور الحركات العلمية والفكرية.

فلما دخل الفاتحون المسلمون الأندلس في الفتح العام لم تكن الأرض مهيأة لبذور فلسفية ولا النفوس مستعدة لأن تلقى محتوياتها كلها

(١) اصطلاح لدى علماء الاقتصاد يراد به القابلية للحركة السريعة ويقع عليها الائتلاف والذي يتم التعامل به على تلك الجهة أو الحركة البطيئة التي لا يقع لها الفساد بالتخزين الطويل، ولا يفسد به. راجع / لأنتوني بلاك / نظرية القيمة / ترجمة يوسف رزق / دار الجبل ١٩٨٣ م / ص ٣١.

(٢) الأستاذ / عبد البديع محمد سلطان / الحرية الإسلامية / ص ٥١ طبعة أولى ١٩٦٣.

(٣) الأستاذ / فاضل محمد سليمان / الإسلام والرق / ص ٧٥ / طبعة أولى ١٩٦٨ م.

حتى تنتج قضايا ميتافيزيقية كالتى ظهرت في المشرق الإسلامي، ومن ثم احتاج أمر إنبات بذور فكرية فلسفية في المغرب الإسلامي وقتاً من الزمان حتى نمت تلك البذور ونزعرت فظهر فلاسفة ومفكرون مسلمون في أشكال تنظيمية تحمل وجوه الإبداع الفكرى بالمعنى القائم في الناحية الفنية ولا شك أن ذلك يعتبر من العوامل التي أدت إلى ظهور الفكر الفلسفى الإسلامى في المغرب الإسلامى متأخراً عنه في المشرق الإسلامى.

العامل الثالث : طبيعة تلك البلاد :

المعروف أن طبيعة بلد من البلدان تؤثر في معارف أهل تلك البلد على أساس أن العوامل الطبيعية من تضاريس ومناخ وسهول ووديان تكون لها جميعاً آثار في حياة هؤلاء وسلوكياتهم، بدليل أن المجتمع الصناعي يتأثر أصحابه به، فتغلب عليهم الصناعات بأنواعها المختلفة^(١).

كما أن المجتمع التجاري تغلب على أفراده ذات الطبيعة التجارية، وكذلك الحال مع المجتمعات الحرفية كجماعات الصيادين والقزازين وغيرهم، بل رأينا في وقتنا الحاضر أن أغلب الأبناء يتعلمون من أبائهم صوراً عديدة لأنماطهم الحياتية، بحيث يكون لها التأثير القوي الفعال.

وكان أهل الإسلام في عصوره الزاهية يقيمون مدناً مهمتها خدمة العلم، فكان أبناء الأساتذة والطلاب يتحولون إلى علماء نظراً لطبيعة المجتمع الذي تأقلموا فيه وتدرّبوا عليه.

وبلاد الأندلس ذات طبيعة خلابة، فهي من الناحية الجغرافية تحمل مظاهر المناخ المعتدل، والسهول الصالحة للزراعة، والوديان الجافة التي تعبر عن مظاهر جميلة، وكذلك الوديان المائية مما يجعلها تتميز بسحر جذاب وجمال خلّاب وبجانب هذا الجمال فقد ظهرت بين أهل تلك البلاد صناعة وزراعة وتجارة ورعى^(٢).

(١) فريديك هولمز / المجتمع الصناعي وأثره في الانتاج / ترجمة هناء العطار / دار الجيل بيروت ١٩٨٧م / ص ٣١.

(٢) دكتور / محمد حسن الصاوي / طبيعة بلاد الأندلس / طبع مطبعة / سعيد رافت ١٩٧٩م / ص ٨١.

وذلك كله شأنه أن يجعل أفراد المجتمع ينشغلون بأعمالهم التي يتكسبون لقمة العيش من ورائها أو تساعد على ازدياد ثروتهم، ومن ثم يتزايد هذا النشاط البدني بغية أن تكثر الثروات فيما بينهم بحيث تغطي نفقاتهم، ويكون لها وجود متواصل في حياتهم^(١).

وقوم كهؤلاء لابد وأن يكون اهتمامهم منصبا على الضروريات الحياتية وما يستتبع ذلك من الرغبة في تكوين ثروات مادية، وبالتالي فإن الفكر العقلي عندهم لن يكون أخذاً في التنامي متى قصد به السعي نحو الأبحاث الميتافيزيقية، لأن الدوافع عندهم إلى هذا النوع لن تكون بالقدر الذي يتساوى مع حرصهم على ممارسة تلك الصناعات^(٢).

وكان لذلك كله أهمية كبرى في تأخر ظهور الفكر الفلسفي المنظم داخل المغرب الإسلامي على أساس أنه متى كان أمر الناس منصبا نحو لقمة العيش وأمورهم الحياتية فإن انصرافهم إلى غير ذلك لن يكون ممكناً، بل أنه إذا تم فسيقع في أضيق الحدود وأبسط الأشكال، ولا أعالي إذا قلت أنه سيكون صورة تتضائل أمام باقي الصور الأخرى.

على أن هذه البلاد قد تنوعت الأصول العرقية داخلها، كما تعددت الطوائف البشرية وتكاثرت غايات هذه الطوائف، في نفس الوقت تعددت عقائدهم وتباينت ثقافتهم وما يتعلق بباقي العناصر التي تتكون منها طبيعة هذه البلاد، سواء من الناحية الجغرافية، أم من الناحية الأنثروبولوجيا – السكانية –^(٣).

(١) دكتور / لطفى عبد البديع / الإسلام في إسبانيا / طبعة أولى / دار الرشيد ١٩٧١م / ص ١٧.

(٢) الأستاذ / نبوى محمد عبد الواحد / الأندلس قبل الإسلام / طبعة أولى / دار توفيق ١٩٨٣ / ص ١٣٧.

(٣) دكتور / محمد بحر عبد الحميد / اليهود في الأندلس / ص ٢٢.

حتى يمكن القول بأن هذه البلاد كانت طبيعتها أشبه بالبوقة التي انصهرت فيها عقليات شتى، وثقافات متباينة، ولكن هذا الانصهار لم يكن لصالح التفكير العقلى المنظم بقدر ما كان مقصوداً به عمليات الأمور الحياتية.

وكانت هذه البلاد - على النحو الذي سلف - بحاجة إلى الدين الإسلامى حتى يعيد تنظيمها، ويرتب أصولها، ويهذب شواردها بحيث تؤتى ثمارها، وهو الذي حدث في بلاد الأندلس بعد دخول الإسلام إليها واستفادة أهلها من أنوار الشرع الشريف.

ولا شك أن تركيبة كهذه لا بد أن تقع بها تجاوزات سواء في التأخر عن النهوض ببعض الأعباء، أو الوقوف عندها كلها، بل لا بد أن يكون التخالف هو طبيعة سكان تلك البلاد باعتبار أن الأجناس البشرية تتباين في رغباتها كما تتباين في أهدافها والغايات فوق ذلك فإنها تتباين في الوسائل المؤدية إلى تلك الغايات تتبايناً لأن يكون من اليسير ضبطه أو التغلب عليه^(١).

ويقرر الدكتور / حسين مؤنس : أن بلاد الأندلس قبل دخول الإسلام إليها كانت طبيعتها تحمل التباين من كل ناحية، بل كان التباين هو السمة الغالبة على عقليات أصحابها وثقافتهم^(٢).

ومن الملفت للنظر أن كل جماعة قطنت بلاد الأندلس قبل الإسلام كانت تعتز بعريقيتها كما تعتز بثقافتها، وتتمسك باعتقاداتها، وفوق ذلك فلم تكن لديها أدنى أنواع الاستعداد لقبول أى فكر آخر أو الانخراط فيه،

(١) دكتور / محمود يسرى عبد المولى / الأنماط البشرية وأثرها في التنمية / ص ٤١ / طبعة دار النهدي / ١٩٨٣ م.

(٢) دكتور / حسين مؤنس / فجر الأندلس / ص ٤٣٠.

بل كانت تقوم بين "الأيبيريين" و"الوندال" حروب عنيفة تأتي على الأخضر واليابس لمجرد أن يحاول الأيبيريون إنزال ثقافتهم إلى ميدان طرف من أطراف القبائل الوندالية، وكذلك الحال مع جماعات الوندال والأيبيريين^(١).

بل إن طبقة النبلاء في داخل تلك البلاد كانوا يصارعون طبقات رجال الكنيسة في الخفاء، ويرفضون تعاليم الكنيسة من غير أن يعلنوا ذلك بناء على أن المصالح المتبادلة لا تسمح بمثل هذا الاعلان الذي ربما تكون له آثار سلبية عليهم أولاً، ثم على غيرهم ثانياً^(٢).

ومن المؤكد أن مثل تلك الصراعات لا تسمح باستقبال أفكار فلسفية أو إنتاج مثل هذه الأفكار وإلا فمن يعتقد ظهور فكر فلسفي ميتافيزيقي في الأندلس إبان تلك الفترة يكون كمن يعتقد إمكانية إخراج الهواء من بئر الماء.

ومن المؤكد أيضاً أن هذه الطبيعة بما فيها من خصوصية سوف تفرض على أتباعها التعصب للأفكار التي يتوارثونها، وكلما ازداد رصيد الأفكار الشعبية المتوارثة في النفوس ازداد منحى الجهل وتضائل مؤشر البحث العلمي لما هو معروف من أن الحركة العقلية إذا طلب منها أن تنشط فلا بد من إبعاد المؤثرات المعاكسة عنها، ومن أسوأ المؤثرات على العقلية ما يقع من الفكر الشعبي في مرحلة التقديس أو موقعه بالنسبة لهم^(٣).

(١) الأستاذ / نبوي محمد عبد الواحد / الأندلس قبل الإسلام / ص ١٧١.

(٢) دكتور / لطفى عبد البديع / الإسلام في أسبانيا / ص ٤١، ٤٢.

(٣) الأستاذ / عبد العظيم السيد البدوي / المجتمع الإنساني في مراحل الأولى / ص ٢١، ٢٢ / ط المطبعة الرحمانية ١٣٣٥هـ.

لأن الفكر الشعبي ينال قدسيته من كثرة تكراره ومحافظة رايه عليه وإعداد هذه المرويات إعداداً جيداً، بل والعمل على إدخال هذه المرويات المدخل الذي لا يقبل أى نوع من أنواع التنازل، وقد عبر القرآن الكريم عن طبيعة هذا الفكر الشعبي وتمسك أصحابه به وعدم انصياعهم لغيره، فقال جل شأنه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَتَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾^(١)، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾^(٢)، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾^(٣).

والمعنى : وإذا قيل للمشركين الضالين اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الوحي والقرآن واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل، قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا ويكفينا دين آبائنا فرد عليهم المولى

- عز وجل - موبخاً إياهم : ليتبعون آباءهم فيما هم عليه من الضلال والسفاهة والغباء لا عقل يردعهم عن الشر، ولا بصيرة تنير لهم الطريق؟ ولو كانوا لا يعلمون شيئاً من الدين ولا يهتدون إلى الحق؟

(١) سورة البقرة / الآية ١٧٠.

(٢) سورة المائدة / الآية ١٠٤.

(٣) سورة الزخرف / ٢٢، ٢٣. وهناك آيات كثيرة وردت في القرآن الكريم تتكلم عن اقتداء الكافرين بآبائهم مثل سورة الأعراف / ٢٨، ٩٥، وسورة يونس / ٧٨، وسورة الأنبياء / ٥٣، والشعراء / ١٤، ولقمان / ٢١، وآيات أخرى كثيرة في مادة (أ - ب - و) فليرجع إليها من أراد المزيد / راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / الأستاذ / محمد فؤاد عبد الباقي / باب / الألف مع الباء والواو / ص ٣، ٤.

والاستفهام للإنكار والتوبيخ والتعجب من حالهم في تقليدهم الأعمى للأبناء، وهؤلاء الضالون لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية على ما زعموا، بل اعترفوا بأنه لا مستند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة فهم ماشون على طريقتهم، مهتدون بآثارهم.

وكما تبع هؤلاء الكفار آباؤهم بغير حجة ولا برهان كذلك فعل من قبلهم من المكذبين، فما بعثنا قبلك يا محمد رسولا في أمة من الأمم، إلا قال المتعممون فيها الذين أبطرتهم النعمة وأعمتهم الشهوات والملاهي عن تحمل المشاق في طلب الحق : إنا وجدنا أسلافنا على ملة ودين، وإنا مقتدون بهم في طريقتهم.

قال الإمام البيضاوي : وفي ذلك تسلية لرسول الله ﷺ ودلالة على أن التقليد في نحو هذا ضلال قديم، وأسلافهم لم يكن لهم سند منظور يعتد به، وإنما خصص الحق تبارك وتعالى المترفين بالذكر للأشعار بأن التمتع وحب البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد الأعمى، وذكر أنهم مرة بأسلافهم "مقتدون"، ومرة "مهتدون" وذلك تقننا منهم، وكذلك كانت مقولة هؤلاء لكل نبي يدعوهم إلى الله وينذرهم عذابه إنا كافرون بكل ما أرسلتم به من التوحيد والبعث والنشور، وكان رد أنبياء الله عليهم السلام عليهم : أنقتدون بآبائكم ولو جنتكم بدين أهدى وأرشد مما كانوا عليه، فانتقمنا من الأمم المكذبة بأنواع العذاب، فانظر كيف صار حالهم ومآلهم^(١).

ورغم أن التمسك بما خلفه الآباء والأجداد قد يكون أمرا حسنا، لكن بشرط أن تقع له الفوائد المرجوة، وأن يمكن التعامل معه على ناحية

(١) الإمام الفخر الرازي / مفاتيح الغيب / ج ٥ / ص ٢٨ و ج ٢٧ / ص ٢٠٦، والبحر المحيط / ج ٤ / ص ٢٧، وتفسير البيضاوي / ج ٢ / ص ١٧٨.

صحيحة، أما إذا افتقد هذين الشرطين، فإنه يتحول إلى كابوس يطارد الفكر الصحيح، والاعتقاد السليم، كما ينهض فوق القيم الصحيحة والأخلاق العالية، ومن ثم كان نعى القرآن الكريم عليهم ورفضه لهم وتنبيهه على أن هذا من السلوك الخاطيء والاعتقاد الفاسد والتفكير غير المستنير.

فإذا رجعنا إلى طبيعة بلاد الأندلس وجدنا "القوط" يتمسكون باعتقاداتهم وثقافتهم، ويورثونها أبنائهم وأحفادهم، رغم أنهم لم يقيموا دليلاً على صحتها إنما عمدتهم أنه ميراث الأبناء ولن يفرطوا فيه - الأبناء -^(١).

وكذلك وجدنا سكان المناطق "الأيبيرية" القديمة ينشطون هم الآخرون في توريث تلك الثقافة "الأيبيرية"، بل والاعتقادات بجانب السلوك، ويعملون على تعيد هذه الأفكار وتقنينها ووضعها في قواعد ملزمة، حتى أنهم أصدروا قوانين قبلية تعاقب من يحاول الخروج على تلك الأفكار مهما كان شأنه، ومهما كان نوع الفكر الذي يلجأ إليه أو التفكير الذي يعتمد عليه^(٢).

ولا أغرب عن الحقيقة إذا قلت أن هذا التمسك بالموروث لم يكن طبيعة سكان بلاد الأندلس وحدهم وإنما كان قاسماً مشتركاً بينهم وغيرهم بدليل أن جماعات البربر كانوا يورثون عاداتهم لأبنائهم وبناتهم، كما كانوا يحرصون على أن لا تتخرب عاداتهم في عادات

(١) دكتور محمد حسيني موسى / التفكير الإنساني أصوله ومستوياته ص ١٣١، ١٣٢.

(٢) دكتورة / وفاء محمد صادق / أسبانيا قبل الفتح الإسلامي ج ١ / ص ١٣١
طبعة دار عبد النبي توفيق سنة ١٩٨١م.

غيرهم، أو تختلط بها، على أساس أن التداخل في العادات يقضى على الأصول والقواعد العامة^(١).

بل أن هذه العادة ما تزال قائمة حتى يومنا هذا، في الكثير من الشعوب ذات الحضارة القديمة أو الحضارة المستحدثة، وتظهر هذه العادات بين أفراد تلك الجماعات من خلال مظاهر عملية، كالحال مع جماعات الغجر في مصر والهناجرة والبدو الرحل الذين يفضلون حياتهم بما فيها من شظف العيش ومرارته مع الاستمسك بالعادات الموروثة على الحياة الناعمة إذا تعلقت بالتنازل ولو يسيرا عن ما هو موروث.

وتذكر كتب السير أن "معاوية" أمير المؤمنين قد تزوج بفتاة بدوية كانت ترعى الغنم، وتعيش في الخيام، فأعجب بجمالها الأخاذ، وعقلها الرشيد، فلما أسكنها في قصر منيف، وصار لها الخدم والحلى والجواهر، وابتعدت عن ماضيها، زبلت ومرضت، وكادت تهلك، وأخيراً سمح لها بأن تعبر عن أسباب مرضها فما كان منها إلا أن طلبت الطلاق، حتى تعود إلى حياة البداوة، فتسير أميالاً خلف نعيجات لها تصطدم بحرارة الشمس، وتلتقط قوتها من حبات الأرض، وتأكل طعامها القديد، وتنمتع بحريتها حتى تكون كما كانت فارسلت إلى معاوية قصيدة بليغة كان من مطلعها :

وليس عباة وتقر عيني .. أحب إلي من ليس الشفوف
وابن عم علج يحتويني .. أنقى لدى من بعل شفيف

فلما بلغ معاوية الخبر سرحها سراحاً جميلاً^(٢).

(١) الأستاذ / محمود عبد اللطيف الضبع / متطلبات الفرد في ظل الصراع الطبقي / ص ٢٢٩ طبعة أولى ١٩٨١م.

(٢) الشيخ / محمد عبد العظيم أبو دومة / الفرد والبيئة والأشكال المتبادلة ص ٤٣ / سنة ١٩٥١م.

وبالتالي فإن طبيعة بلد ما تؤثر في أفرادها، كما تؤثر في سلوكياتهم وثقافتهم ونتاجاتهم الفكرية والعقلية وغيرها، وطبيعة بلاد الأندلس كانت فيها هذه التباينات ومن ثم لما دخلها الإسلام وراحت النصوص الشرعية تبلغ فيهم، لم تظهر آثارها عليهم في وقت مبكر، وإنما كان كل ما لها من أثر هو تحريك هذه العقول حتى تكون مستعدة لتقبل مثل هذه الأفكار، ثم محاولة رعاية بذورها الأولى في مناطقهم الفكرية والتأكيد على أنها لا تخالف النصوص الشرعية، بل والتركيز على ضرورة التفرقة بين ما هو من النصوص الدينية ويتعلق بالعقيدة الإلهية، وبين ما هو من النصوص الدينية أيضا، لكنه يتعلق بالجوانب الفيزيائية أو الميتافيزيقية النقدية.

غير أن آثار هذه النصوص لن تظهر بسرعة، كما لن تنهض نتائجها عالية بين يوم وليلة، حينئذ ستبدأ ثمارها أول الأمر قليلة، صغيرة، نحيلة، ثم تأخذ في التكاثر والتنامي والضخامة، وذلك مما يستغرق وقتا ليس بالقليل.

وحين تبدوا في الأفق البعيد ملامح هذا الفكر الإسلامي المتميز أو تظهر نتائج له، فإنها حينئذ تكون بمثابة القواعد الأولى التي يقام عليها البناء الفكري، ومن ثم يمكن القول بأن طبيعة بلاد الأندلس كانت أحد العوامل العامة في تأخر ظهور الفكر الفلسفي الإسلامي بها، وذلك مما لا تنهض أدلة على إثبات غيره.

٢ العامل الرابع : التصوين الصوري للمعقليات الموجبة

عرفنا أن كل إنسان يولد وعقله صفحة بيضاء، ثم يبدأ في اكتساب معارفه وشيئا فشيئا تتحول هذه المعارف الأولية إلى أخرى أكثر وثاقة وأعلى رقياً، وأن هذه المعارف التي يسعى الإنسان إليها إنما تقوم بها مجموعة من الوسائل أو الأدوات كالسمع والبصر واللمس والشم والذوق، وتعرف كلها باسم وسائل المعرفة.

والله عز وجل قد نبه إلى ذلك في قوله : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾^(١)، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾^(٢).

فإن الله - عز وجل - أخرجكم من أرحام الأمهات لا تعرفون شيئا أصلاً، وخلق لكم الحواس التي بها تسمعون وتبصرون وتعقلون لتشكروه على نعمه وتحمدوه على آلائه، وأن الإنسان سيسأل يوم القيامة عن حواسه : عن سمعه وبصره وقلبه وعما اكتسبته جوارحه^(٣).

(١) سورة النحل / الآية / ٧٨.

(٢) سورة الإسراء / الآية / ٣٦

وأيضاً هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تحدثت عن هبة الله للإنسان الحواس العظيمة كالسمع والبصر وغيرها، على سبيل المثال في سورة يونس / الآية ٣١، وهود / الآية / ٢٠، والمؤمنون / الآية ٧٨، والملك / الآية ٢٣

راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / مادة / (س - م - ع) ص ٣٥٨ / ٣٦١.

(٣) الإمام الفخر الرازي / مفاتيح الغيب / ج ٢٠ / ص ٦٣، وج ٢٠ / ص ١٩٢، والإمام ابن كثير / المختصر / ج ٢ ص ٣٤٠، ص ٣٧٥.

ثم إن الحواس السليمة تقدم لصاحبها أنواعاً من المعارف الحسية وهذه المعارف تختلف قوة وضعفاً، كما تختلف ثباتاً وعدم ثبات، وفي نفس الوقت فإنها تختلف باعتبار اليقين والظن، ولذلك فإن هذه المعارف الحسية تكون غالباً نسبية^(١).

ونظراً للتباين الشديد بين هذه الحواس من ناحية قدرتها على اصطیاد المعارف، فقد اعتبرها العلماء وسائل حسية، ومعارفها ظنية^(٢). وهذه المعارف تمثل نوعان من التكوين الذهني الثنائي بالنسبة للفرد الطبيعي، بدليل أن الطفل الصغير إذا لدغته نملة، فإنه يفر من كل الحشرات التي تشبهها لا لأنه يعلم أنها نملة، أو أنها غير نملة، وإنما لأنه قد استقر في ذهنه أن مثل هذه الحشرة يجلب إليه الضرر.

ومن ثم ظهرت الأمثال الدالة على هذا الجانب من التكوين الذهني، والرصيد الثقافي^(٣)، وأطلق عليهم شيخ الإسلام الإمام الغزالي - أبو حامد - اسم التعصب للموروث والخوف من الموهوم^(٤).

(١) دكتور / صبري محمد الوكيل / الحواس وأثرها في المعرفة ص ٤١ طبعة أولى سنة ١٩٨٣م.

(٢) ما لم تكن هذه المعارف متعلقة بالمعجزات الحسية، لأن أقوى طرق نقلها هو الحس والمشاهدة، بدليل أن سحرة فرعون لما رأوا معجزة العصي مع موسى - عليه السلام - ﴿ قالوا آمناً برب العالمين رباً موسى وهارون ﴾ سورة الأعراف الآيات ١٢١، ١٢٢.

(٣) كقولهم " من لدغه الثعبان هاب جر الحبل".

(٤) وقد توسع في شرح هذا الجانب أثناء حديثه عن أغلاط المتناولين للقطب الثالث من كتابه / الإقتصاد في الاعتقاد / ولمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة ذلك القطب ففيه تفاصيل عديدة، وكلها قد ضرب الشيخ لها الأمثلة، ومن أمثلة الشيخ الإمام الجميلة تشبيهه الخبيصة بالدردي، وقوله أن من استقر في وهمه شكل الدردي تقايى مع رأى الخبيصة ظاناً أنها ذات الدردي.

غير أن المعارف الحسية يأتي العقل إليها فيعمل على تهذيبها وتنقيتها من شوائبها، ثم يحتفظ ببعضها في بورتها، بينما يستبقى البعض الآخر في الهامش، لكنه يكون متطلعا إليهما معا، ومن ثم يتعلق بهما على قدر سواء وهو ما يعرف باسم الأرصدة العقلية، ولما كانت هذه الأرصدة العقلية لا يكتسبها المرء دفعة واحدة، وإنما يصل إليها على فترات كثيرة، فإن تفرقه فيها لا يكون ممكنا مهما كانت غير صحيحة، بل أن البدائل التي تعرض عليه قد يرفضها مع صحتها حرصا على ما بيده، وإعتقادا أن ما حصله قد جهد فيه، فيجب أن يتمسك به ولا يفرط فيه.

وهذه التراكمات الذهنية قد يدخل إليها الوجدان، كما يدخل إليها شيء من الجوانب الروحية فتصبغها بصبغة عالية من القداسة والاحترام، ولا مانع من إعادة صياغتها على نفس الصورة مع محاولة تقديم دلائل جديدة على صحتها وذلك من شأنه ألا يسمح لصاحبه بالخروج عليه، لا لأنه فاسد أو صحيح وإنما لأن صاحبه قد بذل جهودا كبيرة في تحصيله وليس من السهل أن يفرط فيه^(١).

ولما كانت بلاد الأندلس قبل الإسلام مجموعة من البربر والهمج التي تقوم أغلبها في أصول مختلفة، وأجناس متباينة، فإن هذه الأخطا قد اشتغل أصحاب النظر العقلي فيها بكيفية التخلص من الحكم القائم، أو استغلال الفرد الموجود كحاكم على النحو الذي يروق لهم، وأن ذلك قد انعكس على الحياة بينهم في كافة مظاهرها العقلية والثقافية والاجتماعية

(١) وقديما عبر الشاعر العربي عن هذه العقلية والصبغة الذهنية فقال :-

العلم صيد والكتابة قيده .. قيد صيودك بالخيال الوثائقه
فمن حماقة أن تصيد غزالة .. وتفكها بين الخلاق طائفة

بل والإقتصادية أيضا والصراع القائم يمثل أحد صور ذلك التأخر عن البحث في القضايا الميتافيزيقية، كما كان يؤثر في طرائق تناولها بشكل من الأشكال، أو نحو من الانحاء، وظل أمرهم على ذلك الحال حتى دخل الإسلام تلك البلاد^(١).

وقوم حالهم كهذا فلا شك أن التكوين الذهني للفرد عندهم لن يكون إلا في حدود المتطلبات الذاتية، والإحتياجات المعيشية، أو بمعنى آخر، أنه سيجعل الفرد يحصر إهتمامه في وسائل تلبية غرائزه الجسدية، وإحتياجاته البدنية، وإشباعها على نحو من الانحاء، أو تأمين ما يحقق ذلك بشكل كبير للفرد أو الجماعة، أو هما معا، لكنه قد يأخذ صورة تنظيمية^(٢).

وحينئذ فلن يرفع أى مفكر رأسه، ويدير عقله، أو يجيل نظره، إلا في تلك الجوانب وحدها وإعتبارها الغرض الأسمى والهدف الأول، ومهما حاول الخروج من هذه الدائرة فلن يكون ذلك ممكنا.

وبناءً عليه فلم يظهر تفكير فلسفى منظم داخل بلاد الأندلس بنفس القوة والسرعة التي ظهر بها في المشرق الإسلامى، أما وقد دخل الإسلام تلك البلاد، واستقرت قواعد الفاتحين، فقد كان غرضهم الأول، عرض العقيدة الدينية نظريا من خلال وسائل التبليغ التي جاءت معهم لذلك الغرض، حيث كان المسلمون في كل فتوحاتهم معلمين مرشدين، هداة للخير قائلين، وليسوا أبداً محاربين، ولا مستعمرين بدليل أنهم كانوا في كل غزوة جملة من الصحابة الذين يحملون القرآن وبآياته حافظين،

(١) دكتورة / وفاء محمد صادق / أسبانيا قبل الفتح الإسلامى / ص ١٦٧.

(٢) الأستاذ / محمود عبد اللطيف الضبع / متطلبات الفرد في ظل الصراعات / ص ٢٢٢.

وللسنة النبوية المطهرة عارفين، وكان فيهم أهل الاختصاص الذين يصحبون الفاتحين حتى يكونوا بمثابة المصادر العلمية والقضائية في المسائل التي تعرض لهم^(١).

أما عمليا فقد جاءت الممارسات الدينية للشعائر الإسلامية، والقيام بالأركان الشرعية ومحاولة تحريك هؤلاء وأولئك إليها بالطرق التي تعين على بنوع تلك الغاية، وهم في سبيل ذلك يبذلون كل ما أمكنهم، لا يبالون بشئ سوى شرع الله تعالى.

وقد استغرق ذلك فترة ليست قليلة لما في طبيعة سكان هذه البلاد من تمسك بالمعارف والأفكار التي تمثل أرواحهم الثابتة واعتبارها عناصر قومية لا يمكن أن تذوب في غيرها، أو يذوب ذلك الغير فيها، ونظرة هؤلاء إلى أية ثقافة إنما تكون بمنظار العدوان، والغزو الفكري، من ثم كانوا يتهيبون الاقتراب أو الإسراع باعتناق الأفكار التي تلقى إليهم^(٢).

بيد أن تلك البلاد متى دخل عليهم فكر عن طريق الغزو، فإنهم يقفون له وقفة المعاند، بغض النظر عن ما في طبيعة هذا الفكر من ميزات أو جوانب إيجابية ولذلك كانوا يرفضونه إلى أبعد حد نظرا لما في عناصرهم وأصولهم من تباين واضح وصراع داخلي عنيف لم يكن من السهل التخلص من نتائجه أو سلطانه على النفوس من ناحية الواقع العلمي.

(١) الشيخ / محمد بن عيسى الهمذاني / الفتوحات الإسلامية في مراحلها الأولى ص ٤٣ طبعة أولى سنة ١٩٢٣.

(٢) الأستاذ / عبد الوارث محمد فضل / دراسات في تاريخ الأندلس ص ١٣١ الطبعة الثانية / سنة ١٩٧٣ م.

من ثم فإن المحاولات الأولى لإيجاد أفكار فلسفية التي قام بها مفكروا الإسلام في المشرق لإيجاد فكر ميتافيزيقي في المغرب الإسلامي أثناء الفتح لم تنجح بالسرعة والقوة التي تمت بها عملية الفتح الإسلامي نفسه، وهو ما يؤكد أن العمليات العسكرية قد تجبر شعبا على الهزيمة العسكرية، كما يمكنها أن تتم بسرعة وتحقق الكثير من النجاح لكنها تفشل تماما عندما يراد بها إخضاع نفوس هؤلاء لرغبات ذلك الغازي^(١).

أما الغزو الثقافي فإن آثاره تظهر متأخرة مهما حاول الغازي أن يجبر من غزاهم على قبول أفكاره، والإستسلام لآرائه، أنه يستطيع تغيير أو إحداث نوع من التغير في إتجاهاتهم الثقافية وتكويناتهم الذهنية القائمة على معارف فيها شيء من الثبات أو الكثير من الإرث القائم على التقليد في بعض الأحيان.

بيد أن المسلمين كانوا دائما فاتحين ولم يكونوا أبدا غازين، لم يكونوا مستعمرين مخربين لثروات الآخرين ممتصين، وإنما كانوا معمرين، لأن الغازي المستعمر يحمل السلاح دائما ويرفعه عدوانا، لأن غرضه إمتلاك ثروات الآخرين والسيطرة على مقدراتهم، فإن منعه من تلك الغاية مانع لجأ إلى التشنيت والإعتقالات والتصفية الجسدية لأفراد ذلك الشعب كما فعل "استالين" الشيوعي مع الشعوب الإسلامية في

(١) أ. ب. - كاو - العقل ملكية خاصة / ص ١١ ترجمة حسن توفيق حسن / طبعه دار الفرات بالعراق سنة ١٩٧١م.

كزاخستان وغيرها، وكما فعل خلفاؤه من بعده، وفعل "بوتين" أيضا مع شعب "الشيشان" المسلم في نهايات القرن العشرين ومطالع الحادي والعشرين^(١).

أما الفاتح فإنه يعرض على أهل تلك البلاد عقيدته الدينية من غير أن يسوقهم إليها سرقا، وكيف لا والله تعالى قال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

في نفس الوقت فإن الفاتح المسلم وهو يعرض عقيدته الدينية يقدم معها خطة عملية لتعمير تلك البلاد، كما يسارع إلى تقديم الخدمات المختلفة فهو يخدم وينفق على تلك البلاد وأهلها ولا يأخذ منهم شيئا، إنه يعمر ولا يدمر، وذلك حال المسلمين في كل البلاد التي فتحوها.

(١) حيث خدع "بوتين" لقيادة الشيشانية المسلمة وأوهمهم برغبته في التفاوض معهم، بينما كان قد أعد خطته للقضاء عليهم، وهو وإن نجح في تحجيم بعض القادة أو التضيق عليهم، إلا أنه لم ينجح في تصفية الكراهية والغضب التي امتلأت بهما صدور هذا الشعب المسلم.

(٢) سورة البقرة / الآية ٢٥٦

والمعنى : لا إجبار ولا إكراه لأحد على الدخول في دين الإسلام، فقد بان ووضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن كفر بما يعبد من غير الله كالشيطان والأوثان وأمن بالله فقد تمسك من الدين بأقوى سبب لا إنقطاع لها ولا زوال والله سميع لأقوال عباده عليم بأفعالهم.

راجع / العلامة بن كثير / مختصر تفسير ابن كثير / ج ١ / ص ٢٣٠، والإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن ج ٣ / ص ٢٨٠.

ومن ثم كانوا فاتحين بدليل أنهم لم يستخدموا السلاح في مرحلة من مراحل حياتهم، إلا دفاعاً عن عناصر الإبلاغ التي بثوها في تلك البلاد، أو حين يعتدى على حرياتهم وأجسادهم أو اعتقاداتهم وأموالهم، يشهد لذلك تاريخهم المجيد وفتوحاتهم التي تمثل روعة في الأداء، ودقة في التعبير وأعلى صور النجاح بالنسبة للنتائج^(١).

وفي تقديري : أن عملية التخلص من التراكمات الذهنية تحتاج فترة طويلة بدليل أن الله تعالى لما بعث سيدنا محمد - ﷺ - إلى العالمين ظل في مكة ثلاث عشر عاماً يدعوهم إلى توحيد الله رب العالمين وعبادته، والتخلي عن الشرك وطبيعته رغم إعلانهم أنه الدين الحق، إلا أنهم لم يستجيبوا له بسرعة أما توجساً من الدين الذي يدعوا إليه، أو الخوف من النتائج المترتبة على التخلي عن دياناتهم الوثنية.

ولا يغيب عن ذهن القارئ موقف أبي طالب عم سيدنا رسول الله - ﷺ - الذي دافع عنه، وحبس في الشعب معه، ولم يفرط في حمايته، ومع ذلك لما أدركته المنية، وسار سهمها أقرب إلى إصابته، حاول رسول الله - ﷺ - أن يجعل عمه ينطق بالشهادة، حتى يستبيح الرسول - ﷺ - لعمه من ربه الشفاعة، فإذا بعمه يصر على عدم التخلي عن إرثه القديم، فيقول :-

(١) الشيخ / محمد بن علي الدحلان / الفتوحات الإسلامية ج ٢ / ص ١٣ ، ١٤ ، طبعة دار العتيبي ١٣٦٥هـ.

ولقد علمت بأن دين محمد .. من خير أديان البرية دينا
فلولا الملامة أو حذار مسبة .. لوجدتني سمحا بذاك مبينا
ودعوتني وأيقنت أنك ناصحي .. وصدقت وراعت وكنت فيه أمينا^(١)
ومع هذا مات أبو طالب من غير أن يعلن إيمانه، ولذا ورد في
الأثر : أن أخف الناس عذابا يوم القيامة أبو طالب، حيث يقف على
جمرة من نار من شدة حرها تغلي رأسه.

وفي نفس الوقت فإن التعصب للفكرة، أو المعلومات الذهنية قد
يفضى بالمرء إلى استغلالها على الناحية التي يريدونها دون نظر إلى
طبيعة هذه الأفكار، أو أرصدها من الصدق والصحة، وبناءً عليه فقد
ينفض إلى هذا الموروث ممسكا به من غير أن يتخلى عنه.

فإذا وقع له شيء من المراجعة لهذه الأفكار، وحاول طرحها على
ميدان البحث والتأكد من صدقها فإنه يستغرق وقتا ليس قليلا، ربما
استغرق أعمار أجيال بذاتها^(٢).

(١) الشيخ / منصور محمد طلبة / الإيمان عقيدة وعمل ص ٨٨ الطبعة الثانية
/ ١٣٣٦ هـ.

(٢) بدليل أن العصابات الصهيونية ما تزال تردد فكرة أنهم شعب الله المختار،
وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وكذلك الحال مع المسيحيين الذين ما زالوا على
هوسهم في اعتقادهم أن يسوع ابن الله، وكلا الفريقين في ضلال مبين.

ومن ثم فإن هذه القاعدة لم تغيب عن دارس للتراكمات الذهنية التي اعتصمت بأرحام سكان بلاد الأندلس قبل دخول الإسلام إليها، بل أستطيع القول بأن هذا العامل ربما كان من أكثر العوامل أثراً، وأعمقها تأثيراً بالنسبة لأهل تلك البلاد.

ولا يغيب عن قارئ أن هذه العوامل قد تتلاقى فيما بينها بحيث يحدث من ذلك التلاقى نوع من التكاتف المرفوض، لكنه يؤدي إلى تأخر ظهور الفكر الفلسفي الناضج بين أهل تلك البلاد.

ومن المؤكد أن وجود الصراعات العرقية بجانب النزعة الشعبوية والتباين الذهني، والإختلاف في الأصول العامة قد أدى إلى تخلخل البناء الاجتماعي في الأندلس قبل الإسلام مما ترتب عليه وجود فوارق عديدة وثقافات متباينة، وإتجاهات متباعدة، وأن ذلك كله قد كان له التأثير السلبي الواضح على المعارف الإنسانية، بل أدى إلى تشتت العقل في تناول هذه المعارف بشكل أو آخر، وكان له تأثيره المباشر على التكوينات الذهنية، ومن ثم فقد كان ذلك بمثابة العوامل الهامة التي أدت إلى ظهور الفكر الفلسفي في المغرب متأخر عنه في المشرق الإسلامي.

٣ العامل الخامس: تأثر هجرة مسلمي الشرق الإسلامي إلى المغرب والأندلس

من المعروف أن الله - عز وجل - فتح للمسلمين بلاد الأندلس في نهايات القرن الأول الهجري، وأن أمرهم استقر فيها من الناحية العسكرية في العقد الأول من القرن الثاني، لكن تأخرت الناحية السياسية في الاستقرار، والمفروض أن تكون هي التالية للعمليات العسكرية، وقد كان تأخرها من الناحية التنظيمية على أقل تقدير بمثابة العلامة البارزة التي تحتاج نظر متواصل في طبيعتها.

فلما تم اختيار الوالي الشرعي المناسب الذي يمثل الخليفة المسلم في هذه البلاد من الناحية السياسية والدينية والعسكرية يمثل ذلك كله صورة من صور المحافظة على الكيان الإسلامي الجديد، وذلك من شأنه أن يقع متأخراً^(١).

كما أن الأمير الذي يمثل الوالي أو الخليفة يعلم تماماً أنه يتولى أمور قوم الإسلام حديد فيهم، ومن كان ذلك شأنه فمن المناسب له الأخذ بيديه إلى المعارف التي تناسب ظرفه الراهن، وهو الذي صنعه معهم كل الفاتحين المسلمين، وظل الوالي المسلم ينهض بتلك البلاد في مصالحها المختلفة، ويحكم بينهم بشرع الله طالما كان قائماً بينهم.

وفي نفس الوقت فإن حرمة هذا الوالي أو الخروج عليه ما دام ملتزماً بشرع الله قد جاءت بها النصوص الشرعية، من مثل قوله جل

(١) كان الخلفاء المسلمون وبخاصة الراشدين يعينون على الأمصار الإسلامية ولا يقوم كل وال منهم في الناس مقام الخليفة ذاته فيعرفهم شرع الله تعالى، ويلزمهم المحافظة عليه، وكان هذا الوالي يقود جماعة من الأمراء يعينونه على ما يقوم به.

شأنه : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾^(١)، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَتَكُونُوا كَالْعَصَاةِ الْكَافِرِينَ ﴾^(٢)، وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(٣)، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾^(٤).

أى أطيعوا الله وأطيعوا رسوله بالتمسك بالكتاب والسنة، وأطيعوا الحكام إذا كانوا مسلمين متمسكين بشرع الله، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وفي قوله ﴿ مِنْكُمْ ﴾ دليل على أن الحكام الذين تجب طاعتهم يجب أن يكونوا مسلمين حساً ومعنى لحماً ودماء، لا أن يكونوا مسلمين صورة وشكلاً، فإن اختلفتم في أمر من الأمور فاحتكموا فيه إلى كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ^(٥).

(١) سورة آل عمران / الآية ١٣٢.

(٢) سورة الأنفال / الآية ٢٠.

(٣) سورة الأنفال / الآية ١.

(٤) سورة النساء / الآية ٥٩.

(٥) الإمام الفخر الرازي / مفاتيح الغيب / ج ١٠ / ص ١٣٨، والإمام الزمخشري / الكشاف / ج ١ / ص ٤٠٦، والإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن الكريم / ج ٥ / ص ٢٦٤. وهناك آيات في كتاب الله تعالى تحدثت عن طاعة الله والرسول في سور القرآن المختلفة على سبيل المثال سورة المائدة / ٩٢، وطه / ٩٠، والنور / ٥٤، ٥٦، وسورة محمد / ٣٣، والمجادلة / ١٣، والتغابن / ١٦، ١٢. راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / الشيخ الأستاذ / محمد فؤاد عبد الباقي / مادة (ط - و - ع) ٤٣١/٤٢٩.

وفي الحديث الشريف يقول الرسول ﷺ : "اسمعوا وأطيعوا وإن تأمر عليكم عبداً حيشياً كان رأسه زبيبة"^(١)، أما إذا خالف ذلك الوالي أمر الله تعالى فإن طاعته في المخالفة الشرعية تكون عملاً محرماً يأثم به صاحبه، ولا عبرة لتردده بأنه مكره فيما يفعل لقوله ﷺ : "ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" ومن ثم تسقط هيئته، وتضيع بين الناس، ويصير سلوكه مردواً بدل أن كان وقت الطاعة مقبولاً.

وحيث عرفنا أن بلاد الأندلس كانت قبل الإسلام مجرد قبائل همجية بربرية ليس لها في مجال الحضارة أنى همة، ولأن مظاهر التقدم أقل نصيب، وأن الاحتلال القوطي لها كان من أكبر الحوائل بين أهلها والعلم فقد أدركنا أنه لم يكن منهم ما يحرك كرامتهم نحو الحرية، أو يفجر في قلوبهم مشاعر الثورة، كما أن "القوطيين" وقفوا في وجه كل المحاولات التي تتجه إلى تغيير شيء من الأوضاع القائمة التي فرضوها على الناس فرضاً، أو ساقوهم إليها سوقاً^(٢).

ولم يتمكن الناس من رفع أيديهم بالشكوى، كما لم يتمكن أهل تلك البلاد من دفع اليد الغاشمة، وإزاحة الحكومات المستعمرة الجاثية على الصدور حتى جاء الإسلام.

في نفس الوقت فإن هؤلاء "البربر" لم يكن لهم من هم إلا بذل الطاقة الجسدية في استخراج خيرات الأرض، كما لم يكن لهم من غاية إلا أن يحصلوا على ثمرات كدهم المتمثلة في صورة القوت الضروري

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه / ج ١ / ص ٢٤٦، والإمام أحمد في مسنده / ج ٣ / ص ١١٤.

(٢) دكتور / محمد رمضان عبد الكريم / الأندلس قبل الإسلام / ص ١٣ طبعة أولى ١٩٦١م.

الذي يحفظ عليهم الحياة، ويمكنهم من الاستفادة بناتج كدحهم الدائب وعنائهم الطويل^(١)، ويبعد عنهم شبح الخوف من السلطة القائمة التي تعتبر أوامرها قواعد ثابتة من يقصر فيها يلقى من العذاب ما تفرضه السلطة الغاشمة ذاتها.

أضف إلى ما سبق أن الأندلس بعد الفتح الإسلامي قد تغير أمرها، فحل الاستقرار محل الفوضى، والحكومة المركزية العادلة محل الاقطاع الظالم، وقسمت البلاد إدارياً، وتم تنظيم الجيش على الطريقة الإسلامية^(٢). في المشرق الإسلامي، ومعمول بها في بلدان الخلافة الإسلامية التي كانت قائمة في المشرق الإسلامي إبان تلك الفترة^(٣) التي امتدت حتى النصف الثاني من القرن الهجري، واستمرت حتى سقوط الدولة الأموية فيما بعد.

في تلك الأثناء كان الفاتحون المسلمون مقيمين في رباط مستمر، حيث أنهم يبذلون جهوداً كبيرة في دعوة الناس للحق وتعريفهم بالعقيدة الصحيحة، ويساهموا معهم في تطبيق الأحكام الشرعية، ويأخذوا بأيديهم إلى الإسلام دين الله الحنيف بوجه عام، وذلك يحتاج رجالاً يقومون بكل أعباءه وبخاصة أن أولئك المجاهدين كانت لديهم رغبة شديدة، وعاطفة قوية وثابتة لنشر هذا الدين الذي هو أعلى من نفوسنا جميعاً.

ومن كان ذلك حالهم فلا بد أنهم سوف يتخففون من أحمالهم الدنيوية، فلا يعرفون ملأ ولا كسلاً، وسوف لا ينقلون – باديء الأمر –

(١) دكتور / رفقى زاهر / فيلسوف الأندلس ابن رشد / ص ٣ / ط ١٩٧٤م.

(٢) العلامة ابن خلدون / العبر في أخبار من غير / ج ٤ / ص ٢٥٥.

(٣) انعام بن عزاري المراكشي / البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب / ج ٢ / ص ٢٥.

أسرهم معهم إلى تلك البلاد المفتوحة^(١)، حتى تستقر الأمور، ويأمنوا على أنفسهم وأولادهم وأسرة فيهما، ويكون لوجود هذه الأسر أمر مهم داخل تلك البلاد المفتوحة، وهو ما أعنى به تأخر هجرة الأسر المسلمة من المشرق إلى المغرب، بل ظلت أسر هؤلاء المجاهدين الذين تمثل الفتح الإسلامي بهم قائمة في أماكنها من بلاد المسلمين.

وبالتالي قلن يحدث اختلاط، أو يحدث نوع من التلاقى للأفكار بين المشرق والمغرب، وبناءً عليه سيظل المشرق الإسلامي متقدماً في خطواته العلمية بينما سيظل المغرب بحاجة إلى من يوقظه من سباته ويعيد إليه نواشذ أحلامه ويدفع به إلى البحث الجاد عن المعرفة الإنسانية، وهو الباحث على التفلسف.

بيد أنه لما استقرت الأمور في الأندلس الإسلامي بين المسلمين الفاتحين بدأ هؤلاء الجند في استئذان قادتهم حتى يسمحوا لهم باستخدام عائلاتهم وهنا نظر القادة نظرة موضوعية، فراحوا يسمحون بتنقل بعض الأسر من المغرب للمشرق طبقاً للاحتياجات الضرورية، وتحقيقاً لرغبات هؤلاء وأولئك كما حدث نوع من التزاوج بين أبناء المشرق والمغرب^(٢).

بل بدت عملية التزاوج هذه صور كثيرة منها :

(١) حيث كان المجاهدون غير مستعدين للتضحية بتلك القيم العالية وفي نفس الوقت لم يكونوا يفكرون في اصطحاب أسرهم معهم حتى لا تشغلهم أعباء الأسر عن الجهاد، لكنهم غيروا هذا النمط فيما بعد وبخاصة بعد استقرار الأمور في البلاد المفتوحة مما يؤكد أن المسلمين كانوا دائماً فاتحين معمرين لا مستعمرين مغامرين أو مدمرين.

(٢) الأمير / شكيب أرسلان / الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية / ج ١ / ص ٢٤٦ / طبعة أولى ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م / مطبعة الرحمانية.

- الاشتراط العرقي :

حيث لجأ بعض المغاربة والأندلسيين إلى التزاوج من بنات المسلمين في المشرق حتى يستفيدوا من ثقافتهم، وينعموا بما لدى هؤلاء المشرقيّات من علم ومعرفة وما تميزن به من حكمة.

وكذلك فعل بعض أبناء المشرق، فتزوجوا من بنات الأندلس والمغرب نظراً لما فيهن من حسن وانتظام، وحسن هندام، بجانب لين الكلام، وما في الطبيعة المغربية من انحياز تام إلى جانب الأعمال التي تتخصص فيها النساء، وتبلغن حد الإجادة^(١).

- والصورة الثانية :

تبدوا في حركة الانتقال من المغرب الجديد والأندلس المفتوح إلى عاصمة دولة الخلافة الإسلامية في دمشق، بغداد، الكوفة، البصرة، بجانب المدينة ومكة والحوضر الإسلامية الأخرى التي كان لها أثر كبير في نفوس الذين ينزحون إليها أو يقومون بزيارتها.

وكانت الغاية من هذه الحركة الانتقالية أو الهجرة المنظمة التعرف على العلم بل وينهلون من معارف الإسلام العالية، فحدث تزاوج أكثر بين كل من الجانبين إذ أن كل مشرقى إذا اقترن بمغربية، أو أندلسية فيسعى إلى الإقامة في بلاد المغرب إرضاءً لها، واستقراراً في

(١) دكتورة / هناء صفى الدين عبد السلام / أثر النظام الأسرى في الأندلس / ص ٩٧ / طبعة كركوك ١٩٧٤م.

ذلك البلد، وكذلك إذا تزوج مغربي أو أندلسي مشرقية فقد يلجأ لسكنى بلاد المشرق طلباً للاستقرار وحتى يكون قريباً من دار الخلافة الأم^(١).

ومن هذا الانتقال والتزاور بين الأصول والفروع، أو من الفروع للأصول إجابة لدعوى، أو ابتداء زيارة أو تحقيقاً لواجب، أو مواساة في عزاء، أو مساهمة في عرس فقد كان هذا كله من أهم الصور التي تنقل الأفكار من بلد إلى آخر، كما تنقل المبادئ الفكرية والعادات، بل والسلوكيات أيضاً^(٢).

في نفس الوقت تمت زيجات من المشاركة بالمغربيات بما يعادل زواج المغاربة من المشرقيات بل زاد عليها^(٣).

(١) وبناء عليه فقد أمكن الوقوف على أن حرية الانتقال بين البلدان الإسلامية سواء بالنفس أو المال والأسرة كانت من العوامل التي تجعل المجتمع الإسلامي وحدة واحدة، فلما فطن الاستعمار إلى هذه الحقيقة اصطنع الحواجز وأقام الحدود وغذى العناصر القومية، بل وحرك النزعات الشعبوية فصارت دولة الخلافة الإسلامية دويلات صغيرة وإمارات منعزلة، لا تستطيع الدفاع عن نفسها، بل تحولت بعضها إلى عداوات بعض، فأدى ذلك إلى الإطاحة بالخلافة الإسلامية ككل مما أدى إلى ضعف المسلمين رغم كثرتهم العددية وقوتهم المالية.

(٢) والمؤسف له أننا في الوقت الحاضر نشاهد بعض دول المغرب الإسلامي التي كانت محتلة من الاستعمار الفرنسي خاصة كالمغرب وتونس والجزائر قد قلد أهلها الغرب تماماً في زيجهم وعاداتهم وسلوكياتهم بل لم يعد للإسلام فيهم إلا بعض الأسماء في مقاطع صغيرة.

(٣) الشيخ / محمود علي الجعفرى / أثر الزواج في ترابط المسلمين / ص ١٤٩ / طبع المطبعة الجعفرية / ١٩٢١م.

وكان من نتيجة ذلك كله وجود جيل جديد أصوله إسلامية خالصة سواء أكان بين المشاركة والمغربيين، أم كان بين المغاربة والمشرقيين، كما أن ذلك الجيل صارت لديه الرغبة في الانتقال بين شطري العالم الإسلامي طلباً للعلم واستمرار الترابط الاجتماعي، أو التبادل العلمي، إذ كانت حرية التجارة سمة من سمات العلاقة بين المجتمع الإسلامي كله، بل صار الشطران - المشرق والمغرب الإسلامي - كأنهما قرية واحدة، وقد أثر ذلك كله بشكل أو آخر في جعل الفلسفة الإسلامية المنظمة تنتقل من المشرق إلى المغرب، لكنها متأخرة في المغرب عنها في المشرق.

كما كان لطبيعة بلاد الأندلس من سحر وجاذبية أمر مهم دفع البعض من مسلمي المشرق إلى الهجرة الدائمة، والاستقرار في بلاد المغرب، ومن تبادل الهجرات يقع اختلاط الثقافات^(١)، والذي كان من نتائج ظهور تلقيح ثقافي استفاد منه المغرب الإسلامي من المشرق الإسلامي في الجوانب المعرفية المختلفة وبالأخص الفلسفة التأملية، بجانب الآداب والفنون والطب والهندسة وسائر المعارف التي راحت تؤتي ثمارها متأخرة في المغرب عن مثيلاتها في المشرق على ما سلف القول به.

ومن الصواب القول بأن الثقافة والفكر الميتافيزيقي الذي بدت صورته في المشرق راحت تنتقل إلى المغرب لكنها متأخرة مضافاً إليها النتاج العقلي الخالص الذي أضافه أهل الإسلام في المغرب الإسلامي^(٢) مما كان له كبير الأثر في العمق والرواء مع الطرافة والسلاسة التي

(١) الشيخ / محمود علي الجعفي / أثر الزواج في ترابط المسلمين / ص ١٥٧.

(٢) الأستاذ / محمود رفعت محمد عبد الحليم / أثر الإسلام في التراث الإنساني / ص ١٧٥ / الطبعة الثانية / ١٩٧٢م / دار كركوك.

عرفت بها الحكمة الإسلامية في المغرب الإسلامي فيما بعد، وكان لها العديد من الجوانب الإبداعية المختلفة.

بيد أن ذلك الأمر القائم في الإبداع لا يمكن تجاهله باعتبار أن الحكمة الإسلامية قد بلغت أوجها في المشرق على أيدي فرسانها المبرزين من خلال أعمال تنظيمية كالحال مع "الكندي" أبي يعقوب فيلسوف العرب الأول، و"الفارابي" المعلم الثاني، و"ابن سينا" الشيخ الرئيس، وغيرهم ممن كانوا علامات متميزة في مجال الدراسات العقلية على الناحية الإسلامية، حيث جعلوا المحافظة على النقل المنزل وخدمته وبيان أهدافه غاية لا يمكن التفريط فيها أو التفكير في غيرها، أو الوقوف عندها والتغنى به، بل لابد من الاعتماد عليها أولاً بجانب رفض الاستعانة بغير النقل المنزل في المسألة إلا إذا كان هذا الناتج من اجتهادات علماء المسلمين حول فهم النقل المنزل نفسه.

وفي تقدير ي أن زعم البعض باعتبار أهم حادث في تكون الفكر الفلسفي الإسلامي كان دون شك هو لقائه بالفلسفة اليونانية في بغداد أيام حكم الخليفة المأمون^(١) فهذا زعم باطل وأمر لا ترجحه الأدلة، ولا تنهض له شواهد، وإنما هو زعم مجرد يقوم على ظنون إذا افترضنا في أصحابه حسن النية أو التجرد من التعصب والحسد على المسلمين.

أما لماذا؟

فلما هو قائم عندنا - نحن المسلمين - على جهة التأكيد من أن النقل المنزل هو الأصل الشرعي الذي قاد المفكرين الأوائل إلى وضع قواعد الحكمة الإسلامية، بل هو الذي دفعهم إلى الخوض فيها بعد

(١) شاخت ويزورس / تراث الإسلام / ج٢ / ص ٦١ / طبعة ٢ / ١٩٨٨ م / سلسلة عالم المعرفة بالكويت / مايو ١٩٨٨ م / ترجمة د. حسين مؤنس وآخر.

إنتاجها^(١)، وهو الذي يحفظ ذلك الجانب من الانهيار لأنه يقوم على النقل المنزل ومثله يكون مصوناً من الانحدار أو الانهيار.

في نفس الوقت فإن ظهور الحكمة الإسلامية في المشرق الإسلامي على شكل مبكر عنه في المغرب الإسلامي لا يمكن نسبته إلى الفكر اليوناني أبداً، كما يزعمه بعض المتعصبين الذين تصب آذانهم في عثرلهم فيرددون ما ينقي إليهم من غير تفكير فيه أو تفهم له حتى إنهم يقولون، وفي إلحاح شديد أن أهم حادث في تكوين الفكر الفلسفي الإسلامي هو لقائه بالفلسفة اليونانية، ويؤكدون على أن هذا الأمر لا ينكره إلا مكابر^(٢).

والحقيقة التي أراها أنهم هم المكابرون، وأحكامهم جانرة غلب عليها التقليد الأعمى وليس فيها شيء من الموضوعية، بجانب أنها تمثل نوعاً من الأفكار المنهارة التي يجب التخلي عنها وعدم التصديق بها، وقد حذر القرآن الكريم من أوهام الجنس وبين فسادها، وأنها موقعة في الضلال، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَهُمْ مِنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٣).

(١) د. محمد حسيني موسى / قيمة الصراع بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام / ص ١٨١ / الطبعة الثالثة / ١٩٩١.

(٢) الأستاذ / عبد القادر سيد البحراوي / أثر الفلسفة السبئية والرشدية في أوربا إبان العصور الوسطى / ص ٢٠ / رسالة ماجستير / مخطوط بأداب الزقازيق / ١٩٨٠.

(٣) سورة الأنعام / الآيات ١١٦، ١١٧، وهناك آيات كثيرة بهذا المعنى في القرآن الكريم / راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / مادة (ظ - ن).

والمعنى : ان تطع هؤلاء الكفار وهم أكثر أهل الأرض يضلوك
عن سبيل الهدى فلا تعطهم يا محمد فيما دعوك إليه فإنك ان أعطتهم
ضللت ضلالهم وكنت مثلهم لأنهم لا يدعونك إلى الهدى وقد أخطأوه،
فما يتبع هؤلاء في أمر الدين إلا الظنون والأوهام يقلدون أبائهم ظنا
منهم أنهم كانوا على الحق وما هم إلا قوم يكذبون، والله عز وجل أعلم
بمن ضل عن سبيل الرشاد وبمن اهتدى إلى طريق الهدى والسداد^(١).

(١) البحر المحيط / ج٤ / ص٢٠٦، والعلامة بن كثير / المختصر / ج١ / ص٦١٢.

٢ العامل السادس: تأثر الاستقرار :

من المعروف أن بلاد الإسلام في المشرق استقر أمرها مبكراً، بداية من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، كما تم إنشاء الدولة الإسلامية التي استمرت قيادتها من الخلفاء الراشدين يعملون جادين على تثبيتها وتنظيم شئونها، والسعي لأن تكون دولة ذات صبغة جاءت في نصوصها تحمل للناس جميعاً الأمن والبشر والأمان.

فإذا ما انقضى العام الأربعون من الهجرة، انتقلت الخلافة إلى بنى أمية من الناحية السياسية، وقد حاول بنو أمية إظهار التمسك بالدين الإسلامي وتعاليمه وتشجيع العلماء والمفكرين على الأخذ بأسباب العلم والتقدم في أطوار الحضارة، وقطع الطريق إلى المدنية، وظل ذلك الحال فيهم حتى انتهت خلافتهم بالمشرق في نهاية الربع الأول من القرن الثاني الهجري^(١).

غير أن السيادة لبني أمية من الناحية السياسية قد مكنتهم من ضبط الأمور وساعدتهم أيضاً على استتباب الأمن، صحيح كانت فيهم تجاوزات زادت عن الحدود وبخاصة ما يتعلق بتعاملهم مع آل البيت وأنصار الإمام على ثم ابنائه وأحفاده من بعده.

ولكنهم استطاعوا أن يقبضوا على زمام الأمور من الناحية السياسية والعسكرية أيضاً حتى صارت خلافتهم قوية، وأعمدتهم عالية وفتوحاتهم متواصلة، ولم يكن ذلك أمراً سهلاً، بل كان طريقاً تخضبت جنباته بالدماء بعضها كان استشهاداً وبعضها كان عدواناً، لكنهم على كل حال وطدوا دعائم الدولة واستطاعوا القفز فوق متن الحضارة حتى يقذفوا بعلماء المسلمين إلى هذا الجانب ويشجعوهم على الخوض فيه،

(١) دكتورة / علياء فوزى محمد البطل / الحياة العقلية في الأندلس / ص ٢٧١.

وممارسته دون أن يقيموا الشيء آخر وزناً، فلما انقضى أمرهم في المشرق لم تختفى منهم الجذوة ولم تخبث وإنما انطلقوا يؤسسون الخلافة الجديدة في المغرب الإسلامي^(١).

ومن كان ذلك شأنهم فلا بد أنهم سيعملون على إبراز حضارتهم بالنسبة للآخرين حتى تكون تلك الحضارة بمثابة الهدف المنشود، والغاية المرجوة وكلما كانت الأمة مستقرة كان نصيبها في الحضارة عالياً، أما إذا اضطربت أحوالها ضاعت الحضارة من بين أيديها.

أما في المغرب الإسلامي فقد كانت الأمور مضطربة إلى أبعد حد، وقد عبر عن تلك الاضطرابات الحروب المتواصلة بين عبد الرحمن الفهري، وبين عبد الرحمن الأموي، ثم الحروب المتواصلة أيضاً بين دولة الخلافة العباسية في المشرق وإمارة الأندلس حتى استقلت بحكم بني أمية.

كما أن النزاعات القبلية والصراعات العرقية كانت هي الأخرى آخذة في التنامي المتواصل بحيث يصعب القول بوجود فترات هدوء نسبي طويلة إبان تلك الفترة، بل كانت الصراعات على أشدها وبخاصة ما يتعلق بالأفكار القديمة، وما يتعلق بالأفكار المستحدثة أو الوافدة، بل كان لسان حالهم يؤكد وجود فريقين :-

* أحدهما : نازح إلى القديم متمسك به ليس لديه استعداد في التخلي عنه مهما كانت المبررات، بل كان هذا القديم الماثور بصرح في وجدانه :

(١) وقد أشرت إلى ذلك وبينت الأنوار التي قام بها خلفاء بني أمية في هذا الشأن وهي وإن تكن إلحاحاً قصيرة إلا أني أراها قد حققت ما علقته عليها.

أمسيت في الماضي أعيش كأنما .. قطع الزمان طريق أمسى عن غد
* ثانيهما : ينشد الجديد متمسك به ليس لديه استعداد للعودة أو التخلف أو
الرجوع للماضي، كأنه يقول لا بد من الفوز بالذات والقفز
إلى واسع الجنبات وكان لسان حاله يقول :-

يفوز بالذات كل مجازف ... ويموت بالחסرات من يخشى العواقب
من ثم لا بد أن يظهر فريق ثالث يعمل على التقريب بين
المتحاورين أو تغليب جانب على آخر، وما دامت الصراعات قد كثرت،
والفرق تباينت فإن عمليات العنف سوف تزداد^(١).

وكما كانت الأمة في صراع واضطراب، فإن الأمور تتقلب على
المفكرين هم الآخرون، لأن الإنسان ابن بيئته فكيف ينشط عقل مفكر،
وهو غير آمن على جسده وعقله وماله، بل كيف يبدع العالم وهو على
يقين من أن ما يقوم به قد يضيع بين أقدام شباب مفرغ، أو بسواعد فتية
ضاعت منهم الأسس الصحيحة^(٢).

في نفس الوقت كان العلماء والمفكرين تتقلب عليهم الأمور
فتجعل جذوة العلم في صدورهم تخبوا أو تنطفئ وينطوى النباه، وقد
يستمر الحال على ذلك فترة طويلة، ومن ثم لا يظهر نتاج عقلي خالص،
أو فكر فلسفي منظم.

وبملاحظة واقع المغرب الإسلامي يتضح أنه مع بداية الخلافة
الضعيفة لم تكن هناك نتائج فلسفية قوية، أما مع بداية الخلافة القوية

(١) دكتورة : علياء فوزى البطل / الحياة العقلية في الأندلس / ص ٢٨٣.

(٢) دكتور / محمد حسنى موسى / ملامح الحكمة الإسلامية في المغرب
/ ص ٢٧٤.

التي ظهر على قمتها عبد الرحمن الثالث، وابنه الحكم المستنصر فقد تغيرت الأمور حيث قفزت العناصر الفكرية قفزة قوية، وبدت الفلسفة في أشكال تنظيمية ذات أثر عميق، وبعد قوى، صحيح أنها كانت خافتة في بعض المباحث لكنها كانت عميقة قوية في الأكثر منها.

وهي وإن بدت في أشكال فردية، أو تغلب عليها الفردية إلا أنها كانت تغدو وتروح في حرية تامة وأمن لا حدود له، وكيف لا وعبد الحكم الثالث نفسه هو الذي يرعى هذه الحركة العاقلة وينفق عليها ويشجع القائمين بها^(١).

كما أن ابنه المستنصر كان هو الآخر من أكثر المحافظين على العلماء والمبدعين، كما كان يستطيع الفصل بين نزاعات الفقهاء، ويوقف تسلطاتهم على العلماء، حيث ظن الفقهاء أن إدارة الدولة مخولة إليهم، وأنهم المسؤولون عن نظامها وقوتها، وأن غيرهم يجب أن يكون تبعاً لهم، بل إن أحكامهم كانت تأتي أحياناً مكللة بالكثير من القسوة والعنف بدليل أنهم في الأندلس جمعوا كتب الإمام "أبو حامد الغزالي" أمام جامع قرطبة الكبير، ثم قاموا بأحراقها على مرأى ومسمع من الناس جميعاً دون احترام لأحد وهذا يدل على ضيق الأفق^(٢).

بل كان الحاكم نفسه يجرى الأرزاق على العلماء، ويقيم لهم مواقع خاصة ويكفل لهم عدم تعرض الفقهاء لهم، كما كان يسعى لأن يكون الفقهاء أنفسهم هم المبدعون، وبالتالي يضمن عدم خروج الفقهاء

(١) دكتور / سامح محمد منصور / عبد الرحمن الثالث وأثره في النهضة الإسلامية بالأندلس / ص ٩٣ ط ١٩٦١.

(٢) دكتور / صبحي محمد نصر / أثر الفقهاء على المبدعين في الأندلس / ص ١٣٧ / طبعة أولى ١٩٦٧ م / دار الجيل / بيروت.

بفتاواهم على القواعد العامة أو يضمن على الأقل أن تكون أحكامهم خالية من القسوة الشديدة وغير حاملة للتجني لما يدركه هو من أن أية أمة لا تنهض إلا إذا كانت تنعم بالحرية ويشعر أهلها بالأمن والاستقرار.

كما أن عملية الاستقرار النفسي تتبع الاستقرار العسكري، وذلك يحتاج الاستقرار الاجتماعي أيضاً، إذ ليس من المعقول أن تنهض حضارة من عقل ترتعش أقدام صاحبه، كما أنه ليس من الممكن أن ينهض مبدع لإنتاج دواء أو القيام بأبحاث متفانيقية وهو فاقد للأصول العامة المنظمة له، وقديماً قيل : إن فاقد الشيء لا يعطيه.

وفي تقديري أن تقدم النتائج العقلية الفلسفي الإسلامي في المشرق على أيدي مفكري الإسلام الأوائل قد كان له من العوامل التي ساعدته على الظهور إلى سطح الأحداث ما لم يتوفر لأقرانهم من المغربيين، في ذات الوقت وإن توفر لهم فيما بعد.

كما أن النتائج الفكرية الفلسفي الإسلامي لا يعتمد على الفلسفة اليونانية أبداً لفقدانها الأصول التي يقف عليها أهل الإسلام، كما أن مباحث الفلسفة الإسلامية تختلف تماماً عن مباحث الفلسفة العامة أو اليونانية^(١).

(١) مباحث الفلسفة العامة هي :

- ١- نظرية الوجود أو الانطولوجيا.
- ٢- نظرية المعرفة.
- ٣- نظرية القيم.

أما مباحث الفلسفة الإسلامية فهي :

- ١- الإلهيات.
- ٢- الطبيعيات.
- ٣- الإنسانيات.

وبلغة أخرى : الله والعالم والإنسان وعلاقة بعضها ببعض.

كما أن تأخر ذلك النوع من التفكير العقلي في بلاد المغرب الإسلامي عنه في بلاد المشرق الإسلامي كانت له الدواعي والعوامل أو الأسباب التي أدت إليه على ما سلف تقديم الإجابة عنه، ولكنه حين ظهر وتكاملت أجزاؤه صارت قوية مؤثرة ذات أثر بعيد، وعمق كبير، بجانب القدرة على انتزاع نتائج صحيحة ووضع علامات لنتائج مستقبلية.

كما أن الفلسفة التي ظهرت في المغرب قد جمعت بين الانفتاح والفلسفة والأطباء حتى صار الواحد منهم يجمع بين هذه الثلاث ويتميز فيها كلها كالحال مع ابن باجة فقد كان فقيهاً، طبيباً، فيلسوفاً أيضاً، وكذلك مع ابن طفيل وابن متون، وابن جماعة.

أما ابن رشد فلا ينسى أحد أنه كان فقيهاً مالكياً، ومن أشهر مؤلفاته في هذا الجانب : بداية المجتهد ونهاية المقتصد^(١). كما كان هو ذاته قاضياً قضاء قرطبة الأغر، وفوق ذلك فقد كان طبيبها المتميز الذي كتب في الطب ونقل عن الأطباء وترجم منهم وإليهم^(٢).

كما كان فيلسوفاً مبدعاً، بل أنه استطاع مناقشة الفلاسفة الآخرين ثم النقل عنهم وإصلاح ما تركوه من أخطاء، وفوق ذلك رد على نقودات الإمام الغزالي، ومن نفس المنطقة التي انطلق منها الإمام الغزالي، انطلق هو لكن الغاية بينهما كانت بعيدة، لأن الإمام الغزالي كان يقصد هدم الفلسفة وتدمير الفلاسفة، ولذلك ظهر نشاطه عن هذا الجانب في

(١) وهو من أكثر الكتب شهرة في مجال أصول الفقه، ويدل أيضاً على تمكن أبي الوليد من الفقه المالكي وأصول الفقه أيضاً.

(٢) ومن أشهر كتبه في هذا المجال / الكليات في الطب / راجع الموسوعة العربية الميسرة، دكتور / عبد المعطى محمد بيومي / الفلسفة الإسلامية من المشرق إلى المغرب / ابن رشد.

كتابه : مقاصد الفلاسفة الذي جمع فيه قضاياهم، ثم جاء كتابه : تهافت الفلاسفة^(١) ليجهز على دعاوهم وقضاياهم اجهازاً تاماً من وجهة نظره.

غير ان ابن رشد قد حاول مصارعة الإمام الغزالي، وربما حقق في ذلك الطريق بعض النجاحات، أو رد للفلاسفة الاعتبار الذي سلبه الإمام الغزالي عنهم، وجاء ذلك في كتاب ابن رشد : تهافت التهافت.

إن تغيرت الأحوال فيما بعد فصارت الفلسفة الإسلامية في المشرق من زاوية داخل كهوف ضيقة أوشكت أن يطويها النسيان حيث يقوم بها أفراد قلائل في توجس وخيفة من الرأي العام كائن من الآثار التي خلفتها حملة الإمام الغزالي على الفلسفة والفلاسفة، بل أوشكت تلك المباحث الميتافيزيقية على الانسياق في بعض المعارف الأخرى التي اختلطت بها كعلم الكلام والتصوف بل والتفسير والحديث أيضاً من خلال الشروح التي تقدم للسنة النبوية المطهرة.

بينما ظهرت هذه الفلسفة في المغرب الإسلامي مستوية قائمة على ساقين قويتين، ثم انتصبت يافعة عميقة المباحث قوية الأسس وهذا من شأنه أن يجعل الفلسفة في المشرق الإسلامي ذات مذاق خاص وطبيعة مستقلة وهو ما سوف اكتشف عنه أثناء الحديث حول أوجه المقارنة بين نتائج الفريقين في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

(١) قام الأستاذ الدكتور / سليمان دنيا بتحقيق كتاب / مقاصد الفلاسفة، وكتاب / تهافت الفلاسفة، ونشرته دار المعارف بمصر فحقق فائدة كبرى للقاريء.

الفصل الخامس

بين الفلسفة الإسلامية في المشرق والمغرب

الفصل الخامس

بين الفلسفة الإسلامية في المشرق والمغرب

سلف الحديث عن طبيعة المباحث الفلسفية الإسلامية^(١)، كما ألمحت إلى تعريف الفلسفة الإسلامية لدى مفكرى الإسلام الأوائل، وبيّنت علاقتها بالنصوص الشرعية، حيث ظهر أنها تقوم في مباحثها الأصلية على ذات النصوص الشرعية، وأنها إذا استعملت مفردات أو مصطلحات أخرى وإرادة من بيئة غير إسلامية فإنما نقرغها من المضمون والمحتوى، وتستعملها في أمر جديد يتناسب مع طبيعة المباحث الفلسفية الإسلامية^(٢).

كما ذكرت أن ظهورها في المشرق الإسلامي كانت له عوامل عديدة، منها القرب المكاني من مهبط الوحي، والقرب الزماني من سيدنا رسول الله ﷺ وكذلك وجود العديد من أصحاب الديانات الأخرى داخل البيئة الإسلامية، بجانب تشجيع الخلفاء المسلمين لأصحاب العقول حتى تبذل جهودها في استخراج كنوزها والاستفادة من الناتج العقلي القائم على شريعة^(٣).

ثم تحدثت عن عوامل وأسباب ظهورها في المغرب الإسلامي، ورأيت الأسباب التي أدت إلى تأخر ظهورها في هذه المنطقة من العالم الإسلامي على النحو الذي سلف ببيانه في السطور التي انقضت الحديث عنها، وقد بذلت في ذلك الجهد الذي وفقني الله تعالى إليه^(٤).

(١) سبق الحديث عنها في ص ١٦ وما بعدها.

(٢) سبق الحديث عنها في ص ٤٢ وما بعدها.

(٣) سبق الحديث عنها في ص ١١٥ وما بعدها.

(٤) سبق الحديث عنها في ص ١٨٣ وما بعدها.

لكن تبقى نقطة مهمة تحتاج الدراسة وهي : هل توجد هناك أوجه مقارنة بين نتائج عوامل ظهور الفلسفة لدى فريقى المشرق والمغرب بحيث يمكن اعتبارها قواسم مشتركة.

ثم تأتي عوامل أخرى، أو نواتج أخرى يمكن إعتبارها أوجه للتمايز بين نتائج عوامل هذين الفريقين، أم أن كلا منهما أثر في الثاني تأثيراً كاملاً، فصار صورة منه، ومن ثم يحكم على اللاحق بأنه قلد السابق من غير نظر أو تفكير، ذلك ما سوف أتعرض له فيما يلي إن شاء الله تعالى :-

❦ أولاً : أوجه الإتفاق :

من الواضح أن هناك وجوها عديدة من الإتفاق بين مفكرى المسلمين عموماً في المشرق والمغرب على السواء، ومن هذه الوجوه "العديدة تظهر بوارق تكشف عن أكثرها وضوحاً منها :-

أولاً : التزام النقل المنزل :

ما دامت القاعدة الشرعية هي أن المفكر المسلم يلتزم النقل المنزل، فإن هذا الأمر مما يتفق فيه الفلاسفة المسلمون عموماً، لأن هاديتهم إلى ذلك قوله تعالى ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ حَىٰ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١).

أى ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بكل خير وصلاح، وينهى عن كل شر وفساد. قال المفسرون :

(١) سورة الحشر / ٧.

والآية وإن نزلت في أموال الفيء، إلا أنها عامة في كل ما أمر به النبي ﷺ أو نهى عنه، من واجب، أو مندوب، أو مستحب، أو محرم، فيدخل فيها الفيء وغيره^(١).

وعن ابن مسعود أنه قال : "لعن الله الواشمات، والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله" فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها "أم يعقوب" وكانت تقرأ القرآن - فأنته فقالت : ما حديث بلغني عنك أنك قلت كذا وكذا، وذكرته له، فقال ابن مسعود : ومالي لا لعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله تعالى؟ فقالت المرأة لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته، فقال : إن كنت قرأتيه لقد وجدته، أما قرأت قول الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾؟ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى خافوا ربكم بامتنال أو امره واجتنب نواهيه فإن عقابه أليم وعذابه شديد لمن عصاه وخالف ما أمره به^(٢).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ قُلْ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَزَجًا مِمَّا قُضِنَتْ

(١) الإمام الرازى / مفاتيح الغيب / ج٢٩ / ص ٢٨٦.

(٢) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج١٨ / ص ١٩، والحديث أخرجه البخارى ومسلم.

- والوشم : هو غرز العضو من الإنسان بالإبرة ثم يحشى بكحل.
- والمستوشمة : هى التي تطلب أن يفعل بها ذلك.
- والنامصة : هى التي تنتف الشعر من الوجه.
- والمنقلجة : هى التي تتكلف تفريج بين أسنانها من أجل الحسن، وكل ذلك منهى عنه، لأن فيه تغييراً لخلق الله. راجع / الإمام الصابونى / صفوة التفسير / ج٣ / ص ٣٥١.

وَيَسْلَمُوا تَسْلِيمًا^(١). واللام في الآية الكريمة لتأكيد القسم، والمعنى : فوريك يا محمد لا يكونون مؤمنين حتى يجعلوك حكما بينهم، ويرضوا بحكمك فيما تنازعوا فيه واختلفوا من الأمور، ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقاً من حكمك، وينقادوا انقياداً تاماً كاملاً لقضائك من غير معارضة ولا مدافعة ولا منازعة، فحقيقة الإيمان الخضوع والإذعان^(٢).

ومنه قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾^(٣) أى أتاكم حجة من الله وهو محمد رسول الله ﷺ المؤيد بالمعجزات الباهرة وأنزلنا عليكم القرآن ذلك النور الوضاء، فالذين صدقوا بوحدانية الله وتمسكوا بكتابه المبين فسيدخلهم في جنته دار الخلود، ويهديهم إلى دين الإسلام في الدنيا وإلى طريق الجنة في الآخرة^(٤).

وأيضاً قوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٥).

والخطاب في الآية الكريمة لليهود والنصارى، والمعنى يا معشر أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا محمد ﷺ بالدين الحق يبين لكم الكثير مما كنتم تكتمونه في كتابكم من الإيمان به، ومن آية الرجم، ومن قصة

(١) سورة النساء / ٦٥.

(٢) الإمام ابن كثير / المختصر / ج ١ / ص ٤١١.

(٣) سورة النساء / ١٧٤.

(٤) لعلامة أبو السعود / تفسير أبو السعود / ج ١ / ص ٤٠١.

(٥) سورة المائدة / الآيات ١٥، ١٦.

أصحاب السبب الذين مسخوا قررة وغير ذلك مما كنتم تخفونه، ﴿وَيَعْقُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أى يتركه ولا يبينه، وإنما يبين لكم ما فيه حجة على نبوته، وشهادة على صدقه، ولو ذكر كل شيء لفضحكم، وفي الآية الكريمة دليل على صحة نبوته ﷺ لأنه - عليه السلام - بين ما أخفوه في كتبهم وهو أمى لم يقرأ كتبهم، قد جاءكم نور هو القرآن لأنه مزيل لظلمات الشرك والشك وهو كتاب مبين ظاهر الاعجاز، يهدى بالقرآن من اتبع رضا الله طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة، ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بتوقيفه وإرادته ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هو دين الإسلام^(١).

وقول الرسول الكريم ﷺ: "تركت فيكم ما ان تمسكنم به لن تضلوا بعدى أبداً: كتاب الله وسنتي"^(٢) وأيضاً قوله ﷺ: "انه ستكون فتن كقطع الليل المظلم، قيل وما المخرج منها يا رسول الله، قال: كتاب الله، فيه نبا من قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم من عمل به أجر، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن اعتصم به فقد هدى إلى صراط مستقيم"^(٣).

ومن هذه النصوص وغيرها يجد المفكر المسلم نفسه - أياً كان موقعه، وأياً كانت اتجاهاته المذهبية - متجهاً إلى أعمال عقله في ذات

(١) العلامة / أبو حيان التوحيدى / البحر المحيط / ج٣ / ص٤٤٨.

(٢) الحديث رواه الإمام البخارى في صحيحه ج٣ / ص١١١١، والإمام مسلم في صحيحه ج٣ / ص١٢٥٩.

(٣) الحديث رواه الترمذى في سننه / ج٥ / ص١٧٢، والإمام البخارى في فضل القرآن.

النصوص، ومحاولة خدماتها بأقصى طاقة ممكنة، بدليل أن المحدثين والمفسرين بجانب الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة المسلمين، وعلماء الأخلاق، كل يسعى لتوثيق أدلته من الناحية الشرعية، سواء أصاب الهدف كاملاً أم أخطأه الطريق في بعض مراحل.

وبناء عليه رأينا أصحاب الفرق الكلامية من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية بل من غيرهم كل يعمل على أن يجد لأرائه دليلاً شرعياً حتى لا يصطدم مع الرأي العام ولا يصادم باقي النصوص الشرعية، وفي نفس الوقت حتى لا يخرج بأبحاثه عن ما دعت إليه الشريعة الإسلامية، وكان الصوفية هم الآخرون يعلنون ذلك بدليل أن الإمام "الجنيدي" كان يقول : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فما وافقهما فخذوه، وما خالفهما فاضربوا به عرض الحائط^(١).

فإذا نظر الباحث إلى فلاسفة المشرق من أهل الإسلام وجدهم يعتمدون على النصوص الشرعية، فهذا الكندي يستخدم طريقاً رياضياً ليثبت به وجود الله تعالى، ويعتمد هذا الطريق في مقدماته على نصوص قرآنية من مثل قوله تعالى ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢).

(١) الشيخ / محمد توفيق عبد البديع النوراني / الصوفية بين الأحوال والمقامات / ص ١٧ طبعة أولى / الدار الميمنية ١٣١٣ هـ.

(٢) سورة الحديد / الآية ٣ ، والمعنى : ليس لوجوده بداية، ولا لبقائه نهاية وهو الظاهر للعقول بالأدلة والبراهين الدالة على وجوده، الباطن الذي لا تدركه الأبصار، ولا تصل العقول إلى معرفة كنه ذاته، وفي الحديث : أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، فهو سبحانه ظاهر بوجوده، باطن بكنهه لأنه تعالى جامع بين الوصفين أزلاً وأبداً، وهو تعالى عام بكل ذرة في الكون لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء.

راجع الإمام القرطبي / ج ١٧ / ص ٢٣٦، والحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده والإمام مسلم في صحيحه.

فالأول من الناحية الشرعية هو الله تعالى حقيقة ثابتة، ومفهوم الأول هنا يقطع مفهوم كل أول غيره، بمعنى أن أوليه الله لا ابتدء لها، وآخره الله لا إنتهاء لها، وإنما ساق الله تعالى الألفاظ – الأول – الآخر – الظاهر – البطن – وغيرها لتقرب إلى العقول بعض المفاهيم المتعلقة بصفاته العظمى، لأن الإمام الغزالي يقول : لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله^(١).

أما الكندي فقد أخذ من الآية قاعدة يبطل بها كل المفاهيم السائدة، بحيث لا يبقى إلا مفهوم واحد ثابت هو الله عز وجل، ولذلك استخدم البرهان الرياضي فقال :

إذا افترضنا أن هناك رقماً لا ينتهي من حيث الآخر، ولا ينتهي من حيث البداية وبالتالي يشارك الله في صفتي الأولية والآخرية، فهذا الافتراض غير صحيح.

ثم علل ذلك بقوله : أنا إذا افترضنا رقماً رياضياً ابتدأ من رقم واحد، ثم استمر في التدافع إلى ما لا نهاية، وأشرنا برمز (أ)، ثم جننا برقم رياضي آخر كالسابق، ورمزنا له بالرمز (ب)، ثم قطعنا من أحدهما رقماً كالألف مثلاً، فإن أحد الرقمين قد صار ناقص من غيره بنسبة الجزء الذي اقتطع هكذا

لا متناهي (أ) يبدأ من رقم (١) ————— إلى ما لا نهاية.

لا متناهي (ب) يبدأ من ١٠٠٠ ————— إلى ما نهاية لأنه

قطع منه إلى الألف

(١) الإمام / أبو حامد الغزالي / إجماع العوام من علم الكلام / ص ١٧ طبعة الجندی / مع مجموعة القصود العوالي، وكذلك رسائل الإمام الغزالي طبعة / بيروت، وهي تشتمل على ستة وثلاثين رسالة من غير تحقيق.

ثم يقول الكندي : إذا قلنا أن العددين متساويان رغم أن أحدهما قطع منه، والثاني لم يقطع منه، فقد أظهرنا أن صاحب هذا القول ينكر البدهيات، ومثله مكابر لا يلتفت إليه^(١).

وإذا قلنا أن الذي لم يقطع منه أكبر من الذي قطع منه فقد صار أحدهما أكبر والثاني أصغر أو أحدهما أتم والثاني أنقص مع أنهما في الأصل متساويان، وبناء عليه فكل منهما يلحقه النقصان للقاعدة القاضية بأن المتماثلين في كل شيء يتشابهان من كل ناحية^(٢).

أما إذا قلنا أن ما قطع منه جزء محصور، فإن هذا الجزء المحصور تكون له بداية ونهاية، وبناء عليه يكون متناهياً، والقاعدة الرياضية قاضية بأنه إذا قطع من اللامتناهي جزء متناهي صار الكل متناهياً، بناءً على أن ما يثبت للجزء يثبت للكل المندرج فيه والشامل له^(٣).

وبهذا استطاع المتكلمون فيما بعد استخدام الدليل الرياضي عند الكندي لينبئوا به وحدانية الله – جل علاه – وإبطال التعدد على كل ناحية وعرف ذلك عندهم بأوجه بطلان التسلسل^(٤).

(١) د. عبد الحليم محمود / التفكير الفلسفي في الإسلام / ص ٢٨٨ وما بعدها، دكتور / محمد حسيني موسى / التفكير الإنساني أصوله ومستوياته / ص ١٧٨، وما بعدها.

(٢) دكتور / محمود نصر الله الفقي / أبو يعقوب الكندي وفلسفة ص ١٠٢ / طبعة أولى / الموصل ١٩٨٣.

(٣) دكتور / محمد عبد العظيم مراد / الفلسفة الإسلامية في المشرق / ص ١٧١ طبعة أولى / مطبعة سعيد رافت ١٩٨٢ م.

(٤) ويعرف التسلسل بأنه : ترتيب أمور غير متناهية، فكل دور تسلسل في المعنى كما يعرف بأنه : توالي عروض العلوية والمعلولية، لا إلى نهاية، بأن يكون كل ما هو معروض للعلوية معروض للمعلولية، ولا ينتهي إلى ما تعرض له ==

فإذا عاودنا النظر إلى ما خلفه فلاسفة المغرب ظهر هذا الدليل الرياضي في صورة أو أخرى لدى كل من ابن باجة^(١)، وابن طفيل^(٢)،

== العلية دون المعلولة، فإن كانت المعروضات متناهية، فهو الدور بمرتبة، أن كانا اثنين وبمراتب إن كانا فوق الاثنين، وإلا فهو متسلسل.

راجع / الشيخ / محمد الأمير / حاشية الأمير / ص ٦٠، وأيضاً التعريفات للجرجاني / ص ٤٨، وللشيخ الأمير في حاشية جهود كبير في إبطال التسلسل فقد أبطله من خلال أحد عشر وجهاً فليرجع إليه لمن أراد المزيد ص ٦١، ٦٢. وقد تعددت أوجه بطلان التسلسل حتى أوصلها بعض الدارسين إلى تسعة عشرة وجهاً أو يزيد هذا العدد قليلاً أو ينقص قليلاً.

(١) ولد أبو بكر محمد بن يحيى التجيبي الملقب بابن الصائغ أو بابن باجة من أسرة عريقة هي أسرة آل تجيب ملك سرقسطة لفترة طويلة ولا يعرف تاريخ مولده بالضبط، إلا أنه ولد في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي – القرن الخامس الهجري في مدينة سرقسطة، ولا يعرف التاريخ نشأته الأولى بالتفصيل، وكل ما يذكره المؤرخون أنه تلقى الكثير من العلوم في مسقط رأسه سرقسطة، ثم هرب منها قبل استيلاء النوبى الأول عليها، وذهب إلى أنشيلية سنة ١١١٨م، وعمل فيها بالطب، وألف عدة رسائل في المنطق، ثم انتقل إلى غرناطة ثم إلى أفريقيا واستقر في مراكش عاصمة المرابطين الذين قدروا مواهبه فاستوزروه وعاش في بلاط المرابطين في فاس مقرباً من السلاطين، وهو على حظوة وحشمة كبيرة، دس له الأعداء السم فمات به وهو بعد في سن الشباب، جاءت مؤلفاته قليلة ومجتزأة لقصر المدة التي عاشها ولاضطراب هذه الفترة. راجع د. محمد غلاب / الفلسفة الإسلامية في المغرب / ص ٣٨، د. عبد المعطى محمد بيومي / الفلسفة الإسلامية من المشرق إلى المغرب / ج ٣ / ص ١٧٩.

(٢) لا يعرف التاريخ كثيراً من المعلومات حول المراحل الأولى من حياة ابن طفيل، كل ما يعرفه عنه أنه : محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي نسبة إلى قبيلة قيس المعروفة، ويسمى كذلك الأندلسي والأشبيلي والقرطبي، ولد سنة ٤٩٤هـ أو ٥٠٤هـ (أوائل القرن الثاني عشر الميلادي) في مدينة قانس، وهي مدينة صغيرة تبعد حوالي ٦٠ كيلومتر من غرناطة، ويحتمل أن يكون قد تلقى تعليمه الأول في غرناطة، وكانت حياة ابن طفيل دائماً ==

وابن رشد أيضاً، لكن تحت مسميات تتناسب مع طبيعة ذات المفكر مع حساب أن الغاية لدى كل من الفريقين واحدة.

يقول دكتور عبد الباسط زعزوع: إن صدى فلسفة المشرق ظهر في عقول مفكرى المغرب، وكان الدافع إلى ذلك هو التزام الفريقين بالنصوص الشرعية بجانب عمل كل منهما على إثبات غاية متميزة هي وحدانية الله تعالى، والدفاع عن العقيدة وبيان ما في النصوص الشرعية من غيم عالية^(١).

== بجوار الأمراء فقد عمل كاتب سر لحاكم غرناطة ولحاكم طنجة، ومن جهة أخرى فإن ابن طفيل كان محباً للعلم عالماً باللغة والأصناف شغوفاً بالفلسفة وكتبها، وقد روى المؤرخون أنه جمع منها قريباً مما جمع الحكم الثاني في عهده، ومن جهة أخرى كان ابن طفيل وفيه لرحم العلم بينه وبين مفكرى عصره فكان يختار الصفوة منهم إلى مجلس الأمير وهو الذي قدم ابن رشد إلى الخليفة ورغب إليه أن يترجم كتب أرسطو، وكان ابن طفيل مشهوراً بتلاميذه وحبهم لهم، وكان يسير معهم على أساس تنمية مواهبهم، وكان يطلب منهم أن يعالجوا المشكلات الفلسفية والعلمية، ويوضح لهم طرق المعالجة والبحث، له من المؤلفات الكثيرة منها: مراجعات ومباحثات في الطب بين ابن طفيل وابن رشد، وأيضاً: أرجوزة في الطب، رسالة في النفس، مقالة في الجغرافيا، وبعض القصائد الصوفية، والرسالة المشهورة (حى بن يقظان) وهي الرسالة التي واجه فيها ابن طفيل كل مشكلات الفلسفة الإسلامية بصراحة ووضوح وعمق وبساطة في الوقت ذاته، وقد ترجمت هذه الرسالة إلى لغات عديدة واهتمت بها جامعات العالم وكثير من المحققين، كان ابن طفيل متمكناً من اللغة رقيق حواشى الأسلوب، وربما كان الفيلسوف الإسلامى الوحيد الذي استطاع أن يصوغ فلسفته في قالب قصصى واضح العبارة بين الهدف بعيد عن المصطلحات قدر الإمكان. راجع: د. محمود قاسم / دراسات في الفلسفة الإسلامية، د. عبد المعطى محمد بيومى / الفلسفة الإسلامية من المشرق إلى المغرب / ص ١٩٤ وما بعدها.

(١) دكتور / عبد الباسط محمد زعزوع / الفلسفة الإسلامية في المشرق والمغرب / ج١ / طبعة أولى ١٩٧١ / طبعة دار كركوك في العراق.

ثانياً : الصفات من العقيدة الإسلامية :

المفكر المسلم يعلم يقيناً أنه مسئول أمام الله تعالى عن تبليغ دين الله أياً كان موقعه، لأن الله - عز وجل - أمر بذلك في قوله - جل شأنه - : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً قُلُوا لَا نَقْرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(١).

لقد كان من تدبير الله سبحانه وتعالى أن فتح للمسلمين جبهة جديدة من جبهات الجهاد وهي التفقه في الدين، فهناك نفر كالنفر إلى الجهاد وهو نفر إلى التفقه في الدين والتعرف على أحكام الشريعة، ففي نفر إلى الجهاد يقول تعالى : ﴿اتَّقُوا خِيفَاتُهَا وَتَقَالًا﴾، وفي نفر إلى العلم فريضة على كل مسلم كفر بضة الجهاد سواء بسواء، فإذا كان الجهاد بالسيف فكذلك يكون الجهاد في ميدان العلم والتفقه في الدين أنه يدفع عن القلوب غشاوات الجهل والضلال ويمكن لدعوة الإسلام أن تأخذ مكانها من العقول والقلوب، فتمكن لها في أهلها، وتقسمهم منها على مودة وإخاء، فيزكو نبتها الطيب فيهم، وتؤتي مبادئها أكلها المبارك لأبيديهم فالتفقه في الشريعة ومطالعة آياتها المعجزة والوقوف على ما فيها من روائع الحكمة وأسرار الوجود هو الذي يقيم في نفس المسلم إيماناً صحيحاً ومعتقداً سليماً متمكناً، يهيء للمجتمع الإسلامي الإنسان المؤمن الذي يجاهد في سبيله ويستشهد من أجل حمايته، ودفع يد المعتدين عليه^(٢).

(١) سورة التوبة / ١٢٢.

(٢) الأستاذ / عبد الكريم الخطيب / التفسير القرآني للقرآن / م ٣ / ٩ - ١٢ ص ٩١٧، ٩١٨ / ط دار الفكر العربي، وأيضاً الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج ٨ / ص ١٨٦ / ط أولى ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان، وأيضاً / العلامة ابن عاشور / التحرير والتنوير / م ٦ / ص ٦٠ ط دار سحنون للنشر والتوزيع / تونس.

وقال الإمام الألويسي : "وكان الظاهر أن يقال "ليعلموا" بدل "ليندروا" و "يفقهون" بدل "يحذرون" لكنه اختير ما في النظم الجليل للإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون غرض المعلم : الارشاد والإنذار، وغرض المتعلم : اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار^(١).

وقال العلامة الصابوني : لا ينبغي خروج جميع المؤمنين للغزو، بحيث تخلو منهم البلاد، وعن ابن عباس أنه تعالى لما شدد على المتخفين قالوا : لا يتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبداً، فلما قدم الرسول ﷺ - وأرسل السرايا إلى الكفار نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو، وتركوه وحده بالمدينة فنزلت هذه الآية ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ أى فإذا لم يمكن تغير الجميع ولم يكن فيه مصلحة، فهلا نفر من كل جماعة كثيرة فئة قليلة، ليصبحوا فقهاء ويتكلفوا المشاق في طلب العلم وليخوفوا قومهم ويرشدوهم إذا رجعوا إليهم من الغزو، لعلهم يخافون عقاب الله بامتنال أو امره واجتناب نواهيه^(٢).

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾^(٣)، والمعنى : ادع يا محمد الناس إلى دين الله وشريعته القدسية بالأسلوب الحكيم واللفظ واللين، بما يؤثر فيهم وينجع لا بالزجر والتأنيب والقسوة والشدة، وجادل المخالفين بالطريقة التي هي أحسن من طرق المناظرة والمجادلة بالحجج والبراهين والرفق واللين، إن ربك يا محمد هو العالم بحال الضالين

(١) الإمام الألويسي / روح المعاني / ج ١١ / ص ٤٧.

(٢) النجاة الصابوني / صفوة تنقيسير / ج ١ / ص ٥٦٨.

(٣) سورة النحل / ١٢٥.

وحال المهتدين فعليك أن تسلك الطريق الحكيم في دعوتهم ومناظرتهم، وليس عليك هدايتهم إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب^(١).

ومن ذلك قوله ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"^(٢) وقوله ﷺ: "بلغوا عنى ولو آية، فرب مبلغ أوعى من سامع"^(٣)، ولما كانت النصوص الشرعية قد جاءت حاثّة المسلم على تبليغ دين الله، فإن هذا التبليغ لا يقتصر على زمان بعينه أو مكان بذاته، بل أفراد مخصوصين، أو رسائل محددة، وإنما تسرع النصوص بالمسلم ليتخذ موقفاً مقبولا عند ربه، فأما عرض للعقيدة الإلهية، ومباشرة للسلوك الشرعي الذي تدل عليه التكاليف الشرعية، وأما يتمثل ذلك الموقف في دفاع متواصل عن العقيدة الإلهية، وذلك بالنظر إلى الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام، ثم بيان ما في تلك الشبهات من أوجه الخطأ والضلال، بحيث تبقى العقيدة الإلهية صافية المرأى، كما هي صافية المنبع، نقيّة النتائج لقوله ﷺ: "والله قد جنتكم بها بيضاء نقية"^(٤).

والمفكرون المسلمون قد بذلوا جهوداً كبيرة في الدفاع عن العقيدة كل من خلال الوسائل التي أتاحت له، أما الفلاسفة المسلمون فقد تعاونوا في الدفاع عن العقيدة الإلهية، فهذا الفارابي يقدم صورة رائعة في كتابه: الثمرة المرضية بحيث يقرر العقيدة الإلهية، ويدافع عنها دفاعاً عالياً خالصاً^(٥).

(١) الإمام الرازي / مفاتيح الغيب / ج ٢٠ / ٢١٢٩، ١٣٠.

(٢) الحديث روه الإمام البخاري في صحيحه / ج ٤ / ١٩١٩، و الإمام أحمد في مسنده / ج ١ / ص ١٥٣.

(٣) الحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه / ج ٣ / ص ١٢٧٥.

(٤) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده / ج ٣ / ص ٣٨٧.

(٥) دكتور / عبد الحليم محمد نوار / نفارابي وفلسفته / ص ٧٨ / طبعة أولى / ١٩٦١م.

وكذلك الشيخ الرئيس ابن سينا، ينهض في كتابه : الاشارات والتنبيهات حتى يحاور الطبيعيين، والماديين، بل والحسيين، وكل أصحاب الاتجاهات الدينية والعقلية المنحرفة، ثم يبطل كل معتقداتهم، ويثبت في شكل علمي لا يقبل الجدل ان الله تعالى واحد منزه لا شبيه له، ولا ند، ولا شريك، وقد استخدم في ذلك الطريق المفاهيم الرياضية رغم أن عنوان المباحث التي جاءت فيها تلك المسائل هو : "فصل في الوجود وعلله"^(١).

فذكر ابن سينا المثلث، والإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد، على أنها أسماء كلية موجودة في الذهن، لكن أفرادها الجزئية محسوسة وموجودة في الخارج، ولا يستطيع أحد أن ينكر وجود الكليات الذهنية ولا أن يعتبرها جزءاً مادياً محسوساً.

وبناءً عليه أثبت أن الله تعالى موجود في الفطر السليمة، وأن آثاره موجودة في الخارج، كالسما والارض، والنبات والإنسان والماء وغير ذلك^(٢).

ولا شك أن ما قام به الشيخ الرئيس من دفاع عن العقيدة الإلهية وإبطال آراء الماديين والحسيين، بل والطبيعيين يؤكد أن من أهداف الفلسفة الإسلامية، بل وغاياتها الأصلية الدفاع عن العقيدة الإسلامية من خلال منظور عقلي يوازن بين قضايا الطبيعة، ونتائج ما ترشد إليه

(١) الشيخ الرئيس / ابن سينا / الاشارات والتنبيهات / القسم الثالث / ص ٨ إلى ص ٤١، وقد قام الدكتور سليمان دنيا بتحقيق هذا الكتاب ونشرته سلسلة ذخائر العرب، وغيره من الباحثين ممن اهتموا بفكر الشيخ الرئيس.

(٢) الشيخ / محمد عبد العظيم نور الدين المنيلوي / فلسفة ابن سينا الكلامية ص ١٠١ طبعة الدار الرحمانية ١٣١٨هـ.

النصوص الدينية، ثم وضع هذين الأمرين في قالب واحد يكون بمثابة السهم الذي يوجهه إلى عقول أولئك المجادلين في الله بغير علم الذين تهددهم الله - تعالى - بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١).

فالذين بضعنون في آياتنا بانتحريف والتكذيب والإنكار لينا لا يغيب أمرهم عنا فنحن لهم بالمرصاد، قال قتادة : الإلحاد : الكفر والعناد، وقال ابن عباس هو تبديل الكلام ووضعه في غير موضعه^(٢).

وقال الإمام الرازي : والغرض التنبيه على أن غير الملحددين في آيات الله يلقون في النار، وأن المؤمنين بآيات الله يكونون آمنين يوم القيامة، وشتان ما بينهما^(٣).

نفس المسلك قام به أبو الوليد بن رشد فيلسوف قرطبة الأغر، حين عمد إلى بيان دلائل عديدة يثبت بها وجود الله وتنزيهه وبيان طرائق الدفاع عن العقيدة الإلهية، يقول أستاذنا فضيلة الأستاذ الدكتور عبد المعطى بيومي : "هو الذي لفت الأنظار إلى الأدلة الشرعية التي تستخلص من القرآن الكريم بعد فترة طويلة انغمس فيها المفكرون المسلمون في إيراد أدلة الإمكان والوجوب كما فعل الفلاسفة، أو أدلة الحدوث كما فعل المتكلمون.

وقد كانت هذه الأدلة من التعقيد والغموض بحيث لا تكفى لترسيخ الاعتقاد بوجود الله، وكانت الشبهات التي تثار حولها قاصرة عن إدراك

(١) سورة فصلت / ٤٠.

(٢) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج ٥ / ص ٣٦٦.

(٣) الإمام الرازي / مفاتيح الغيب / ج ٢٧ / ١٣١.

هذا المطلوب الأهم من الدين بحيث لو علقنا إيمان المؤمنين على أدلة الحدوث أو الامكان والوجوب لما كانت ثمة فائدة في تحصيل الإيمان أو حفظه من الزيغ والارتياب.

فقد عاب ابن رشد على الحشوية والأشعرية والصوفية والمعتزلة طرقهم في الاستدلال على وجود الله لأنها كلها ليست واحدة منها هي لطريقة الشرعية التي دعا الشرع منها جميع الناس على اختلاف فطرتهم إلى الاقرار بوجود الباري سبحانه^(١)، ويقدم ابن رشد منهج الشرع في الاستدلال على وجود الله بطريقتين هما العناية والاختراع^(٢)، وكلها من الأدلة المقنعة يقول ابن رشد: "إن الأدلة التي تستخدم في إثبات وجود الله يجب أن تكون بديهية وغير معقدة أى خالية من تفرغ المتكلمين وتقسيماتهم العقلية، كما ينبغي ألا تثير الشبهات وأن تكون أدلة العقل والشرع في آن واحد، إذ الحقيقة واحدة، وبذا تتجه هذه الأدلة في يسر إلى الناس جميعاً عامة وخاصة، وربما حفزت العامة إلى الرغبة في المعرفة للوصول إلى مرتبة العلماء^(٣)."

وقد وجد ابن رشد أن الأدلة التي استخدمها الفلاسفة هي نفس الأدلة التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، ويريد بذلك دليل العناية الإلهية ودليل الاختراع^(٤).

(١) راجع أ. د. / عبد المعطي بيومي / الفلسفة الإسلامية من المشرق إلى المغرب / ج ٣ / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢ م / دار الطباعة المحمدية.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن رشد / مناهج الأدلة في عقائد الملة / ص ٢٤ / تقديم وتحقيق دكتور / محمود قاسم / مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٤ م.

(٤) ابن رشد / مناهج الأدلة / ص ٢٤.

تحليل العناية :

هذا الدليل يبنى على أصليين :

الأول : موافقة جميع الموجودات لوجود الإنسان الذي هو أرقى المخلوقات المكلفة.

الثاني : إن هذه الموافقة مقصودة من قبل فاعل ضرورة.

وهذا الدليل مما نبه إليه ابن رشد، وركز على أن الشرع الشريف قد دعا الناس لمعرفة الله تعالى من خلالها، ولذلك تراه يقول عن الأصليين :

- أحدهما : أن جميع الموجودات ههنا موافقة لوجود الإنسان.
- والثاني : أن هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مرید إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق^(١).

ويدخل في ذلك موافقة الليل والنهار، والشمس والقمر، وما فيها من منافع وكذلك الأجرام العلوية، وموقف هذه المنافع على وجود الإنسان ومدى استفادته منها، مما أفاض فيه المتخصصون قديماً وحديثاً القول.

وكذلك يدخل فيه موافقة الأزمنة الأربعة، والأرض من حيث هي كروية ومن حيث هي قشرة وتربة وما فيها من منافع، وكثير من الحيوان والنبات، والجماد والأمطار، بل والرياح، كذلك موافقة أعضاء الإنسان وأعضاء الحيوان لحياته ووجوده، وكل هذا من دليل العناية الذي يدفع إلى ضرورة الاعتقاد بوجود إله واحد له من صفات الجلال والكمال ما لا يشاركه فيه غيره.

(١) المصدر السابق / ص ١٥٠.

والآيات الدالة على ذلك كثيرة - قال تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(١)، وقال تعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾^(٢).

طليح الاختراع :

وهو الطريق الثاني مما ادعى ابن رشد أن الشرع الشريف قد نبه إليه في القرآن الكريم : وهو ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء والموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد والادراكات الحسية والعقل^(٣).

ويدخل فيه وجود الحيوان كله، ووجود النبات، ووجود السموات، وهذه الطريقة تنبني على أصليين موجودين بالقوة في جميع فطر الناس :

- أحدهما : أن هذه الموجودات مخترعة.
- أما الثاني : فهو أن كل مخترع فله مخترع^(٤).

(١) سورة آل عمران / ١٩٠، ١٩١.

(٢) سورة الفرقان / ٦١.

(٣) المصدر السابق / ص ١٥٠، راجع / مناهج الأدلة / ص ٢٨ / تحقيق د. محمود قاسم، وأيضاً د. عبد المعطي بيومي / الفلسفة الإسلامية من المشرق إلى المغرب / ص ٣٥٠.

(٤) المصدر السابق / ص ١٥١.

قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ قِيَامٌ حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾^(١). وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ قَاسْتُمْغُوا لَهُ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْنَاهُمُ الذُّبَابَ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾^(٢)، وقوله تعالى : ﴿ قَلِيلٌ نَظَرَ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾^(٣).

ويقول ابن رشد عن هذين الدليلين وكونهما يصلحان للعامة والعلماء : "ان هذين الدليلين يصلحان للعامة والعلماء ولا يفترق العلماء إلا بزيادة علم وتفصيل في المعرفة، فإن الذي يعرفه العلماء من تفاصيل منافع أعضاء الإنسان والحيوان آلاف المنافع فيزدادون مع كل تفصيل يقيناً وإيماناً، ولكن العامة يكفيهم أن كل مخترع ومصنوع لله صانع ففيلسوف قرطبة لم نر أنه صرح بمخالفة عقيدة إسلامية، ولم ينكر أمراً من الدين بل لم يترك أمراً من الدين إلا ناصره وأقام عليه البراهين والحجج حتى تثبت عقائد الدين بالبرهان كما تثبت بالوحي، فهو :

- أقام الدليل على وجود الله من القرآن الكريم ونصر هذه الأدلة على أدلة المتكلمين.

(١) سورة الأعراف / ١٨٥.

(٢) سورة الحج / ٧٣.

(٣) سورة الطارق / ٥، ٦.

- صياغته الجديدة لمذهب السلف في العلاقة بين الذات والصفات.

- أنه قدم البراهين على اعلاء الوحي على العقل، وجعل الوحي هو المرجع والميزان الذي تقاس به نتائج العقل^(١).

فيقول ابن رشد : "الفلسفة تفحص عن كل ما جاء في الشرع فإن أدرمته استوى الإدراك، وكان ذلك أتم في المعرفة وإن لم تدركه أعلمت بقصور العقل الإنساني عنه وأن يدركه الشرع فقط"^(٢).

فإذا لوحظ مجهود الفريقين تبين أن كلا منهما يتكامل مع الآخر عند الاجتماع، وأن كلا منهما يملأ الساحة الفكرية، ويسد السهام في وجوه أعداء الإسلام عندما يراد النظر إلى ذات الطرائق من خلال جهات بعينها، وهو ما أقصده بأن الدفاع عن العقيدة الإلهية كان من القواسم المشتركة بين الفلاسفة المسلمين عموماً وبين أهل المشرق والمغرب على وجه خاص.

(١) د. عبد المعطى محمد بيومي / الفلسفة الإسلامية من المشرق إلى المغرب / ص ٣٨٨، ٣٨٩.

(٢) راجع / تهافت التهافت / لابن رشد / ص ٧٥٨.

ثالثاً : بيان ما في النصوص المنزلة من أوجه الإعجاز :

أجل : حرص كل مفكر مسلم على إثبات أن النصوص الإسلامية تحمل الإعجاز من أوجهه المختلفة، فالحاجة حرصوا على بيان أوجه الإعجاز القرآني من هذا الجانب.

وكذلك قاسمهم الصرفيون الشرط نفسه، ولهم في ذلك مؤلفات عديدة كل شواهدا تقوم على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف^(١)، كذلك فعل البلاغيون الذين دونوا مؤلفات عديدة وقاسمهم نفس الشوط علماء التفسير، وإن كانت لكل منهما الوجهة التي تخصه، كالإمام السكاكي، والجرجاني، والبيضاوي، وغيرهم، وحاشية النبهاني، وإعجاز القرآن للرماني، والخطابي، والباقلاني، والرافعي، وغيرهم ممن قاموا بهذا الدور^(٢).

(١) ومن يطالع شذور الذهب مثلاً، أو قطر الندى وبل الصدى للعلامة ابن هشام أو شرح بن عقيل على ألفية ابن مالك، أو الشيخ يحيى العمريطي على هذه المنظومة يجد ذلك واضحاً جداً، ولمزيد من التفاصيل / راجع / مهمات المتون / مطبعة الحلبي / حيث قد جمع هذا الكتاب ما يقرب من مائة وأربعة وستين متناً، بين الكلامية، والصوفية، والنحوية، والحديثية، وغيرها.

(٢) والمؤلفات في هذا الشأن عديدة، ويمكن مراجعة / مناهل العرفان في علوم القرآن / الشيخ الزرقاني، فقد تناول هذا الجانب في شيء من التفصيل، ومن هذه المصادر : إعراب القرآن للإمام العكبري، وإعراب القرآن للإمام الزجاج، وإعراب القرآن للإمام أبي جعفر النحاس، ومعتزك الأقران في إعجاز القرآن / للإمام السيوطي، والإعجاز في نظم القرآن، وكذلك الإيقان في علوم القرآن، والبرهان في علوم القرآن، بجانب الجنى الداني في حروف المعاني، وأحكام القرآن للعلامة الكيا الهراس وأحكام القرآن للإمام الجصاص، وكثير غير الذي ذكرت.

أما فلاسفة الإسلام، فقد كان لهم دور آخر لكنه يتكامل مع سابقه تكاملاً يفضي إلى نتائج إيجابية، كالحال مع فلاسفة المشرق الذين بذلوا جهوداً كبيرة حول بيان إعجاز القرآن.

وقد كان الفلاسفة المسلمون في المشرق الإسلامي يحرصون على بيان ما في النصوص المنزلة من أوجه الإعجاز خلال تأملاتهم المتواصلة، في آيات الله الكونية، وبيان أن هذه الآيات الكونية تحمل الأدلة المتعددة على إثبات وجود الله تعالى، ووحدانيته وعلمه وإرادته، وقدرته وسائر صفاته، مستدلين على ذلك بآيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَعْمَلُونَ أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا يَكْمُلُونَ﴾^(١).

فهذه الآية الكريمة تنطق ببرهان من البراهين الكثيرة التي ساقها الحق تبارك وتعالى تعبير عن دلائل قدرته ووحدانيته، أي أمن أبداع الكائنات فخلق تلك السموات في ارتفاعها وصفاتها، وجعل فيها الكواكب المنيرة، وخلق الأرض وما فيها من الجبال والسهول والأنهار والبحار خيراً أما يشركون؟ وأنزل لكم بقدرته المطر من السحاب، فأخرج به الحدائق والبساتين ذات الجمال والخضرة والنضرة والمنظر الحسن البهيج، ما كان للبشر ولا يتهيأ لهم، وليس بمقدورهم ومستطاعهم أن ينبتوا شجرها، فضلاً عن ثمرها، فهل معه – سبحانه وتعالى – معبود سواه حتى تسووا بينهما وهو المتفرد بالخلق والتكوين؟ بل هم قوم يشركون بالله فيجعلون له عدلاً ومثيلاً، ويسوون بين الخالق الرازق والوثن^(٢).

(١) سورة النمل / الآيات ٦٠، ٦١.

(٢) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج ١٣ / ص ٢١٩.

ثم يسوق المولى عز وجل برهان آخر على قدرته ووحدانيته، فقد جعل الأرض مستقراً للإنسان والحيوان، بحيث يمكنكم الإقامة بها والاستقرار عليها، وجعل في شعابها وأوديتها الأنهار العذبة الطيبة تسير خلالها شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وجعل جبلاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لنلا تميد وتضطرب بكم، وجعل بين المياه العذبة والمالحة فاصلاً ومانعاً يمنعها من الاختلاط، لنلا يفسد ماء البحار المياه العذبة، أمع الله معبود سواه؟ بل أكثر المشركين لا يعلمون الحق فيشركون مع الله غيره^(١).

ومن الآيات الدالة على قدرة الله تعالى المنبئة في الكون قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾^(٢).

فهو سبحانه وتعالى يريكم أيها الناس البرق الخاطف من خلال السحاب خوفاً وطمعاً. قال ابن عباس: خوفاً من الصواعق، وطمعاً في الغيث، فإن البرق غالباً ما يعقبه صواعق مدمرة، وقد يكون وراءه المطر المدرار الذي به حياة البلاد والعياد، ويقدرته تعالى يخلق السحب الكثيفة المحملة بالماء الكثير، ويسبح الرعد له تسبيحاً مقترناً بحمده والثناء عليه، وتسبح له الملائكة خوفاً من عذابه، وتسبح الرعد حقيقة دل عليها القرآن الكريم فنؤمن بها وإن لم نفهم تلك الأصوات، فهو تعالى لا يخبر إلا بما هو حق كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَكِيمًا غَفُورًا﴾^(٣).

(١) الإمام الزمخشري / الكشاف / ج٣ / ص ٢٩٥.

(٢) سورة الرعد / الآيات ١٢، ١٣.

(٣) العلامة أبو السعود / ج٣ / ص ١٠٢، والآية من سورة الإسراء / ٤٤.

وكذلك الآيات التي تتحدث عن الكائنات العلوية، كالسموات وكونها سيعا وما في هذه السموات من نجوم تظهر للناظرين، وتضيء الطرق للمسافرين. قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(١). بجانب ما في هذه الكائنات العلوية من حركة مستمرة، وانطلاق لا يتوقف، يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَتَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٢).

وأيضاً قوله تعالى: ﴿ثَوَلِجَ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَثَوَلِجَ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٣). وأيضاً قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ

(١) سورة النحل / ١٦، ١٧. والمعنى: أى وعلامات يستدلون بها على الطرق كالجبال والأنهار، وبالنجوم يهتدون ليلاً في البرارى والبحار، قال ابن عباس: العلامات، معالم الطرق بالنهار، وبالنجم هم يهتدون بالليل، والاستفهام إنكارى: أى أتسوون بين الخالق لتلك الأشياء العظيمة والنعمة الجليلة، وبين من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، فضلا عن غيره؟ أتشركون هذا الصنم الحقير مع الخالق الجليل؟ وهو تكييت للكفرة وإبطال لعبادتهم الأصنام، أفلا تتذكرون فتعرفون خطأ ما أنتم فيه من عبادة غير الله؟ وذلك توبيخ آخر من الحق سبحانه وتعالى لمن سوى بينه وبين خلقه تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. راجع البحر المحيط / ج٥ / ص ٤٨٣.

(٢) سورة يس / الآيات: ٣٨، ٣٩، ٤٠، وسبق التعليق عليها من الناحية التفسيرية ص ١٧٩

(٣) سورة آل عمران / ٢٧ فالحق سبحانه يخرج الزرع من الحب، والحب من الزرع، والنخلة من النواة، والنواة من النخلة، والبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وقال العلامة الطبري: "وأولى التأويلات بالصواب تأويل من قال: يخرج الإنسان الحي والأنعام والبهائم من النطف الميئة، ويخرج النطفة الميئة من الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء" راجع العلامة الطبري / تفسير الطبري / ج٥ / ص ٣٠٩، وكذلك: في ظلال القرآن الكريم للشيخ / سيد قطب / ج٣ / ص ١٧٠.

يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ^(١).

والمعنى : أنه سبحانه وتعالى يغشى الليل على النهار، ويغشى
النهار على الليل وكأنه يلف عليه لف اللباس على الملابس.

قال العلامة القرطبي : وتكوير الليل على النهار، وتغشيته إياه
حتى يذهب ضوؤه ويغشى النهار على الليل فيذهب ظلمته وهو معنى
قوله تعالى : يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا، وسخر الشمس والقمر أى
نزلهما لمصالح العباد، كل منهما يسير إلى مدة معلومة عند الله تعالى، ثم
ينقضى يوم القيامة حين تكور الشمس وتتكدس النجوم. فهو جل وعلا
كامل القدرة لا يغلبه شيء عظيم الرحمة والمغفرة والإحسان فتنبهوا يا
عبادى فإننى أنا الغالب على أمرى، الستار لذنوب خلقى فأخلصوا
عبادتكم ولا تشركوا بى أحدا^(٢).

كما أن الكائنات العلوية بما فيها من شمس قد جاءت معها أيضا
أقمار، وكواكب وبروج وحركات سائرة على سبيل التواصل الدائم، قال
تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ
لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٣).

(١) سورة الزمر / ٥.

(٢) الإمام القرطبي / الجامع لأحكام القرآن / ج٥ / ٢٣٥.

(٣) سورة يونس / ٥، والآية للتنبيه على دلائل القدرة والوحدانية، فهو تعالى بقدرته
جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهاج، والقمر نورا أى وجعل
القمر منير بالليل وهذا من كمال رحمته بالعباد، ولما كانت الشمس أعظم جرما
خصت بالضياء، لأنه هو الذي له سطوع ولمعان فهو سبحانه وتعالى أضاء
الشمس وأنار القمر، وقدر سيره في منازل وهى البروج لتعلموا أيها ==

كما تحدث النقل المنزل عن ما بين الكائنات العلوية، وقد فطن إلى ذلك مفكروا الإسلام الذين يعنون بالجانب العقلي وتوظيفه على النواحي الممكنة، ومن ثم أمكنهم التعرف على الظواهر الجوية من حرارة ورطوبة وغير ذلك مما يتعلق بالرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، بجانب الرعود والبروق وغيرها مما يعرف باسم الظواهر الجوية.

وكان هذا الإعجاز المحمول في النصوص المنزل هو الذي يقود هؤلاء المفكرين إلى متابعتهم والسير في طريق التعرف عليه، بجانب المحاولات المستمرة لاستمداد الطاقة الذهنية من توجيهاته الإلهية، وكان لكل من الكندي والفارابي وابن سينا العديد من المجهودات الفكرية المستقلة في هذا الجانب، مما يؤكد استقلال المفكرين المسلمين عن غيرهم، وقدرتهم على اقتناص شوارد المسائل ووقوفهم عليها في دقة شديدة، وعناية ما بعدها عناية.

يدل على ذلك: ما قام به الشيخ الرئيس "ابن سينا"، وحمله للقاريء كتابه: "الشفاء" وكذلك كتابه: "الإشارات والتنبيهات"، فقد جاء كل منهما حاملاً خصائص يعينها تتوهم كلها على خدمة النقل المنزل، حيث كان هؤلاء المفكرون البارعون ينظرون إلى تراث الآخرين نظرات مختلفة، حتى لو كان هذا التراث متعلقاً بالجوانب الفيزيائية.

== الناس حساب الأوقات فيالشمس تعرف الأيام، ويسير القمر تعرف الشهور والأعوام، ما خلق الله ذلك عبثاً بل لحكمة عظيمة وفائدة جليلة سبحانه وتعالى يبين الآيات الكونية ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله، ويتدبرون حكمته، فيستدلون بذلك على شئونه مبدعها جل وعلا. راجع / العلامة أبو السعود ج/ ٢ / ص ٣١٠، والطبري / ١١ / ٨٦.

يدل على ذلك ما قيل بأن كبار مفكرى المسلمين، كانت لهم من تراث الإغريق مواقف :

الأول : تخطئة السابقين في صراحة عنيفة، وبخاصة إذا تعلق ذلك بقضية علمية وردت إليها في النصوص الشرعية^(١).

الثاني : التنبيه على ما في أخطائهم في صورة رقيقة من غير عنف شديد مع بيان أن هذا الرأي قد يقبل على نحو من الانحاء، أو يرد على ناحية من النواحي لأن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة، وأن ما ذكره السابقون في هذا المجال إنما هو من قبيل ما وقع لهم وثبت عندهم^(٢).

الثالث : بيان أن الأمر المعروف لم تكن لهم به خبرة سابقة، وبناءً عليه فلم يكن من القبول أن يستمع باحث، أو ينصت دارس إلى ما لا علم به^(٣).

وبناءً على ما سبق اتضح أن مفكرى الإسلام الأوائل، وبخاصة فلاسفة المشرق قد حاولوا ربط النصوص الدينية بالواقع العملي من خلال ما يعرف باسم : علاقة النقل المنزل لأوجه الحياة المختلفة، وكان البيرونى من أكثر الذين دعوا إلى هذا وكان يرى ضرورة مراجعة الوقائع العملية بحيث تكون متوافقة مع نتائج النصوص الدينية^(٤).

(١) دكتور / محمد كامل حسين / مجمل تاريخ الطب العربى / المبادئ العامة للطب العربى / ص ١١، ١٦ / طبعة / جامعة الدول العربيه / المنظمة العربيه للتربية والثقافة والعلوم.

(٢) دكتور / محمد داود التتير / في تاريخ الطب العربى / ص ١٣٩ / طبعة أولى ١٩٧١م.

(٣) دكتور أبو شادى الرويى / الموجز في الطب العربى / ص ٢٧ / طبعة أولى ١٩٧٣م.

(٤) دكتور / سمير أبو زيد / العالم الإسلامى والثقافة الأصلية / ص ٣٠ / ط أولى ١٩٦٢ / دار رضوان.

فإذا أعدنا النظر إلى مفكرى المغرب من فلاسفة المسلمين، وجدنا ابن طفيل ومن قبله ابن باجة ومن بعدهما ابن رشد، قد حاولوا ربط النصوص الدينية بالحياة العملية من خلال مفهوم ثابت في النفوس، وهو أن الله تعالى لم يجعل النصوص لمجرد التلاوة، وإنما جعلها للتأمل والتفكير بجانب أنها شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين، يدل على ذلك ما قام به أيضاً ابن البيطار^(١)، والذي استطاع توظيف معنوماته العلمية المستقاة من النصوص الدينية، وتوظيف هذه المعلومات لتكون في خدمة النقل المنزل، ومن ثم يقع الاشتراك بينه وبين شيوخ المشرق من الفلاسفة والمفكرين وهو ما يؤكد أن أهل المشرق والمغرب الإسلامى كانت تتقاسمهما بعض المواقف، وأنهم كانوا إلى خدمة النقل المنزل يسعون، وأنهم كانوا أحرص ما يكون على بلوغ ذلك^(٢).

(١) هو أبو محمد عبد الله بن أحمد ضياء الدين الأندلسى المالقى، العشاب، المعروف بابن البيطار، امام النهايتين وعلماء الأعشاب، ولد في "ملقا" بأسبانيا في أواخر القرن السادس الهجرى، من أسرة ابن البيطار، وكان من شيوخه في علم النبات: أبو العباس أنباتى، ولما بلغ ابن البيطار العشرين من عمره جاب شمال إفريقيا، ومراكش والجزائر وتونس لدراسة النباتات، وعندما وصل إلى مصر كان على عرشها الملك "الكامل الأيوبي" فالتحق بخدمته حيث عين رئيساً على سائر العشابين، ولما توفي الملك الكامل استبقاه في خدمته ابنه الملك الصالح "تجمل الدين" ونقل إقامته معه إلى دمشق، وكان ابن البيطار من مفكرى المسلمين الأوائل الذين حاولوا بيان فوائد القرآن الكريم والحديث الشريف، وربط هذه الفوائد بالجوانب العملية، ومن أهم كتبه / الجامع لمفردات الأدوية والأغذية. راجع العلامة ابن أصيبعة / طبقات الأنبياء في طبقات الأطباء / ج ١ / ص ١٧٥ / طبعة أولى ١٣١٨هـ.

(٢) دكتور / محمد رشدى عبد العظيم النقى / الدواء والعقاقير وموقف مفكرى الإسلام منهما / ص ١٧٣ طبعة أولى / دار الجبل / بيروت ١٩٧٢م.

لم يكن ابن البيطار هو وحده الذي شغل هذا الجانب لدى مفكرى المسلمين في المغرب، وإنما كان هناك غيره، ومن أشهرهم "ابن زهر" المتوفى ٥٥٧هـ-١٢٦٢م حيث كان نابغة في العلوم العقلية، وقد استطاع الاستفادة من هذه العلوم وجعلها خادمة للنصوص الشرعية، ومن أشهر كتبه : التيسير في مداواة والتدبير، وفيه استخلاص دقيق للكثير من الأدوية، والكثير من الأمراض من خلال ما تؤدي إليه النصوص الشرعية^(١).

في نفس الوقت فقد اشتهر الكثيرون من أهل الإسلام في المغرب الإسلامى بعنايتهم الفائقة في الجوانب المختلفة دواء وعلاج، يبين ذلك ما ذهب إليه الدكتور / محمد نور عبد البديع الشرفاوى حيث يقول : لقد كان السابقون على أهل الإسلام في المغرب يستعملون النار كوسيلة للعلاج، فلما جاء الإسلام نبه إلى الطب الوقائي والطب الجراحي، والطب العلاجي، فكان المسلمون بمثابة القوة التي أطل الغرب منها على فكر المسلمين المقتبس من النصوص الشرعية^(٢).

ويذهب الدكتور : عبد العظيم حفى صابر^(٣) إلى أن المسلمين الأوائل في المغرب الإسلامى استطاعوا توظيف عقولهم لخدمة النقل المنزل كصورة من صور المجهود العقلى لبيان وجه من أوجه اعجاز

(١) دكتور / محمد حسن عبد اللطيف زايد / العرب والتراث الإسلامى / ص ١١٣ طبعة أولى ١٩٤٣. وراجع / الموسوعة العربية الميسرة / طبعة القاهرة ١٩٦٥م. إشراف / محمد شفيق غربال / دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.

(٢) د / محمد نور عبد البديع الشرفاوى / الطب عند المسلمين / ص ٨٣ / طبعة أولى ١٩٧٥.

(٣) هو أحد أساتذة العقاقير، وفي نفس الوقت شغل منصب عميد كلية الصيدلة جامعة القاهرة فترة طويلة.

القرآن الكريم، حتى قدموا صوراً عديدة، لأن السابقين كانوا يعتقدون أن المرض ما هو إلا عقاب إلهي ترسله الآلهة الغضبية، وأن الشفاء منه يمثل تنقية من الذنوب والآثام، فلما جاء أهل الإسلام فصلوا هذه المفاهيم الخاطئة، وأرجعوا الأمور إلى طبيعتها مع بيان أنها جميعاً لا تخرج عن كونها مرادة عند الله تعالى^(١).

في نفس الوقت فقد كانت جهود كل من "ابن باجة" و "ابن رشد" تعلوا على الدوام، حتى أنهم كانوا ينظرون إلى النصوص القرآنية، ثم يعيدون النظر فيها، ثم يعملون على تطبيق هذه وتلك، وفي النهاية ينتهي بهم الأمر إلى نتائج عالية التركيز.

من ذلك قولهم: إن الكيفيات التي تتحكم في الأجسام أربعة هي: الحرارة، البرودة، الجفاف، الرطوبة، لأنها تقابل الصفات أو العناصر الأربعة في جسم الإنسان، فالدم كالهواء: رطب حار، والبلغم له صفات الماء: رطب بارد، والصفراء لها خواص النار: حار جافة، والسوداء: كالتراب وهي الأرض باردة جافة أيضاً^(٢).

فإذا نظر الدارس إلى مجهود هؤلاء المغاربة وجده صورة طبق الأصل من مجهود المشارقة مما يؤكد أن الطائفتين كانت كل منهما تسعى نحو هدف محدد وغاية وضعت في الأذهان أصولها، وهي بيان أن هذه النصوص الدينية بما تحملها من أوجه إعجاز تؤكد أن هناك أوجه اتفاق بين المفكرين المسلمين على النواحي المختلفة.

(١) دكتور / عبد العظيم حفيى صابر / الطب والعقاقير عند المسلمين الأوائل ص ١٧٨ طبعة أولى ١٩٦٧م، وراجع أيضاً دكتور / شفيق الأيوبي / التخدير الموضوعي عند المسلمين الأوائل، وأيضاً ابن القفطى / أخبار الحكماء، ولاين أبى أصيبعة / عيون الأنباء.

(٢) دكتور / محمد كامل حسين / في تاريخ الطب عند العرب / ص ٣٤٠ / المنظمة العربية للثقافة والعلوم / وزارة الثقافة.

﴿ب﴾ أوجه الاختلاف :

لم يكن أهل الإسلام صورة منسوخة من بعضها، وإلا كان معناه أنهم قد ألغوا عقولهم وصاروا يقلدوا لاحقهم سابقهم من غير قدرة على التفكير فيما يقلد ولم يقلد^(١). لأن الرسول ﷺ نهى عن ذلك الفعل ونهى إلى حرمة، وأن القائمين به كالعميان الذين فقدوا عقولهم حتى وإن لم يفقدوا عيونهم فقال ﷺ : "لا يكون أحدكم أعمى يقول إن أحسن الناس فسوف أحسن وإن أساءوا فسوف أسوء، ولكن وطئوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا ألا تسينوا"^(٢).

كما أن أهل الإسلام لا يرتضى أحدهم أن يكون عالة على أخيه، وإنما لابد له أن يشترك في الحياة يساهم في مجرياتها من خلال شكل بعينه، وبناءً عليه وجدنا الصور الذهنية المتباينة بين مفكرى الإسلام على وجه الخصوص، بدليل أن جماعة الفقهاء ليسوا هم جماعة المتكلمين، كما أن المتكلمين ليسوا هم الفقهاء، ولا النحاة ولا غيرهم.

ومن هنا يتبين أن كلا من أهل الإسلام كان ينحو إلى جهة ما من غير أن يقصد التفرق، وإنما كان يلجأ لبيان دوره في خدمة الدين الإسلامى على ناحية من النواحي، ولكن ظهر بين أهل الإسلام في المشرق والمغرب بعض أوجه الاختلاف، ألمح إليها فيما يلي :

(١) وهذا مما يؤكد أن المسلمين لم يكونوا أبداً مقلدين، لأن التقليد في هذا مضموم، كما أن في التقليد تعطيلاً للقدرة العقلية، وهذا ما يرفضه الإسلام والمسلمون معاً.

(٢) الحديث رواه الترمذى في سننه / ج٤ / ص ٣٦٤.

الأول : اللغة المعبرة :

لما كان مفكروا الإسلام الأوائل في المشرق الإسلامي أغلبهم من العجم المستعربين فقد كانت اللغة التي يكتبون بها هي لغة المعاجم العربية، إذ كانوا ينحتون لغتهم من بطون هذه المصادر، كالحال مع الفارابي وابن سينا، إذ لم يكن أحدهما عربيا، وإنما كان كل منهما غير عربي^(١).

يدل على ذلك مؤلفات الفارابي التي حملت آرائه الفكرية ككتابه "المدينة الفاضلة" و"رأى في الجمع بين آراء الحكمين" وكذلك "الثمرة المرضية" وغيرها من كتب ذلك الفيلسوف المسلم الذي ملأ أصقاع الأرض وبقاعها علما وفكرا، واستطاع هضم الأفكار السابقة عليه، ثم تتحية ما يراه مخالفا لدينه، ووضع بديل عن هذه الأفكار.

وذلك كالحال مع مؤلفاته ومنها كتاب السياسة المدنية الملقب بمبادئ الوجود^(٢)، وكذلك كتابه : "فصول منزوعة" حيث نبه فيه إلى قواعد عامة تتعلق بعلم الأخلاق ومستوياته، والقواعد الضابطة له مما يكشف عن عقلية منظمة، وثقافة بينة، حيث يقول : "إن هذه الفصول المنتزعة تشتمل على أصول كثيرة من أقاويل القدماء فيما ينبغي أن تدبر به المدن، وتعمر به وتصلح به سيرة أهلها، ويسددوا به نحو السعادة"^(٣).

(١) حيث كان ابن سينا فارسي الأصل، بينما كان الفارابي مختلطا بين الأتراك والفرس.

(٢) حققه وقدم له وعلق عليه دكتور / فوزى منرى النجار / جامعة ولاية متشجان / دار المشرق / بيروت / طبعة ٢ / لبنان ١٩٩٣م، وكذلك كتابه / الجمع بين رأيي الحكمين حيث قدم له وعلق عليه دكتور / البير نصرى نادر / الطبعة الرابعة / دار المشرق بيروت ١٩٩٧م.

(٣) أبو نصر الفارابي / فصول منتزعة / ص ٣٤ / تحقيق دكتور / فوزى منرى النجار / طبعة ٢ / دار المشرق بيروت ١٩٩٣م.

وهذه العبارات تدل على أن اللغة التي كان يستعملها إنما هي لغة مكتسبة حديثاً، ومن يطون المصادر أمكنه الوقوف عليها، وليست لغة مكتسبة من مفردات البيئة التي عاش فيها، مما يؤكد ما ذهب إليه، وهو أن الألفاظ المنظومة، واللغة المكتوب بها لدى المشاركة كانت لغة معجمية وليست اللغة مكتسبة من البيئة التي نشأ فيها أصحابها كالحال مع المغاربة.

وهناك من الأدلة الكثير فمن ذلك إطلاقه اسم العقل الفعّال على ما تصير به المعقولات التي هي بالقوة معقولات بالفعل، فيقول : العقل الفعّال لما كان هو السبب في أن تصير به المعقولات التي هي بالقوة معقولات بالفعل، وأن يصير ما هو عقل بالقوة عقلاً بالفعل، وكان ما سبيله أن يصير عقلاً بالفعل هو القوة الناطقة^(١).

ولو حاولت متابعة هذه الجوانب لدى الفارابي ربما خرج البحث عن غايته، ولكني سأعرض صورة أخرى في عجلة سريعة حين يتحدث عن علاقة العلم المدني بكل من علم الفقه وعلم الكلام وكذلك حين يتحدث عن طبيعة هذه العلاقة فيقول : العلم المدني يفحص عن أصناف الأفعال والسير الإرادية، وعن الملكات والأخلاق والسجايا والشيم التي تكون عنها تلك الأفعال والسير، وعن الغايات التي لأجلها تفعل^(٢).

(١) أبو نصر الفارابي / كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة / ص ١١٢ / تقديم / دكتور / البير نصر نادر / الطبعة السابعة / دار المشرق ١٩٩٦م.

(٢) أبو نصر الفارابي / كتاب الملة / ص ٦٩ / تحقيق / محسن مهدي / أستاذ الدراسات العربية الإسلامية بجامعة شيكاغو / دار المشرق بيروت / طبعة ٢ / ١٩٩١م.

ونفس الحال مع ابن سينا بحيث أن من نظر إلى مفردات كل منهما اللغوية أدرك أنهما كانا ينحطان مفرداتهما اللفظية من خلال بطون المعاجم والمصادر اللغوية.

وكذلك الحال مع مفكرى المشرق على التوالي، وإن رمت دليلاً يجمع بين هذه وتلك فيمكن الوقوف على قصة حى بن يقطين لكل من ابن طفيل، وابن سينا، والسهرودى، فهي دليل كاشف على ما ذهب إليه.

أما عن فلاسفة المغرب، فقد كانت لغتهم تحمل الخصوصية، بجانب طريقة الرواء اللغوى للمفردات، ومن ثم كانت لغتهم مكتسبة بدليل أنهم حاولوا تقديم جهود لغوية مع أنهم في الأصل من جملة الفلاسفة والمفكرين، دليل ذلك ما ذهب إليه ابن باجة من أن الروح يقال في لسان العرب على ما يقال عليه النفس ويستعمله المنطوقون بالاشتراك، فتارة يريدون به الحار الغريزى الذي هو الآلة النفسانية الأولى، وتارة يذهبون إلى أنه القوى الجسمانية والنفسانية المدارة من خلال الجواهر المحركة للأجسام المستديرة^(١).

وبملاحظة ذات النص يتضح الفرق في اللغة، ومن ثم ذهب ابن خلدون إلى أن ابن باجة عرف في عصره بفصاحته في شعره، وكماله في الغناء والموسيقى وأن أسلوبه في كتبه الفلسفية كان دقيقاً ورائعاً^(٢).

(١) ابن باجة / رسائل ابن باجة الإلهية / ص ٤٩ / حققها وقدم لها دكتور / ماجد فخرى / طبعة دار النهار للنشر / بيروت ١٩٦٨ م.
(٢) العلامة ابن خلدون / تاريخ ابن خلدون / المقدمة / ج ١ / ص ٥١٩ / طبعة بولاق / وراجع أيضاً العلامة / المقرئ / نفخ الطيب ج ٤ / ص ٢٠٦.

في نفس الوقت فإن "ابن الإمام" أحد تلاميذ "ابن باجة" يرى أنه كان بارعاً في الإقحام والتفهيم، وأن أسلوبه كان ممتعاً، وأن عبارته كانت مشوقة، وأنه كان يستخدم المفردات اللغوية في سهولة شديدة ويسر ما بعده يسر بل أنه حينما استخدم ألفاظاً سبقه في استخدامها غيره، إنما كان يعرضها بلغتهم ثم يقربها بلغته، فينظر القارئ إلى المجهودين في وقت واحد، ومن ثم تتحقق المصالح المختلفة ولا ينفر من سماعها من درب نفسه عليها^(١).

ولا يغرين عن ذي بال أن ابن باجة كان صاحب وجهة نظر فلسفية اتسمت بالعرض الهادي الدقيق، والعبارة القريبة من الأفهام وفي نفس الوقت كانت لغته تخاطب الوجدان، كما تخاطب العقل والأذن.

وابن باجة كانت له نظرة عقلية كلها ثقة، يقول الدكتور / عبد المعطى بيومي : "إن أساس فلسفة ابن باجة باختصار هي الثقة في العقل الإنساني وذلك في تطور هام في تاريخ الفلسفة الإسلامية بعد هجوم الغزالي على العقل وعدم الثقة فيه كموصل إلى المعرفة، وبعد سيادة روح التصوف على الفكر، والثقة في العقل بمعناها إخضاع السلوك الإنساني للعقل أو إثبات الأعمال العقلية البعيدة عن الرغبات الدنيا، فهو منهج يجمع بين التفكير العقلي الواقعي والرياضة بمعناها المثالث العقل والروح والبدن"^(٢).

(١) ابن باجة الأندلسي / كتاب النفس / تحقيق دكتور / محمد حسن المعصومي / ص ١١٦ / طبعة دمشق ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.

(٢) د. عبد المعطى بيومي / الفلسفة الإسلامية من المشرق إلى المغرب / ج ٣ / ص ١٨٩، ١٩٠ / طدار الطباعة المحمدية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م.

أما أبو الوليد بن رشد، الفقيه المالكي المفكر الواعي، فقد كانت لغته أقرب إلى لغات الشعراء والأدباء والناثرين، إذ كان يستعمل الألفاظ قريبة المأخذ رغم أنه يعرض أدلة وجود الله التي نالت من غموض فلاسفة المشرق ما نالت، بدليل أنه يجمع تلك الأدلة في صور عقلية كاستخدامه دليل الخلق، ودليل الاختراع، ودليل العناية والتركيب إلى غير ذلك من الأدلة^(١).

أما في كتابه "النفس" : فقد استعمل اللغة التي تمكن منها بجانب تمسكه بالمعاني التي سبق القول بها، مع ضرورة الموائمة بين ما جاء بالنقل المنزل وما تركه المسلمون الأوائل في جانب هذه الخدمة العلمية، فيقول مثلاً : إن النفس لا يمكن أن تكون فينا كثيرة مختلفة الجواهر لأنه إن كانت فينا أنفس كثيرة، فلا بد من شيء يحفظها ويوحدها^(٢).

ومن يلاحظ طبيعة العبارات يجد أن لغة ابن رشد كانت قريبة من المدرك العقلي بعيدة عن الغموض الفكري، راجعة إلى ما في ذهن هذا المفكر من معارف سابقة أمكن توجيهها على الناحية الإسلامية.

(١) وقد عرض لهذه الأدلة بالتفصيل في كتابيه / فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة، وكذلك / الكشف عن مناهج الأدلة في قواعد عقائد أهل الملة.

(٢) أبو الوليد ابن رشد / تلخيص كتاب النفس / ص ٣٩ / تحقيق دكتور / أحمد فؤاد الأهواني / طبعة أولى ١٩٥٠م / مطبعة النهضة المصرية.

الثاني : استفاضة اللائح من السابق :

علمنا أن العقول ليست واحدة، والأفهام كذلك، وأن البناء المعرفي يتم المساهمة فيه من خلال كل القادرين عليه، بحيث يمكن القول بأن كل مفكر إنما يضع طوبى أو لبنة في البناء المعرفي.

ونظراً للتراكبات الذهنية، والخبرات العقلية، فإن السابق لابد أن يمهد الطريق للاحق، ولابد أن يستفيد اللاحق مما تركه السابق على أساس أن شجرة المعرفة وإن كان جزرها واحد إلا أن أغصانها متعددة، ثم إن ثمارها تكون من ذات أغصانها.

فإذا نظرنا إلى فلاسفة المشرق وجدناهم كانوا يوجهون النقل المنزل كفاحاً ويعملون على تفهم ما فيه والاستفادة منه كمحاولات أولى لهم^(١)، وكانت هذه الجهود الأولى التي يقومون بها تمثل مطالع بعينها إذ لم يكن هناك أحد قد سبقهم إليها، وبناءً عليه فكان جهودهم بمثابة العلامات الإرشادية على الطريق الفكري الفلسفي.

أما بالنسبة لمفكرى المغرب الإسلامي، فقد نظروا إلى ما تركه المشارقة ثم أعادوا النظر فيه أخرى فأصلحوا ما به من أخطاء وصوبوا ما به من هفوات ثم توسعوا في ذلك المجال حتى ظهرت لهم جهود مستقلة ومفاهيم لا يمكن أن ترتد إلى غيرهم^(٢).

كما أن مفكرى المغرب الإسلامي قد تأثروا كثيراً بالعناصر المختلفة التي ظهرت في البيئة الإسلامية، كالتصوف والأخلاق بجانب

(١) د / محمد حسيني موسى / المدخل لدراسة الحكمة، وأيضاً / ملامح الحكمة الإسلامية في المغرب، حيث تعرض لبيان النقطة من الأوجه المختلفة.

(٢) دكتور / محمود السيد رزق أبو غدة / الفلسفة الإسلامية في المشرق والمغرب / ج٢ / ص ١٧١ / ط ١٩٦٨م.

الفقه وعلم اللغة وهذا أثر كثيراً في أحكامهم التي أصدروها، كما تأثرت به قضاياهم التي عرضوها بحيث يمكن القول بأن عنصر استفادة اللاحق من السابق قد برز أثره في كل من مفكرى المشرق الإسلامى الذين اقتدوه، والمغرب الإسلامى الذين تمكنوا منه.

وأما كان الأمر فإن فكرة استفادة اللاحق من السابق قد ظهرت لدى مفكرى المغرب الإسلامى في صور متعددة، وأنماط مختلفة، كاستعمالهم الألفاظ التي تركها اليونان، ثم تفريغ تلك الألفاظ من محتوياتها لتحل أخرى بدلاً منها حاملة ذات المعنى مع الإضافات الجديدة.

وان رمت دليلاً على ما ذكرت، فهناك القضايا التي تناولها فلاسفة المشرق وفلاسفة المغرب في الجوانب الميتافيزيقية مثلاً، كالحال في إثبات وجود الله تعالى، وكذلك ما يتعلق بالعالم الطبيعي وعلاقة الله به، والإنسان ودوره في هذا الكون وهي القضايا الأساسية التي تمهد للأبحاث الميتافيزيقية في الجوانب الإسلامية^(١).

كما أن معالم استفادة اللاحق من السابق ظهرت بوضوح لدى مفكرى المغرب عند تناولهم لمباحثهم الفلسفية في شكل روائى أو قصصى، كالحال مع ابن سينا الذي ألف رسالته الفلسفية "حى بن يقظان" ثم قام ابن طفيل باستخدام نفس العنوان فألف رسالته الفلسفية "حى بن يقظان" أيضاً، ورغم أن القواسم المشتركة بينهما كثيرة إلا أن الفوارق الدقيقة تجيء لصالح فلاسفة المغرب، وتؤكد أنهم فعلاً استفادوا مما تركه فلاسفة المشرق الإسلامى.

(١) تختلف الفلسفة العامة في موضوعاتها عن الفلسفة الإسلامية حيث تقوم موضوعات الفلسفة العامة على ثلاث مباحث: الوجود والمعرفة، والقيم، أما مباحث الفلسفة الإسلامية فتقوم على الإلهيات، والإنسانيات، والطبيعات.

الثالث : الاختلاف البيئي :

عرفت أن فلاسفة المشرق نشأ أغلبهم في بيئة متقلبة، وكانت سمة الصحراء تغلب على الكثيرين منهم، ومن ثم فقد كانت استفادتهم من البيئة استفادة محددة جداً، ولما كان الإنسان ابن بيئته يؤثر فيها كما يتأثر بها فقد كانت ملامح البيئة على فلاسفة المشرق كبيرة، بدليل أن آثارهم الفلسفية لم تخرج عن نطاق هذه البيئة في كثير من الأحيان، كما أن بعضهم قضى حياته بين هذه البيئة^(١).

ونظراً لأن هذه البيئة لها سمات محددة، وطبائع قد يغلب عليها العنف أحياناً، فإنها تلقى بظلالها على ذات المفكرين الذين يتأثرون بالأحداث الجارية تأثيراً كبيراً، بجانب أن التقلبات السياسية التي ظهرت في المشرق الإسلامي وأدت إلى التضيق على المفكرين المسلمين كان لها هي الأخرى في هذا الجانب تأثيراً فعالاً^(٢).

وكذلك الظروف الاجتماعية والاقتصادية، وقد تمت هذه الصور على ملامحها العدوانية بعد الحملة القاسية التي قادها الإمام الغزالي في المشرق على الفلسفة الإسلامية حتى قضى عليها قضاء مبرماً، وكان ذلك من خلال تأليفه كتابه : "مقاصد الفلاسفة" الذي جمع فيه شبهات

(١) كالحال مع الفارابي، حيث كان في آخر أيامه يجلس عند مشتبعي أنهر ثم يقضى في ذلك المكان أياماً، وظل على ذلك الحال حتى وافاه أجله.

(٢) بدليل أن ابن سينا أدخل السجن ظلماً فكتب إلى والي قصيدة طويلة يقول في مطلعها :

دخولي باليقين كما تراه ... وكل الشك في أمر الخروج

راجع الأستاذ / سعيد زايد / سلسلة ذخائر العرب / ابن سينا / ص ١٣٢ طبعة دار المعارف ١٩٦٩م.

القوم، ثم جاء كتابه "تهافت الفلاسفة" ليقضى على كل بارقة أمل لبقاء الفلسفة في المشرق قوية كما كانت أو مستقلة عن العلوم الأخرى كما هو المهد بها.

أما في المغرب الإسلامي فلم تكن تلك الضغوط البيئية ضاربة بأرجائها على عقول هؤلاء المفكرين، وإنما كانت بعيدة كل البعد، بل كان تشجيع الخلفاء في هذه البلاد للنظر العقلي كبير جداً، كما أن البيئة في تلك البلاد كانت مزودة بالحدائق الغناء والمروج الخضراء، والنخيل إلى غير ذلك مما ظهر في عناوين مؤلفاتهم، ومنها : "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، و"الحلة السراء" إلى غير ذلك من عناوين الكتب والمؤلفات التي جاءت دالة على طبيعة البيئة المغربية ولم تكن أرض الفردوس الإسلامي المفقود إلا صورة من هذا الرقي البيئي، وقد صاحبه العديد من الصور الجميلة، ومن كان ذلك شأنه وقد نشأ في بيئة مثل تلك البيئة فلا بد أن ينهض بفكره، وعلومه، ومعارفه حتى تبلغ أعلى الدرجات وتحوذ كل الأمور المتعلقة بالرضا والقبول حتى درجة الإعجاب.

وبالمقارنة بين أوجه الاتفاق والاختلاف التي سلف ذكرها يتضح أن الفكر الفلسفي الإسلامي قد نال عناية كبيرة من مفكرى المسلمين في المغرب والمشرق، وأنهم كانوا أصحاب توجهات معينة تدفعهم إليها ظروف خالصة مما يجعل المرء يحكم بأن الفلسفة الإسلامية كان لها وجود مستقل في أعماق المفكرين المسلمين على كل ناحية.

الخاتمة

الخاتمة

تعتبر الخاتمة في أى عمل علمي بمثابة النتائج النهائية التي ترتبت على ذلك البحث، وما من عمل علمي إلا وتأتيه نتائجه على نفس القاعدة التي جاء منها، ولا شك أن بحث عملية تقدم الفلسفة الإسلامية في المشرق وتأخرها في المغرب على النحو الذي سلف تستنتج منه نتائج عديدة أبرزها ما يلي :

الأول : وجود ملامح وسمات تميز الفكر الإسلامي عن غيره وتجعله مستقلاً على كل ناحية، فليس الفكر الإسلامي صورة من صور التفكير الأخرى، كال يونان، أو الصين، أو البابلي، أو المصري القديم، وإنما هو فكر قائم على القرآن والسنة، وفي حدود القرآن والسنة أيضاً، انه فكر محدد المعالم والهوية.

ثانياً : ان الفكر الإسلامي يقوم على النقل المنزل، خدمة له، ودفاعاً عنه، وتوضيحاً لجوانبه بالنسبة للآخرين على أساس أن هناك علاقة متبادلة بين الفكر الإسلامي والنقل الإسلامي نفسه.

ثالثاً : ان تعريف الفلسفة الإسلامية يأتي من نواح عديدة، بعضها يتعلق بالاسم الفرعي، وبعضها يتعلق بالاسم الدارج اطلاقه عليها، وبعضها يتعلق بالنصوص الشرعية.

رابعاً : ان تعريفات الفلسفة الإسلامية تمثل صورة من صور التضج العقلي عند مفكرى المسلمين، بل ان هذه التعريفات تجعلهم في الصدارة بالنسبة لغيرهم.

خامساً : ان عوامل ظهور الفلسفة الإسلامية بالمشرق تتعدد ابتداء من القرب المكاني لمهبط الوحي، والسبق الزماني للدخول في

الإسلام مع وجود مختلفى الثقافات الذين كانت تظلمهم أرض المشرق الإسلامى.

سابعاً : إن النقل المنزل كانت له الهيمنة على نفوس أهل الإسلام، وأنه الذي قادهم إلى ذلك النوع من التفكير العلى المنظم، ومن ثم استخرجوا مباحث ميتافيزيقية خالصة بهم صحت نسبتها إليهم.

سابعاً : إن عوامل ظهور الفلسفة الإسلامية في المغرب متأخرة عنها في المشرق قامت على تأخر الفتح الإسلامى لتلك البلاد، بجانب وجود قلوب من خصوم الإسلام في بلاد الأندلس، كانوا يكيدون للإسلام، ويحرضون على المسلمين.

ثامناً : إن طبيعة تلك البلاد من الناحية السياسية والعسكرية والاقتصادية لم تكن تسمح بقبول فكر وافد عليهم، بذات السرعة، ومن ثم تأخر ظهور الفلسفة عندهم.

تاسعاً : إن التكوين الذهنى للعقلية الموجودة، بجانب تأخر هجرة المسلمين من المشرق إلى المغرب، بجانب العوامل السياسية التي لم تسمح بالاستقرار، كل ذلك أدى إلى تأخر ظهور الثمرات العقلية في بلاد المغرب عنه في المشرق.

عاشرأ : إن هناك أوجه من الاتفاق بين العوامل ونفس الفكر بين المشرق والمغرب من أهمها : التزام النقل المنزل، بجانب الدفاع عن العقيدة، وبيان ما في النصوص المنزلة من أوجه إعجاز تخصصهم ولا تلحق بغيرهم، وذلك مما يشترك فيه المفكرون المسلمون جميعاً.

حادي عشر : أن أوجه الاختلاف نجىء منها اللغة كعامل أساسى، وهنا تظهر فروق مصاحبة للألفاظ ذاتها على أساس أن

اللغة هي أثواب المعاني التي تبدوا فيها، وبناءً عليه فقد كانت اللغة عاملاً مميزاً بين فكر المشاركة والمغاربة من أهل الإسلام.

ثاني ملخص : أن اللاحق يستفيد من السابق حتماً، وحيث لم يكن لمفكرى المشرق سابق يمهّد لهم الطريق، فإن استفادتهم من الآخرين كانت ضيقة جداً، بل توشك أن تكون متعدمة، بينما هي في المغربية واضحة، لأنهم وجدوا من يمهّد الطريق لهم، ويرتب الأفكار في شكل تنظيمي محدد المعالم، وبناءً عليه تتميز اتجاهاتهم، كما تتميز النتائج التي وصلوا إليها.

ثالث ملخص : أن البيئة تمثل أحد العوامل الهامة بالنسبة لأي فكر فلسفي، وإلا فما قيمة أن يكون الإنسان ابن بيئته أو خارج تلك البيئة، ثم إن العنصر البيئي يعطي المفكر مساحة أكبر بالنسبة للتركيز الذهني، والتأمل العقلي، وهو ما جعل فلاسفة المغرب يخوضون غمار الأبحاث الفلسفية في نوع من الثقة، وكثير من الاستقرار.

رابع ملخص : كما أن العامل السياسي هو الآخر يمهّد لبناء أفكار فلسفية صحيحة، وعلى قدر من الأهمية، كما يمكن لبناء فلسفة قوية في أسسها قوية أيضاً في مفرداتها، قوية في طرائق الوقوف عليها وهو من أبرز سمات الفكر الفلسفي الإسلامي في بلاد المغرب والأندلس.

هذا ما وفّقني الله تعالى إليه، ورست عند شواطئه سفينة إبحاري المتواضعة، فإن أكن وفقت لما قصدت، فذلك الشأن من الله تعالى وفضله وما الفضل إلا من عند الله عليه توكلت وإليه أنيب.

وإن تكن قد قعدت بى الخطوات، أو ضعفت عن حملى
المفردات، فما ذلك إلا من نفسى، والعصمة لا تكون إلا لله تعالى، وإلى
من عصمه الله تعالى، وأسأل شيوخى وأهل العلم بالله أنها ضى من
عثرتى وإقالتى من كبرتى فذلك حق للمسلم عند المسلم، وأسأل الله عز
وجل التوفيق والسداد انه نعم المولى ونعم النصير ربنا عليك توكلنا
والإليك أنبنا وإليك المصير ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ شِئْنَا أَوْ آخِظْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ
عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ
لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْمِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا إِنَّتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ﴾^(١).

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) سورة البقرة / الآية ٢٨٦.

المصادر

مجلد ١ - الجزء ١

٢٩٤

المصادر

ذكرت المصادر : مبتدأ بالقرآن الكريم وعلومه، ثم السنة النبوية المطهرة الصحيحة وعلومها، وبعدهما المصادر المتعلقة بالمعاجم والسير والرسائل الجامعية وأخيراً المصادر العامة مراعيًا في ترتيبها حروف الهجاء مقدماً أسم الشهرة للمؤلف بعد تجريده من حرف "ال" ثم الوصف، ثم الاسم.

أولاً: القرآن الكريم وعلومه :

- القرآن الكريم
- التسهيل لعلوم التنزيل ج٤.
- الإتيان في علوم القرآن / للسيوطي
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل / الإمام الشيخ القاضي ناصر الدين الشيرازي البيضاوي المتوفى سنة ٧٩١هـ / طبعه دار المعارف بمصر ١٣٣٦ وطبعة دار الفكر / بيروت ١٩٩٦م.
- البحر المحيط / العلامة / أنير الدين أبو عبد الملك محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي / دار إحياء التراث العربي / بيروت ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.
- تفسير القرآن الحكيم / المسمى بتفسير المنار / الشيخ / محمد عبده والشيخ / محمد رشيد رضا / دار المعرفة / بيروت / دار المنار بالقاهرة ١٣٥٠ هـ / الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م.
- تفسير القرآن العظيم / الإمام الجليل / الحافظ / عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي القرشي ٧٧٤هـ / مكتبة الإرشاد ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م، وطبعة دار الغد العربي ١٩٨٩م، وطبعة دار الفكر / بيروت ١٤٠١هـ

- جامع البيان في تفسير القرآن المشهور بتفسير الطبري / العلامة أبو جعفر محمد بن جرير الطبري / ٢٢٤ / ٣١٠ هـ دار الجيل / الطبعة الثالثة، وطبعة مصطفى البابي الحلبي / ١٩٥٤م / وطبعة دار الغد العربي ١٩٩٥م وطبعة دار الفكر / بيروت ١٤٠٥ هـ.
- الجامع لأحكام القرآن المشهور بتفسير القرطبي / الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الأنصاري التبرطي (ت ٦٧١ هـ) دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧م وطبعة دار الغد العربي ١٩٨٨م، وطبعة دار الشعب بالقاهرة الثانية ١٣٧٢ هـ تحقيق / أحمد عبد العليم البردوي.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني / الإمام أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي / ١٢٧٠ هـ / دار إحياء التراث العربي / بيروت / الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥م.
- صفوة التفاسير / الشيخ محمد علي الصابوني / مكتبة الغزالي / بيروت.
- في ظلال القرآن الكريم / الأستاذ الشيخ / سيد قطب / الطبعة السادسة / دار الشروق ١٩٧٨م.
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل / الإمام أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨) تحقيق / مصطفى حسن / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ١٩٦٦م، وطبعة دار المعرفة / بيروت / لبنان.
- مختصر تفسير بن كثير / الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي / اختصار وتحقيق الأستاذ / محمد علي انصابوني / دار التراث العربي / القاهرة / ١٤٠٧ هـ- ١٩٧٨م، وطبعة دار الصابوني للطباعة والنشر ١٩٨٨م.

- مفاتيح الغيب / التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي / العلامة الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري الرازي المعروف بفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ) المطبعة البهية المصرية الطبعة الأولى ١٩٩١م، وطبعة دار إحياء التراث العربي، وطبعة دار الغد العربي ١٩٩٣.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم / الأستاذ / محمد فؤاد عبد الباقي / مكتبة دار الحديث الطبعة الأولى / طبعة الشعب ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- المفردات في غريب القرآن / العلامة أبو القاسم الحسين محمد الراغب الأصفهاني / دار المعرفة / بيروت / لبنان / مطبعة دار التراث.
- التفسير القرآني للقرآن الكريم / الأستاذ / عبد الكريم الخطيب / طبعة دار الفكر العربي.
- حاشية العلامة الصاوي على الجلالين / العلامة الشيخ أحمد الصاوي / طبعة دار الفكر.
- لباب التأويل في معاني التنزيل / العلامة علاء الدين علي بن محمد المعروف بالخازن / دار الفكر / بيروت.
- تفسير النسفي / العلامة عبد الرحمن النسفي الملقب بابي البركات - سورة الأعراف.
- تفسير ابن عاشور / التحرير والتنوير / ط دار سحنون للنشر والتوزيع / تونس.

❖ ثانياً : السنة النبوية المطهرة وعلومها :

- الترغيب والترهيب في الحديث الشريف / العلامة / عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى / دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٧ هـ / ط أولى.
- جامع البيان فيما عليه الشيوخ / العلامة محمد زكى الدين هاشم / طبعة دار الصفوة ١٤١٣ هـ-١٩٩٢ م.
- سنن أبي داود / الإمام الحافظ / أبو داود سليمان السجستاني / دار انكبت العلمية / بيروت لبنان.
- سنن ابن ماجه / الحافظ أبي عبد الله بن يزيد الغزويني بن ماجه / طبعة دار إحياء التراث العربى / تحقيق الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي / ١٣٩٥ هـ-١٩٧٥ م.
- سنن الترمذى / الإمام / محمد الحافظ أبو عيسى / مطبعة الحلبي.
- سنن النسائي / الإمام أحمد بن على بن شعيب / دار الحديث ١٩٨٧.
- صحيح الإمام البخارى / الإمام محمد بن إسماعيل البخارى / طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
- صحيح مسلم / الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابورى / طبعة الحلبي.
- كشف الخفا ومزيل الإلباس فيما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس / الشيخ إسماعيل العجلونى / مكتبة الغزالي / دمشق.
- المعجم الكبير / الإمام أبو القاسم الطبراني / مكتبة العلوم والحكم / الموصل / ط ٢ / ١٤٠٤ / تحقيق / حمدى عبد المجيد السلفى.

ثالثاً : المعاجم والتراجم وكتب الرجال :

- الأعلام للزركلي / خير الدين الزركلي / الطبعة الثالثة ١٣٦٧هـ.
- البداية والنهاية / الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي / طبعة دار الغد العربي.
- التعريفات / السيد الشريف علي بن محمد بن علي الجرجاني ٧٤٠-٨١٣هـ / مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٧هـ-١٩٣٨م.
- دائرة معارف القرن العشرين / محمد فريد وجدي.
- المعجم الوجيز / طبعة مجمع اللغة العربية بالقاهرة / ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
- ابن اصبعة / عيون الأنباء في طبقات الأطباء / طبعة أولى ١٣١٨هـ.
- قاموس الكتاب المقدس.
- ابن القفطي / أخبار الحكماء.
- ابن أصيبعة / عيون الأنباء في طبقات الأطباء / ط أولى ١٣١٨هـ.
- لسان العرب / لابن منظور / دار المعارف.
- قطر المحيط / المعلم بطرس البستاني / بيروت ١٩٦٩م.
- القاموس الطبي.
- مهمات المتن / مطبعة الحلبي.
- الموسوعة العربية الميسرة / ط القاهرة ١٩٦٥م / إشراف / محمد شفيق غريال / دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.

❦ رابعاً : الرسائل الجامعية والبحوث :

- الفكر المادى الحديث / د. محمود عبد الحكيم عثمان / رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين بالقاهرة ١٩٧٦م.
- أثر الفلسفة السنيوية والرشدية في أوربا إبان العصور الوسطى / الدكتور / عبد القادر السيد البحراوى / ماجستير مخطوطة بأداب الزقازيق ١٩٨٠م.
- تفسير سورة النحل / د. محمد متولى ادريس / رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين بالقاهرة.
- د. على السبكي / ماجستير / الرسائل النبوية وأثرها في الدعوة إلى الله / أصول الدين القاهرة ١٩٧٨م.
- مجلة العربى الكويتية / العدد ٣٣٥ / أكتوبر / السنة التاسعة والعشرون.

❦ خامساً : المطابع العامة :

هرف الألف

❦ ابن تيمية - شيخ الإسلام / أحمد بن محمد عبد الحليم

- مجموع الفتاوى - النصوص.

❦ ابن القيم / شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل

- زاد المعاد في هدى خير العباد / المطبعة العصرية.

✧ ابن بدينا / الشيخ الرئيس أبو الحسين

- الإشارات والتنبيهات / تحقيق د. سليمان دنيا / دار المعارف / ط ٣.
- أحوال النفس / تحقيق د. أحمد فؤاد الأهواني.
- تسع رسائل في الحكمة والطبيعات / ط ٢ / دار العرب للبستاني / بيروت.
- الشفا - الطبيعات - السماع / تحقيق الأستاذ / سعيد زايد / مركز تحقيق التراث / ١٩٨٣ م.

✧ ابن خلدون - العلامة / هبة المرحوم

- المقدمة.
- العبر في أخبار من غير / ج ٤.

✧ أندريسيون / الأستاذ / يونس

- ما قبل الفلسفة - ترجمة / رمزي عبد المسيح / دار الفؤاد / ١٩٤٦ م.

✧ أرسطو / الأمير شهاب

- الحل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية / طبعة أولى / المطبعة الرحمانية / ١٣٣٥ هـ - ١٩٣٦ م.

✧ إسماعيل / الدكتور / هبة الجزائري باشا

- الإسلام من خلال مبادئه التأسيسية / طبعة / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
- الإسلام والطب الحديث.

✚ أ. ب. شانتيم

- التراث العربي / ترجمة وفاء منسى

✚ الأمير / الشيخ / محمد

- حاشية الأمير على شرح عبد السلام على جوهره التوحيد / طبعة الحلبي / ١٣٦٨ هـ.

✚ النوراني / الدكتور / أحمد شوقي

- الفلسفة الإسلامية / طبعة القاهرة ١٩٦٤ م.

الكندي فيلسوف العرب / سلسلة نوابغ الفكر العربي.

- النفس لأبو الوليد بن رشد / طبعة أولى ١٩٥٠ م / مطبعة النهضة المصرية.

✚ أ. هـ / فيثال

- الفلسفة القديمة / ترجمة / حنان صبحي / طبعة دار الجيل / بيروت / ١٩٥٧ م.

✚ الإدريسي / الإمام العلامة.

- نزهة المشتاق.

✚ الأبيبي / الدكتور / شفيق

- التخدير الموضوعي عند المسلمين الأوائل.

✚ الأنطوني / الشيخ / أمين محمد

- نظرات في الفلسفة / ط أولى / دار الأنصار / ١٩٣١ م.

✧ أبو عبد الله محمد بن أبي طالب / الأندلس / أبو طالب محمد

- دراسات في الفكر الإسلامي / طبعة أولى / ١٩٨١م.

✧ أبو طالب الأندلس / جمال الدين

- في رحاب الحرمين / ط ٢ / ١٩٦٢م

✧ أبو عبد الله محمد بن أبي طالب / الأندلس / غريب

- من التراث الإسلامي / طبعة دار توفيق / ١٩٦٩م

✧ أبو عبد الله محمد بن أبي طالب / الأندلس / محمد بن أبي طالب

- الفلسفة الإسلامية في المشرق والمغرب / طبعة ١٩٦٨م.

✧ أبو عبد الله محمد بن أبي طالب / الأندلس / محمد بن أبي طالب

- التفلسف مقاييسه ودرجاته / طبعة دار الفؤاد / ١٩٧١م.

✧ أبو عبد الله محمد بن أبي طالب / الأندلس / محمد بن أبي طالب

- تحقيق رسائل الكندي.

✧ أبو عبد الله محمد بن أبي طالب / الأندلس / محمد بن أبي طالب

- الفكر الفلسفي في الإسلام.

✧ أبو عبد الله محمد بن أبي طالب / الأندلس / ناصر محمد

- الإنسان والخرافة / طبعة / محمد يسرى الشيخ / الأولى ١٩٣٧م / بابل.

✧ أبو عبد الله محمد بن أبي طالب / الأندلس / محمد بن أبي طالب

- دراسات في سورة الجن / ط ٢ / ١٩٣٥م.

٥٣٠٣

✧ أبو زعزعة / الشيخ محمد عبد العظيم

- الفرد والبيئة والأشكال المتبادلة.

✧ البيربيري / الدكتور / هشام زعزوع

- الفلسفة العامة / طدار المعرفة بتونس / ١٩٧١م.

✧ البهقيزي / الدكتور / تشارلي ياسين

- نشأة الفلسفة الطبيعية / طبعة أولى / دار الأناضولي تركيا / ١٩٥١م.

✧ أبو زيد / الدكتور / بشير

- العالم الإسلامي والثقافة الأصيلة / طبعة أولى ١٩٦٢م / دار رضوان.

حرف الباء

✧ باشا / الدكتور / سليمان مزور

- عنى هامش الطب / مكتبة النهضة الأولى / ١٩٤٩م.

✧ البتانوني / الشيخ / محمد نصر الدين

- أثر المعاهدين في سقوط الأندلس / طبعة أولى / ١٩٣٨م.

✧ البهري / الأستاذ / عبد العظيم السيد

- المجتمع الإنساني في مراحل الأولى / طبعة المطبعة الرحمانية / ١٣٣٥هـ.

✧ بيركات / الأستاذ / بيركات عبد العظيم

- دراسات قرآنية / طبعة دار مراد / ١٩٧٢م.

✧ البطل / الدكتور / علياء فوزي محمد

- الحياة العقلية في الأندلس.

✧ البنبلي / الدكتور / محمد علي

- المعجزات الإلهية المشتركة بين الأديان السماوية / ضمن كتاب الإسلام ومستقبل الحوار الحضاري / المؤتمر العام الثامن للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية / القاهرة / ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

✧ البجلي / الدكتور / محمد

- العلمانية بين النظرية والتطبيق / طبع مجمع البحوث الإسلامية.

✧ البويطلي / الدكتور / محمد سليم

- أوام الماركسية / طبعة / حلب / ١٩٧١م.

✧ بلك / أ / أنتوني

- نظرية القيمة / ترجمة يوسف رزق / دار الجبل / بيروت / ١٩٨٣م.

✧ ببيتي / أ / الأستاذ الدكتور / محمد عبد الحفيظ

- الفلسفة الإسلامية في المشرق والمغرب / طبعة أولى / ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م / دار الطباعة المحمدية.

هوف الفتا

✧ بوشيق / الأستاذ / الدكتور / عبد الباق

- نظرات في سورة الجن / طبعة / دار توفيق / ١٩٤١م.

✚ تقي الدين / دكتور / رمضان حسن.

- الفلسفة اليونانية / طبعة أولى / مطبعة سعيد رافت.

✚ التفتازاني / العلامة / محمد الدين

- مقاصد الطالبين في أصول الدين / مطبعة صبيح / والنسخة المحققة بتحقيق د. عبد الرحمن عميرة.

✚ التلمساني / الشيخ / أحمد بن محمد القروي

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب / تحقيق / د. احسان عباس / طبعة دار صادر / بيروت ١٣٨٨هـ.

✚ التليز / دكتور / محمد داود

- في تاريخ الطب العربي / طبعة أولى / ١٩٧١م.

هرف الفاء

✚ شاذي / الشيخ / محمد بن السبي

- العلوم العقلية للبيئة الإسلامية / ط الرحمانية ١٣٣٨هـ.

✚ شرونا / دكتور / حسين مرسي

- دراسات في الفلسفة الإسلامية / ط ٢ / ١٩٨٣م.

هرف الجيم

✚ الجابري / العلامة الشيب الشريفي

- حاشية الجرجاني على الطوالع.

- التعريفات / طبعة الحلبي.
- 'شرح المواقف في علم الكلام / الموقف الخامس / تحقيق د. أحمد المهدي / مكتبة الأهر.
- ✧ الجعفري / الشيخ / طبعته الأولى.
- أثر الزراج في تراث المسلمين / طبعة المطبعة الجعفرية ١٩٢١م / ✧ طبعته الأولى / طبعته الأولى.
- تاريخ فلاسفة الإسلام / ج ١ / طبعة ١٩٧١م.

خريف الخاء

- ✧ حجازي / الأستاذ الدكتور / مؤلف الكتاب / وآخر.
- في تاريخ الفلسفة اليونانية / ط ٢ / ١٩٧١م.
- ✧ حنين / الدكتور محمد حامد
- من وحى السنة النبوية المطهرة / طبعة أولى / ١٩٦٣م.
- ✧ حنين / الدكتور محمد حامد
- في تاريخ الطب عند العرب / المنظمة العربية للثقافة والعلوم / وزارة الثقافة.
- ✧ الحطاب / الدكتور / نصير الدين محمد الكريم
- أثر الإسلام في الثقافة الإنسانية / طبعة / دار عبد الرؤوف / ١٩٨١م.

حرف الفاء

✚ غير الله / الأسماء / شوقي نسيم

- الفلسفة الإسلامية بين الأصالة والاقتباس / طبعة دار الوفاء / ١٩٥١م

حرف الدال

✚ الدردري / الشيخ / محمد عبد النبي

- الحكمة الإسلامية في مصادرها الأولى / طبعة أولى / المطبعة الرحمانية / ١٣١٨هـ.

✚ الدحلان / الشيخ / محمد بن علي

- الفتوحات الإسلامية / طبعة دار العتيق / ١٣٦٥هـ.

✚ الدهراني / الدكتور / محمد عبد العظيم

- الفلسفة الإسلامية / طبعة أولى / ١٩٦٨م.

✚ ديبا / الأستاذ الدكتور / سليمان

- التفكير الفلسفي الإسلامي / ط الرباط بالمغرب / نشرة مكتبة الخانجي بمصر ١٩٦٧م وطبعة الخانجي بمصر.
- مقاصد الفلاسفة / نشرة / دار المعارف بمصر.
- نهافت الفلاسفة / نشرة / دار المعارف بمصر.

✚ ديبا / الدكتور / غير النسيب

- الأجناس البشرية وتطوراتها المختلفة / ترجمة / حنان زهدى / نشرة / المكتب العلمي / بيروت / ١٩٧٩م.

٣٠٨

✚ **الدق هانج / الشيخ / محمد عبد المنعم عبد العظيم.**

- ' الجهاد في الإسلام / طبعة أولى / دار المرسى / ١٩٣٨م.

هرف الرء

✚ **ر زقا / الدكتور / رمزي حسن**

- الأصول العامة في الفلسفة اليونانية / ط أولى / ١٩٦٧م.

✚ **راشم / الدكتور / سمير مسم**

- الكندي فيلسوف العرب / طبعة دار المروة / ١٩٧٧م

✚ **الزويج / الدكتور / أبي شادي**

- الموجز في الطب العربى / طبعة أولى / ١٩٧٣م.

هرف الزاي

✚ **ز هج / الأستاذ / محمد ز هج مصطفى**

- نظرات في الفكر الإسلامى

✚ **زايه / الأستاذ / سمير**

- الثمرة المرضية / لأبو نصر الفارابى / ط ١٩٩١م

- ابن سينا – سلسلة ذخائر العرب / ط دار المعارف / ١٩٦٩م

- الفارابى / سلسلة أعلام العرب

✚ **زايه / الدكتور / محمد حسن عبد اللطيف**

- العرب والتراث الإسلامى / طبعة أولى / ١٩٤٣م.

✚ سليمان / الأستاذ / فاضل محمد

- الإسلام والرق / طبعة أولى ١٩٦٨م.

✚ السيد / دكتور / بكري عبد الجوارث

- الفتح الإسلامي للأندلس / ط أولى ١٩٠١م.

✚ السيد / دكتور / محمد عبد الشفيق

- قوة المسلمين من دينهم / ط دار الوفاء / ١٩٨٣م.

✚ السيد / دكتور / محمد عبد الكريم

- النظام السياسي في الأندلس قبل الإسلام / ط أولى ١٩٦١م.

✚ السلاوي / الإمام العلامة

- الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى

✚ السيوطي / العلامة / جلال الدين

- الأشباه والنظائر في فروع فقه الشافعية

- الاتقان في علوم القرآن / طبع المعاهد الأزهرية

هرف الشين

✚ الشافعي / الإمام / محمد بن إدريس

- الرسالة / تحقيق / الشيخ أحمد شاكر

✚ شاكر / الشيخ محمد عبد الرحمن

- تفسير سورة العنكبوت / ط أولى ١٩٥٨م.

✧ شجاعة / الاستاذ / بركات محمد علي

- الأندلس قبل الإسلام / ط أولى ١٩٥١م.

✧ الشرح / الدكتور / محمد نور عبد البديع

- الطب عند المسلمين / ط أولى ١٩٥٧

هزلة الصفاة

✧ صالح / الدكتور / عبد التليم

- علاقة العبيد بالملوك في أسبانيا

✧ صالح / الدكتور / محمد صالح

- أسبانيا قبل الفتح الإسلامي / ط دار عبد النبي توفيق / ١٩٨١م

✧ صابر / الدكتور / عبد الحليم حنفي

- الطب والعقابر عند المسلمين الأوائل / ط أولى ١٩٦٧م

✧ السعيد / الدكتور / عبد الحليم صالح العربي

- معالم الحضارة الإسلامية في الأندلس / ط أولى / ١٤١٥هـ-١٩٩٥م

✧ السعيد / الدكتور / محمد صالح

- طبعة بلاد الأندلس / طبع مطبعة / سعيد رافت / ١٩٧٩م.

✧ السعيد / الدكتور / محمد السعيد

- مناهج البحث النظري / دار عدنان / حلب / سوريا / طبعة أولى ١٩٦١م.

✧ **مفكر / الأستاذ / رضى الله عنه**

- دراسات في القرآن الكريم / ط دار خيرت ١٩٣٧م.

هرف الفناء

- الضبيع / الأستاذ / محمود عبد اللطيف
- متطلبات الفرد في ظل الصراع الطبقي / ط أولى / ١٩٨١م.

هرف الفناء

✧ **مفكر / الأستاذ / محمد نجيب**

- كيوات المستشرقين / الدار الشرقية / ١٩٤٣م.

✧ **مفكر / الشيخ / منصور محمد**

- الإيمان عقيدة وعمل / ط ٢ / ١٣٣٦هـ.

هرف العيين

✧ **مفكر الباقي / الأستاذة / هدى محمد**

- دراسات في فلسفة ابن سينا / طبعة دار الرياض / ١٩٦٩م

✧ **مفكر الحليم / الأستاذ / محمد رفعت محمد**

- أثر الإسلام في التراث الإنسانى / ط ٢ / ١٩٧٢م / كركوك

✧ **مفكر الحبيب / الدكتور محمد بحر**

- اليهود في الأندلس / ط أولى / ١٩٨٤م / مطبعة سعيد رافيت بالقاهرة.

❖ **كتب الحديث / الفتاوى / رسائل**

- تنازع السلطات في أسبانيا قبل الإسلام

❖ **كتب الحديث / الأسفار / خاتمة رسالة**

- تاريخ الأمة الإسلامية

❖ **كتب الحديث / الفتاوى / الرسائل**

- الإصلاح في أسبانيا / ط أولى / دار الرشيد / ١٩٧١م.

❖ **كتب السلام / الفتاوى / رسالة محمد الدين**

- أثر النظام الأسري في الأندلس / ط كركوك / ١٩٧٤م

❖ **الحديث / الأسفار / رسالة الحديث**

- دور الفقهاء في الأندلس / ط أولى / ١٩٦١م.

❖ **الحقبات / الأسفار / رسائل متنوعة**

- عبقريّة عمر / ط الهيئة المصرية العامة للكتاب

- التفكير فريضة إسلامية / ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م

❖ **كتب الخطب / رسالة سائقة متنوعة**

- الفلسفة الإسلامية في المغرب / طبعة أولى / ١٩٨٣م.

❖ **كتب الحديث / الفتاوى / رسالة الحديث**

- الاتجاهات الفلسفية قديما وحديثا / ط أولى / دار رمضان للنشر / ١٩٧٨م

- ✧ **عبد الحفيظ / الأستاذة / شوزية محمد**
- دور المفكر المسلم في فهم النص الديني / طبعة أولى / ١٩٨٢.
- ✧ **عبد الحفيظ / الدكتور / سليم أحمد**
- المجتمع الأندلسي قبل الإسلام / ط أولى / ١٩٥٧.
- ✧ **عبد الحفيظ / أ / نور الدين**
- الأندلس الإسلامية / عصر الولاة والأمراء / ط ٣ / ١٩٧١م
- ✧ **عبد الكريم / الدكتور / محمد السعيد**
- المجتمع المختلط وأثره في الثقافة / ط أولى / ١٩٨٣م.
- ✧ **عبد الكريم / الدكتور / رمضان**
- الأندلس قبل الإسلام / طبعة أولى / ١٩٦١م
- ✧ **عبد / الأستاذ / بركات محمد**
- الأندلس قبل الإسلام
- ✧ **عبد الحضر / الدكتور / شوزية محمد**
- أثر المسلمين في الأندلس / ط أولى / ١٩٨٣م.
- ✧ **عبد الحليم / الدكتور / محمد يسري**
- الأنماط البشرية وأثرها في التنمية / طدار الهدى / ١٩٨٣م.
- ✧ **عبد الواد / أستاذ / نبوي محمد**
- الأندلس قبل الإسلام / طبعة أولى / دار التوفيق / ١٩٨٣م.

✚ هــنـان / الأستاذة / مـدرسة هـنـان

- دولة الإسلام في الأندلس

✚ هــنـان المصطفى / دكتور هـنـان

- سمات الفكر الإسلامي / مطبعة / سعيد رافت / ١٩٨١م

هــنـان المصطفى

✚ المصطفى / الإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد

الطبري ٤٥٠هـ - ١٠٥٨هـ، المصطفى ٥٥٥هـ

- الاقتصاد في الاعتقاد

- الجام العوام عن علم الكلام / منشورات دار الحكمة بيروت ١٤٠٧هـ.

- تهافت الفلاسفة / تحقيق / دكتور / سليمان دنيا / طبعة دار المعارف

- متاخذ الفلاسفة / تحت إشراف / سليمان دنيا

- مجموعة القصص العوالي / وكذلك رسائل الإمام الغزالي / طبعة بيروت / (ست وثلاثين رسالة) بدوت تحقيق.

✚ المصطفى / دكتور هـنـان المصطفى

- الوضعية بين المعقول واللامعقول / مطبعة آل بـسيوني / ٢٠٠٣م.

- نظرية السعادة في الفكر الإنساني / ط أولى / ١٩٩٨م.

- التفكير الفلسفي أصوله ومستوياته / ط أولى / آل بـسيوني.

- قيمة الصراع بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام / ط ٣ / المطبعة الوطنية / ١٩٨٥م.
 - ملامح من الحكمة السلامية في المغرب / ط أولى / آل بيسيوني / ١٩٩٨.
 - المدخل لدراسة الحكمة الإسلامية / ط أولى / آل بيسيوني ٢٠٠٠م.
- ✽ شهاب / الدكتور / محمد
- الإسلام من خلال مبادئه التأسيسية / طبعة المجلس الأعلى للشنون الإسلامية.

حرف الفاء

- ✽ شوقي / الأستاذ / ماجد
- رسائل ابن باجة الإلهية / طبعة دار الهنا للنشر / بيروت / ١٩٦٨م.
- ✽ فاضل / الأستاذ / عبد الوارث محمد
- دراسات في تاريخ الأندلس / ط ٢ / ١٩٧٣م.
- ✽ فكري / الأستاذ / علي
- القرآن ينبوع العلوم والعرفان
- ✽ الفقير / الشيخ / رشوان محمد عبد العظيم
- دراسات في العقيدة الإسلامية والصفات الإلهية / ط دار فؤاد / ط أولى / ١٣٣٨هـ.

✚ الفقيه / الدكتور / محمد رشدي حبيب المصطفى

- الدواء والعقائد وموقف مفكرى الإسلام منها / دار الجيل / بيروت / ١٩٧٢م.

✚ الفقيه / الدكتور / محمد بن محمد بن محمد

- أبو يعقوب الكندي وفلسفته / طبعة أولى / الموصل / ١٩٨٣م.

هوف الكفاف

✚ الفقيه / الأستاذ / أبي زبيد

- المشكلات الخلقية / طبعة أولى / ١٩٨١م

✚ الأستاذ / الأستاذ / أبي محمد بن محمد بن محمد

- الحلة السراء / تحقيق / عبد الله أنيس الطباع / دار النشر للجامعيين / بيروت / ١٣٨١هـ-١٩٦٢م.

✚ الأستاذ / الدكتور / محمد

- مناهج الأدلة في عقائد الملة لابن رشد / مكتبة الأنجلو المصرية / ١٩٦٤م.

هوف الكفاف

✚ الأستاذ / الأستاذ / أبي

- العقل ملكية خاصة / ترجمة حسين توفيق حسن / طدار الفرات بالعراق / ١٩٧١م.

حرفه الجيم

✧ **المتولي / الأستاذ / عبد المتولي شليل**

- دراسات في الملل الوثنية / ط أولى / ١٩٥٣م

✧ **المتوكشيد / الأستاذة بسلا متوكشيد**

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب / ج٢

✧ **المنيلقي / الشيخ محمد عبد الحليم نور الدين**

- فلسفة ابن سينا الكلامية / طبعة الدار الرحمانية / ١٣١٨هـ

✧ **محمود / الإمام الأكبر / عبد التليم**

- الفكر الفلسفي في الإسلام / ج١ / مكتبة الأنجلو المصرية / ١٩٥٥م

✧ **محمود / الأستاذ / محمد رجب**

- التفكير الإنساني في مراحل الأولى / طبعة دار الجبل / ط أولى / ١٩٨٧م.

✧ **محمود / الدكتورة / نورية شوقيه حسين**

- مدخل إلى الفكر الإسلامي / ط اخوان رزيق.

- مقالة في أصالة الفكر / ط دار الفكر العربي / ١٩٧٦م.

✧ **محمود / الدكتور / زكي نصيب**

- المنطق الوضعي / ج١ / طبعة القاهرة / ١٩٥١م.

- موقف من لميتافيزيقا / مطابع الشروق / بيروت / ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

- ✧ **فهرس / فهرس / فهرس**
- الفلسفة الإسلامية في المشرق / طبعة أولى / مطبعة سعيد رافت
/ ١٩٨٢م.
- ✧ **فهمية / الفهمية / فهمية**
- معالم الفلسفة الإسلامية / طبعة أولى / ١٩٧٢م.
- ✧ **الفهمية / الفهمية / فهمية**
- كتاب النفس لابن باجة الأندلسي / ط دمشق / ١٩٦٠هـ-١٣٧٩م
- ✧ **فهمية / الفهمية / فهمية**
- نظرات في الفكر الإسلامي / ط / ١٩٨٧م.
- ✧ **الفهمية / الفهمية / فهمية**
- الدولة الإسلامية في مراحلها الأولى / ط دار التوفيق / ١٩٨٥م.
- ✧ **فهمية / الفهمية / فهمية**
- عبد الرحمن الثالث وأثره في النهضة الإسلامية بالأندلس
/ ط ١٩٦١م
- ✧ **فهمية / الفهمية / فهمية**
- فجر الإسلام في الأندلس / ط القاهرة / ١٩٥٩
- ✧ **فهمية / الفهمية / فهمية**
- كتاب الملة لأبو نصر الفارابي / دار المشرق / بيروت / ط ٢
/ ١٩٩١م.

✧ المصنف / المصنف / أحمد

- شرح المواقف في علم الكلام / الموقف الخامس في الإلهيات / المكتبة الأزهرية

✧ المصنف / المصنف / هشام

- الكندي الفيلسوف / ط أولى / ١٩٧٨ / مكتبة الأستاذ

هرف النون

✧ المصنف / المصنف / هشام

- الناج الجامع للأصول من أحاديث الرسول ﷺ

✧ المصنف / المصنف / هشام

- آراء أهل المدينة الفاضلة / أبو نصر الفارابي / ط ٧ دار المشرق ١٩٩٦م.

- الجمع بين رأيي الحكيمين / دار المشرق / بيروت ١٩٩٧م / الطبعة الرابعة.

✧ المصنف / المصنف / هشام

- الصوفية بين الأحوال والمقامات / طبعة أولى / الدار الميمية / ١٣١٣هـ.

✧ المصنف / المصنف / هشام

- فصول منتزعة / لأبو نصر الفارابي / الطبعة الثانية / دار المشرق / بيروت / ١٩٩٣م

✚ نصوص / التأليف المشرق / المجتمع حبيب السنيار

- في الفلسفة الإسلامية قضايا ومناقشات / ج ١ / في المشرق

✚ نصوص / التأليف / فوزي مسمو

- المسيرة النبوية / تحقيق / حسام المقدسي / تقديم / د. عبد الحليم محمود / طبعة ١٩٧١م.

✚ نصوص / التأليف / عبد الله بن عبد الله

- أثر الفقهاء على المبدعين في الأندلس / ط أولى / ١٩٦٧م / دار الجبل / بيروت.

✚ نصوص / التأليف / هشام مسمو

- الأنا الذاتي والآخر / دار المتيم / ١٩٧١م.

✚ نصوص / التأليف / عبد الحليم مسمو

- الفارابي وفلسفته / ط أولى / ١٩٦١م

حرفه الفاء

✚ الفقه / التأليف / الشيخ مسمو بسام ميسرة

- الفتوحات الإسلامية في مراحلها الأولى / ١٩٢٣م.

✚ فقه / التأليف / فريد زيات

- المجتمع الصناعي وأثره في الإنتاج / ترجمة / هناء العطار / دار الجبل / بيروت / ١٩٨٧م.

✽ المجلد / ٤ . المجلد الثاني

- حياة محمد ﷺ / الهيئة المصرية العامة للكتاب

حرف الواو

✽ المجلد / الثاني / المجلد الثاني

- الخليفة الثاني عمر وجهوده الإصلاحية / ط أولى / طبع دار مراد
١٩٣٧.

✽ المجلد / المجلد الثاني

- الحواش وأثرها في المعرفة / ط أولى / ١٩٨٣م.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

٣	استفتاح
٥	المقدمة
١٦	الفصل الأول : ملامح الفكر الإسلامي
٢٤	١- السخرية من الأنبياء والمرسلين
٢٧	٢- اتهام اتباع الأنبياء
٣٩	أ- النقل المنزل
٤٠	ب- الفكر الإسلامي
٤١	ج- العلاقة بينهما
	الفصل الثاني : التعريف بالفلسفة الإسلامية وعلاقتها
٤٢	بالنصوص الشرعية
٥٠	أولاً : تعريفات بالاسم القائم "الفلسفة الإسلامية"
٥٠	١- تعريف الكندي
٥١	أ- التشبه بأفعال الله بقدر طاقة الإنسان نفسه
٥١	ب- أنها العناية بالموت
٥٣	ج- تعريف الفلسفة التقليدي
٥٥	٢- تعريف أبي نصر الفارابي
٥٨	٣- الشيخ الرئيس ابن سينا
٦٢	٤- السيد الشريف الجرجاني
٦٥	ثانياً : التعريف بالمعنى الشرعي
٦٦	- صفات الذات
٦٦	- صفات الأفعال
٦٧	أقسام الحكمة الإسلامية
٦٧	القسم الأول : الحكمة العلمية
٦٧	أ- الحكمة الطبيعية
٦٧	ب- الحكمة الرياضية
٦٨	ج- الحكمة الأولى
٦٨	القسم الثاني : الحكمة العلمية التجريبية
٦٨	أ- الحكمة المدنية

٦٨	ب- الحكمة المنزلية
٦٨	ج- الحكمة الخلقية
٦٩	ثالثاً : علاقتها بالنصوص الشرعية :
٧٠	أ (ورود مادة الكلمة – الحكمة – في القرآن والسنة ...
	ب) ورودها في الجوانب العديد من الدراسات
٨٤	الإسلامية
	الفصل الثالث : عوامل ظهور الفلسفة الإسلامية في المشرق
١١٥	الإسلامي
١٢٣	العامل الأول : القرب المكاني
١٣٥	العامل الثاني : السبق الزمني
١٤٥	العامل الثالث : وجود مختلفي الثقافات بالشرق
	العامل الرابع : النقل المنزل – القرآن الكريم والسنة
١٥٤	النبوية المطهرة
	المظهر الأول : وجود النص القرآني القطعي في
١٥٨	وروده الاحتمالي في دلالاته
١٦١	المظهر الثاني : ضرب الأمثال
١٦٩	أولاً : بيئة نزول القرآن الكريم
١٧١	المظهر الثالث : اخراج الأضداد من بعضها
١٧٥	المظهر الرابع : نوال المتبانات
	الفصل الرابع : عوامل ظهور الفلسفة الإسلامية في المغرب
١٨٣	الإسلامي
١٨٦	العامل الأول : تأخر الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس ...
١٩٥	أ- عصر الإمارة التابعة لبني أمية
١٩٥	ب- بداية الفتح
	العامل الثاني : وجود فلول من خصوم الإسلام
١٩٨	بالأندلس
٢٠٢	أ- طبقة النبلاء
٢٠٣	ب- طبقة رجال الكنيسة
٢٠٤	ج- طبقة التجار والزرايع والملاك
٢٠٥	د- طبقة عبيد الأرض

٢٠٦	هـ- طبقة العبيد المتنقلين فاقدى الأصول
٢٠٨	العامل الثالث : طبيعة تلك البلاد
٢١٧	العامل الرابع : التكوين الذهني للعقليات الموجودة ..
٢٢٧	العامل الخامس : تأخر هجرة مسلمي المشرق الإسلامي إلى المغرب والأندلس
٢٣٢	الصورة الأولى : الاختلاط العرقي
٢٣٢	الصورة الثانية : حركة الانتقال
٢٣٨	العامل السادس : تأخر الاستقرار
٢٤٥	الفصل الخامس : بين الفلسفة الإسلامية في المشرق والمغرب ..
٢٤٨	أولاً : أوجه الاتفاق
٢٤٨	١- التزام النقل المنزل
٢٥٧	٢- الدفاع عن العقيدة الإسلامية
٢٦٧	٣- بيان ما في النصوص المنزلة من أوجه الإعجاز
٢٧٣	- مواقف مفكرى المسلمين من تراث الإغريق ..
٢٧٧	ثانياً : أوجه الاختلاف
٢٧٨	١- اللغة المعبرة
٢٨٣	٢- استفادة اللاحق من السابق
٢٨٥	٣- الاختلاف البيئي
٢٨٧	الخاتمة
٢٩٣	فهرس المراجع
٣٢٤	فهرس الموضوعات

